فهرس

القسم الأول : الدراسات الأدبية واللغوية

صفحة

قيم جديدة للأدب العربى : المرثية الجاهلية ، دراسة نقدية
للدكتورة عائشة عبد الرحمن رئيسة قسم اللغات بالكلية ١

فى تاريخ النحو
للدكتور عبد الحميد سند الجندى الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية . . ٢٧

الشعر الحر ، نشأته وخصائصه
للدكتور ماهر حسن فهمى المدرس بقسم اللغة العربية ٤٣

القسم الثانى : دراسات فى التربية وعلم النفس

العلاقات الانسانية فى تربية النشء
للاستاذة فتحية سليمان عميدة الكلية ورئيسة قسم التربية وعلم النفس . . ٥٩

مجالات الصحة النفسية بالمدرسة
للدكتورة سمية فهمى الاستاذة المساعدة بقسم التربية وعلم النفس . . ٧٩

مفهوم النشاط فى التربية الحديثة
للدكتور محمد جمال صقر الاستاذ المساعد بقسم التربية وعلم النفس . . ١١٣

القسم الثالث : الدراسات التاريخية

علاقة الصين بديار الاسلام
للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف الاستاذة المساعدة بقسم التاريخ . ١٢٧

الجمهوريات الافريقية المنتمية للمجموعة الفرنسية
للدكتور صلاح العقاد المدرس بقسم التاريخ ١٧١

المسجد فى فجر الاسلام
للدكتور على حسنى الخربوطلى المدرس بقسم التاريخ ١٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وهذا هو العدد الثالث من حولية الكلية نقدمه ـ فى تواضع ـ الى الزملاء ، آملين أن يجدوا فيه قِرًى طيباً لعقولهم ونفوسهم ، وأن يدركوا أننا نخطو حثيثا ـ على قدر طاقتنا ـ فى ميدان الثقافة والعلم ، واشاعتهما بين الناس جميعا .

وقد أصدرناه على غرار سابقه من حيث التنظيم والتبويب ، ولكنه أرحب آفقا وأغزر مادة ، وفيه وثبة موفقة خليقة بالذكر ... هى احتواؤه على ثلاثة أبحاث علمية باللغة الانجليزية .

واذا كان لنا أن نرد الفضل الى ذويه ، فاننا لنرى لزاما علينا أن نزجى الى السيدة الفاضلة الأستاذة فتحية سليمان عميدة الكلية أعمق الشكر وأبلغ التقدير على ما قدمته لنا من توجيهات رشيدة ، وما بذلته من معونة صادقة فى تذليل العقبات التى كانت تكتنف سبيلنا .

وانا لنرجو ـ ملحين فى الرجاء ـ ألا يضن علينا السادة الزملاء بارشاداتهم القيمة ، وأن يمدونا ـ مشكورين ـ بثمار قرائحهم ونتاج عقولهم فى مختلف نواحى المعرفة فى الأعداد المقبلة ، حتى تكون أوفر حظا من الخصب والكمال .

والله نسأل أن يوفقنا لخدمة الوطن والعلم ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

رئيس التحرير

الدكتور ع . الجندى

القسم الأول :

الدراسات الأدبية واللغوية

١ — قيم جديدة للأدب العربى .

٢ — فى تاريخ النحو .

٣ — الشعر الحر ، نشأته وخصائصه .

قيم جديدة للأدب العربى :

المرثية الجاهلية
دراسة نقدية

للدكتورة عائشة عبد الرحمن
رئيسة قسم اللغات

(١)
محاولة ومنهج

هذا المقال فصل من محاولة أشتغل بها فى الكلية منذ سنين ، وأريد بهـا أن نستخلص لأدبنا العربى قيما جديدة نابعة من تراثنا الأصيل ، دون التزام بالقيم والأحكام التى ذهب اليها نقاد سلفوا ، نظروا فى هذا التراث بذوق عصرهم ، وحكموا عليـه بعقلية زمانهم ، وقوموه بموازين بيئاتهم ومجتمعهم ، ثم تركوا أحكامهم وقيمهم للعصور من بعدهم ، فتناقلها الدارسون منا جيلا بعد جيل ، وصار لها من حرمة القدم ، وطول العمر ، وسلطان الالف ، ما أضفى عليها مهـابة ترد عنها محاولات التجديد ، وتحميها ممن يجرؤون على معاودة النظر فيها بعقلية متحررة وذوق حديث .

ونقطة الانطلاق فى هذه المحاولة ، هى التفرقة بين تراثنا الأدبى ، وبين أحكام مؤرخيه وآراء ناقديه . نقصد بالتراث : النصوص الأدبية التى قاومت عوادى الزمن ووصلت الى أيدينا ، وهى مرجعنا الأول : اليها نحتكم ، ومنها نستخلص القيم ، وبها نفصل فيما لعله يشتجر من خلاف بيننا وبين النقاد القدامى ، وعليهـا نعرض قيمهم وأحكامهم فنقبل منها ما تقبله ، ونرفض ما تأباه .

ولن نشغل هنا بما ثار من شك حول هذا التراث ، مادة درسنا . فهذه قضية لم تعد فى رأينا ذات موضوع ، ونحن نعرف أن عملية الرواية للشعر العربى ،

قد خضعت فى القرنين الثانى والثالث لمنهج دقيق من التحرى والضبط والتمحيص ، على أيدى خبراء بالشعر ثقات ، لم يفتهم زيف الوُضّاع ، ولم تجز عليهم حيل الرواة الذين أرادوا أن يدخلوا على الشعر ما ليس منه ، استكثارا من البضاعة الرائجة المطلوبة ، أو استجابة لهوى من عصبية سياسية أو مذهبية أو طائفية [١] .

وقد عالجت هذه القضية فى كتابى عن «الخنساء» [٢] ولا أريد أن أعود فأتعرض لها هنا ، الا أن أقول : ان الشعر المنحول الذى جاز على أمثال المفضل الضبى وابن سلام والأصمعى وأبى زيد القرشى وأبى عمرو بن العلاء ، وأمثالهم من علماء الشعر الأقدمين ، هذا الشعر ، لا ينبغى لنا أن نرفضه بدعوى انتحاله ، وقد فصلتنا عن أصحابه وبيئاته أبعاد وآماد ، وأعوزتنا الخبرة التى كانت لأولئك العلماء القدامى ، حيث العهد بالجاهلية قريب نسبيا ، وحيث الحاجة الى شعرها لصون لسان العربية — لغة القرآن الكريم — من غزو الشعوبية الضارية ، قد أضفى على عملية الرواية فى مراحلها الأولى ، حرمة تصونها قدر المستطاع من عبث الأهواء ومنحولات الرواة ، فلم يفلت من هذا المنحول الا الذى بلغ من مهارة التقليد للأصل ما جعله كأنه هو ، وهذا ملحظ سبق اليه « ابن سلام » منذ اثنى عشر قرنا [٣] .

لا بأس علينا اذن فى الاشتغال بذلك التراث ، مطمئنين الى أن المنحول منه ، يحمل سمات الشعر القديم وخصائصه الفنية .

ولا تناقض هنا بين اطمئناننا لما اعتمده علماء الشعر الأقدمون من تراث العربية الأدبى ، وبين عدم التزامنا بما لهم فيه من آراء وأحكام ومقاييس نقدية . فهؤلاء الخبراء حجة فى المادة الأدبية من نصوص وأخبار ، وهم هم الذين وعوا تراثنا الأدبى وجمعوه ودونوه . أما اذا جاوزنا النص الأدبى والخبر التاريخى ، مما هو مادة الدرس ، الى التذوق والحكم والتقدير والتقويم ، فان الموقف يختلف ، لأن مرجعه هنا ذوق العصر وشخصية الناقد وعقلية البيئة ومزاجها .

ونعرف أن التأليف فى دراسة الشعر ونقده نشط حوالى منتصف القرن الثانى للهجرة ، فى ظل نظم سياسية واجتماعية غير تلك التى كانت للعرب

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٢١ ، ٤٠ طبعة الذخائر .
(٢) بنت الشاطىء : الخنساء ص ٨ : ١١ ط دار المعارف ١٩٥٧ .
(٣) طبقات الشعراء ص ٤٠ ط الذخائر .

فى الجاهلية وصدر الاسلام . وكان مركز الحركة ــ أول ما كان ــ فى بغداد عاصمة العباسيين ، التى كانت تصب فيها روافد وتيارات وافدة من شرق وغرب ، مؤثرة فى مزاجها العام وذوقهـا الأدبى ، بمؤثرات طارئة ، منهـا الغريب الدخيل الذى حملته ، ومكنت له من المجتمع الاسلامى ، شعوبية غازية .

ومن هنا كان التزامنا بالتراث الأدبى الذى تصدى رجال العربية بحركة الجمع والتدوين لحمايته وصونه فى مهب الاعصار الشعوبى .

ومن هنا أيضا ، كان ترددنا فى الالتزام بقيم وأحكام وآراء لهؤلاء النقـاد أنفسهم ، لأنها صدى مجتمع ، وذوق عصر ، ومزاج بيئة .

وأنتقل بعد هذه الاشارة المنهجية،الى موضوع المرثية الجاهلية ، فأقول بادىء ذى بدء ان ما أقدمه هنا لا يعدو الخطوط الرئيسية لمنهج البحث ومعالم السير فيه، أما الوفاء به فلا سبيل اليه هنا ، لضيق المجال من ناحية ، ولأن المحاولة لا يزال يعوزها استكمال الجهد الاحصائى لمراثى الجاهلية ، واستقراء نصوصها فى دقة وأناة .

والمحاولة هنا تقوم على :

١ — جمع مراثى العرب فى الجاهلية من مصادرها الأولى ، وترتيبها زمنيا على قدر ما تسمح الوسائل المعينة على هذا الترتيب .

وسنضيف اليها غير قليل من مراثى فترة الخضرمة ، التى نرى فيها امتدادا فنيا للعصر الجاهلى ، وبخاصة عند شعرائها الذين شبوا فى الجاهلية وأمضوا فيها مرحلة التأثر والتوجيه ، ثم أدركوا الاسلام بعد أن رسخت فيهم تقاليد فنية وجهت شعرهم .

٢ — تذوق هذه النصوص ، لتميز سماتها الأصيلة وخصائصها العامة .

٣ — النظر فى أحكام النقاد ، الخاصة بالرثاء ، ثم عرض هذه الأحكام على المرثية العربية لنرى ما تقبله منها وما تأباه .

٤ — رصد هذه النتائج ، لتأخذ مكانها فى البحث العـام عن قيم جديدة لأدبنا العربى .

(٢)

الرثاء فى ديوان الشعر الجاهلى

الرثاء قديم فى الشعر الجاهلى ، وهو قديم كذلك فى الفن القولى للانسانية بوجه عام ، ولسنا بحاجة الى أن نستقرىء التراث الأدبى لمختلف اللغـات ، لكى نطمئن الى أن الرثاء فن مشترك بينها وقديم فيها ، بل يكفى أن نقول ان الانسان قد عرف الموت منذ كان ، وكابد محنة فراق الأهل والأحباب ، وما كان ليقف أمام هذه المحنة المحتومة جامدا لا يحس أخرس لا يعبر ، وانما تختلف وسائل التعبير ، فتكون بالحركة والصيحة والبكاء ، وتكون بالفن عند الانسان الراقى ، يعبر عن احساسه نحو الموت ، ويترجم عن شعوره بالمصاب ، ويصور عجزه أمام هذا القضاء الرهيب المحتوم ، ويرسم لوعته وشجنه ، لفراق عزيز حبيب .

واذ كان فن القول هو فن العرب الأوحد فيما نعرف ، والى أن تثبت الكشوف والحفريات غير هذا الذى نعرف ، فمن الطبيعى أن نرى ديوان الشعر الجاهلى غنيا بالرثاء ، لأن الشعر قد كان الوسيلة الوحيدة التى يعبر بها العربى عن وجدانه ويغنى شجوه وشجنه .

ونقدر هنا أننا ندرس أدبا جاهليا ، قبل أن يخرج العرب من جزيرتهم على النطاق الواسع الذى حدث بعد الفتوح الاسلامية الكبرى ، وقبل أن يقوى اتصالهم بحضارات وثقافات أجنبية ، الى المدى الذى عرفناه بعد أن انتقل مركز الدولة من مكة والمدينة فى الحجاز ، الى دمشق فى عهد أموية المشرق ثم الى بغداد وقرطبة على عهد العباسيين وأموية الأندلس . وطبيعى أن هـذا الاتصـال ، قد استحدث للعرب فنونا أخرى غير فن القول ، أما فى العصر الجاهلى ، فانفراد الأدب بالتعبير عن حياة العرب الوجدانية ، يجعل للرثاء موضعه الهام فى أدبه ، أو هذا الذى كان يجب أن يحدث ، فما مكان الرثاء فى تراث الجاهلية الأدبى ؟

وما موضعه عند أئمة النقاد ومؤرخى الأدب السابقين ؟

اما عن حظ الرثاء من الشعر القديم ، فيحـدده الاحصـاء الدقيق لكل ما فى ديوان الجاهلية والمخضرمة من مراث ، واذ يضيق المجال هنا عن عرض مثل هذا الاحصاء ، فانى أكتفى بالاشارة الى مصادره .

فيما لدينا من الشعر الجاهلى مجموعات اختلفت فى الاعتبار الذى جمعت به ورتبت عليه ، فمنها ما جمع شعر قبيلة مثل ديوان الهذليين ، ومنها ما راعى المستوى الفنى للقصائد ، مثل المعلقات والمفضليات ، ومنها ما لم يخضع لنسق معين مثل كتب الأمالى ، ومنها ما جمع مختارات من كل فن شعرى ، مثل ديوان الحماسة ، وجمهرة أشعار العرب . ومنها ما راعى الاعتبار الدينى كطبقة شعراء اليهود عند ابن سلام ، وشعراء النصرانية للويس شيخو .

وتسهيلا لجمع المراثى ، نبدأ بالمجموعات التى راعت الاعتبار الفنى ونسقت مختاراتها فى أبواب حسب موضوعها :

ففى « ديوان الحماسة لأبى تمام » باب خاص للرثاء ، يأتى فى القسم الثانى [1] تاليا لباب الحماسة الذى أوثر بالقسم الأول .

وفى « جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى » قسم خاص مستقل لشعراء المراثى .

وفى « طبقات الشعراء . لابن سلام » طبقة خاصة أفرادها لفحول شعراء المراثى : متمم بن نويرة ، والخنساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوى[2] . واذا كان ابن سلام لم يأت بغير أبيات قليلة عن مراثيهم ، فقد دلنا على مصدر نرجع اليه ، فى موضوعنا ، وأعنى به دواوين هؤلاء الشعراء الأربعة .

ويوجد قدر كبير من المراثى فى :

« ديوان الهذليين » ، أمالى اليزيدى ، « المفضليات » لكن هذه المراثى مبعثرة لا يجمعها باب خاص .

كما توجد لدينا دواوين شعراء الجاهلية والخضرمة ، يمكن استخراج المراثى منها فى صبر وطول بال .

تأتى بعد هذا الجمع ، مرحلة الترتيب الزمنى لمراثى الجاهلية . وهى تعتمد على التقدير الاجتماعى المرن ، الذى لا مطمع فيه لتحديد دقيق ، لأزمان الشعراء

---

(١) من ص ٣٢٦ : ٤٦٣ ط السعادة ١٩١٧ .
(٢) ص ١٧٤ ط . الذخائر .

وتاريخ ميلادهم ووفاتهم ، اذ لم تتجه العناية الجادة ، الى تدوين الشعر الجاهلى والتأريخ لرجاله ، الا القرن الثانى الهجرى ، وان تكن محاولات سابقة قد بذلت ، فى العصر الأموى . وكان التدوين يعتمد على الرواية النقلية ، لا على وثائق مكتوبة أو نصوص مدونة . وفى ظروف كهذه ، يكون التحديد الزمنى الدقيق ، غير مستطاع . وأقصى ما نطمع فيه هو التقدير التقريبى على ضوء الأحداث التاريخية المعروفة من ذلك العهد البعيد .

والذى اطمأن اليه جمهرة مؤرخى الأدب العربى ، أن « عدى بن ربيعة التغلبى » كان أول من قصد القصائد[١] .

ومهما يكن الخلاف فى هذه القضية ، فالذى لا شك فيه أن عدى بن ربيعة من أقدم الشعراء المعروفين لنا فى الجاهلية . واذن فلنا أن نعد مراثى « مهلهل » فى أخيه كليب ، والمراثى الأخرى فى قتلى حرب البسوس ، من أقدم ما وصل الينا من الرثاء العربى .

ولدينا مراث قديمة ، يحتمل أنها سابقة على حرب البسوس ، كالتى قالها « البراق الأسدى » فى أخيه « غرسان » . والبراق قريب لمهلهل ، وجاهلى قديم يرجح « لويس شيخو » أنه مات سنة ٤٧٠ م . وقد اختار له ثلاث مراث فى أخيه[٢] .

وانا قدرنا أن هذه المراثى أقدم من أيام البسوس ، لأننا لم نجد للبراق أى شعر فى معاركها المشهورة ، ولو أنه قد عاش حتى أدرك مصرع كليب ، لكان من المحتمل أن يصل الينا شىء من شعره فى حرب البسوس ، وهو شاعر، وفارس، وقريب لمهلهل .

وعلى كل حال ، فهذا احتمال يقوم على الفرض الظنى الذى لا يرتقى الى مرتبة الترجيح ، اذ يحتمل أن يكون « البراق » شارك فى حرب البسوس وقال فيها شعرا لم يصل الينا .

ومن ذلك العهد القديم أيضا ، فى القرن الثانى قبل الاسلام ، مراث للشاعرة « ليلى بنت لكيز بن مرة الأسدى » فى ابن عمها « غرسان ، أخى البراق »[٣] .

---

(١) ابن سلام : الطبقات ص ٣٣ ط الذخائر .
(٢) شعراء النصرانية : ٤٧/١ .
(٣) شعراء النصرانية : القسم الأول ص ١٤٩ .

أما مراثى البسوس ، فأشهرها قصائد مهلهل فى أخيه كليب ، وهى مراث طوال ، أورد منها صاحب شعراء النصرانية عددا غير قليل [١] .

ومرثية منسوبة الى « جليلة بنت مرة » فى زوجها كليب ، وهى ذائعة مشهورة [٢] « وللحارث بن عباد » مراث فى ولده بجير [٣]

ونمضى فى التتبع الزمنى ، على ضوء ما بين الشعراء الأقدمين من قرابة أو معاصرة . فمهلهل التغلبى ، خال امرىء القيس ، فيما روى «ابن سلام» ولكنا نضع قبل شعر امرىء القيس ، زمنا ، مرثيتين لعمه « معد يكرب بن الحارث » فى أخيه « شرحبيل » [٥].

ثم تأتى مراثى « امرىء القيس » فى أبيه « حجر الكندى » ومرثية أخرى فى بعض قومه وتلتمس فى ديوانه ، وفى الجزء الأول من شعراء النصرانية .

وبعدها مراث « لطرفة » فى ديوانه ، ومرثية لرفيقه « المتلمس » يرثى بها نفسه [٦] ، وست مراث « للخرنق » أخت طرفة ، فى زوجها بشر بن عمرو [٧].

وقريب من ذلك العهد ، مراثى « عدى بن زيد » وقد جاء منها ثلاث فى شعراء النصرانية ، ولزوجته مرثية فى ولدين لهما [٨]

ومن القرن الأخير قبل الاسلام ، مراث ترتب زمنيا ، فتقدم قصائد من لم يدركوا الاسلام ، وان أدركوا بعض من عاشوا حتى ظهور الدعوة الاسلامية :

النابغة الذبيانى : حكم بين الأعشى وحسان والخنساء ، وكلهم أدرك الاسلام — له مراث فى الحارث الغسانى ، ومرثية فى أخيه [٩] .

وزهير بن أبى سلمى ، لم يدرك الاسلام وأدركه ولداه كعب وبجير ، وراويته الحطيئة . وله بعض مراث فى ديوانه .

---

(١) شعراء النصرانية : ١٦٠/١ وما بعدها .
(٢) » » » : ٢٥٢/١ .
(٣) » » » : ٢٧٣/١ .
(٤) طبقات الشعراء : ٣٣ ط الذخائر .
(٥) شعراء النصرانية ٣/١ .
(٦) » » » : ٣٤٧ .
(٧) » » » : ٣٠٠ .
(٨) شعراء النصرانية : ٤٧٩ .
(٩) ديوان الحماسة : ٣٧٢ .

قس بن ساعدة الايادى : لم يدرك الاسلام ، لكن محمدا صلى الله عليه وسلم، سمعه يخطب فى عكاظ ، قبل المبعث .

له مرثية فى صديقين له ندعين ، ماتا وتركا له الوحشة والأسى . والقصيدة نفسها منسوبة فى « ديوان الحماسة » لرجل غيره من بنى أسد [١]

ويأتى بعد هؤلاء ، شعراء الجاهلية الذين أدركوا الاسلام ، مثل :

« لبيد » وله مراث مشهورة فى أخيه أريد . « الخنساء » ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية تملأ ديوانها ، وفيه مرثية قالتها فى زوجها « مرداس السلمى » .

« دريد بن الصمة » خطب الخنساء فردته لكبر سنه ، وأدرك الاسلام شيخا ولم يسلم . له مراث فى اخوته ، بعضها فى كتاب « الأغانى » وفى شعراء النصرانية ومرثيتان من مختارات الرثاء فى القسم الثانى من « ديوان الحماسة » ولابنته « عمرة » مرثية ، تجدها فى شعراء النصرانية ، وفى مراثى النساء بديوان الخنساء « أنيس الجلساء »[٢].

ومن أشهر الراثين المخضرمين :

« متمم بن نويرة » وقد رثى أخاه مالكا .

« أبو ذؤيب الهذلى » وقد رثى بنيه .

« أعشى باهلة » وقد رثى أخاه « المنتشر » .

« كعب بن سعد الغنوى » وقد رثى أخاه أبا المغوار .

هذا ولم نشر الى مراث لشعراء من الجاهلية والخضرمة ، لم يشتهروا بالرثاء وان لم يخل ديوانهم من المراثى ، كما لم تخل منها مجموعات الشعر الجاهلى المشهورة ، وأمالى الرواة المتقدمين ، خضوعا لضيق المجال .

---

(١) ديوان الحماسة : ٢/٣٦٢ .
(٢) طبع الآباء اليسوعيين فى بيروت .

(٣)
سمات المرثية الجاهلية وخصائصها الفنية

(ا) غلبة رثاء الاخوة :

باستقراء هذه المجموعة من مراثى الجاهلية والخضرمة ، كان الملحظ الأول الذى افتنا فيها ، غلبة رثاء الاخوة ، حيث نرى :

« ابن سلام » ذكر فى طبقاته أربعة من فحول الراثين ، كلهم رثى أخاه . وهم على ترتيب ابن سلام :

متمم بن نويرة ، الخنساء السلمية ، أعشى باهلة ، كعب بن سعد الغنوى[١].

« أبو زيد القرشى » فى الجمهرة ، اختار مراثى لسبعة من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام ، أربعة منهم رثوا اخوتهم وهم :

كعب بن سعد الغنوى ، أعشى باهلة ، متمم بن نويرة ، أبو زيد الطائى[٢].

أما الثلاثة الباقون فهم :

مالك بن الريب : يرثى نفسه .

أبو ذؤيب الهذلى : يرثى أبناءه .

علقمة الحميرى : يرثى قومه .

فهى مراث أربع للاخوة ، مقابل واحدة لكل من الأبناء ، والنفس ، والقوم .

« أبو تمام فى الحماسة »[٣] جاء بمراث نص فى بعضها على شخصية المرثى ، وأهمل أخرى فلم يذكر فيمن قيلت فيه ، وكان علينا أن نلتمس الدليل عليه من النصوص . ويمكن أن يقال — فى احتياط — ان فى ديوان الحماسة سبع عشرة مرثية للاخوة :

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٧٤ ط الذخائر .

(٢) يرثى « الجلاح » وقد ذكر القرشى ان الجلاح أخ لأبى زيد ، ويؤيده دليل من نص المرثية (ص ٢٧٨ من الجمهرة) لكن الذى فى أمالى اليزيدى (ص ٧) أن الجلاح ابن أخت لأبى زيد .

(٣) شرح التبريزى . ط السعادة .

منها ما صرح فيه بذكر المرثى ، كمراثى دريد بن الصمة ومتمم ولبيد ومهلهل، وقتيلة بنت الحارث (فى أخيها النضر المقتول ببدر) وصخر السلمى فى معاوية ، وعمرة بنت مرداس فى أخيها العباس ، وهشام بن عتبة فى أخويه .

ومنها ما هدانا اليه دليل من النص ، كقول شاعر :

أبعـد بنى أمى الذين تتـابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع [١]

وقول آخر :

فلو أنهـا احـدى يدى وزئتها ولكنها يدى بانت على أثرها يدى [٢]

ويقابلها احدى عشرة مرثية فى الأبناء ، ومرثية واحدة فى الأب .

و « أبو عبـد الله اليزيدى » فى أماليـه [٣] ، جمع مراثى من الجاهليـة والاسلام ، فكان علينا أن نستبعد منها ما هو عباسى أو أموى صريح ، ونستبقى ما لا يبدو عليه الطابع الاسلامى بوضوح ، ويمكن أن يقال ان فيه من مراثى الجاهلية وقريب منها ، أعنى الخضرمة الفنية :

احدى عشرة مرثية فى الاخوة [٤].

وثلاث مراث فى القوم والسادة [٥].

ومرثية فى كل من : النفس ، والابن ، والصحب [٦] ، والحبيبة أو الزوجة [٧]

***

(١) ديوان الحماسة : ص ٣٥١ .
(٢) المصدر نفسه : ٣٧٠ .
(٣) ط حيدر أباد بالهند . وأبو عبد الله توفى سنة ٣١٠ هـ .
(٤) صفحات : ١٣ ، ٣٤ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ١١٦ على التوالى .
(٥) صفحات : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٣ .
(٦) صفحات : ٥١ ، ٨٤ ، ٧٤ .
(٧) ص : ٥٠

وغلبة رثاء الاخوة ــ فيما درسنا من شعر الجاهلية والمخضرمة ــ تحتاج الى وقفة تلتمس فيها تعليل هذه الظاهرة ، فى ضوء ما لدينا من نصوص ، وما نعرف عن حياة المجتمع العربى فى الجاهلية .

ويلفتنا فى المرثية القديمة ، أن « البراق » يصف أخاه « غرسان » بأنه صنوه ، أى شطره الشقيق . وأصل الصنو فى العربية أن تخرج نخلتان من أصل واحد ، فكل واحدة منهما صنو الأخرى . هذه المشاركة فى الأصل ، أتم ما تكون ظهورا فى الاخوة ، والشاعر القديم اذ يلتفت اليها ، تتداعى المعانى فى خاطره فيذكر أمه ، ويتمثلها اذ تستقبله وحيدا بغير أخ :

تولت رجالى بالغنائم والغنى ... مزجين للأحمال من « رملان »
ونادوا جميعا بالرحيل فلم أطق ... ايابا ، وصنوى فى المعارك فان !
أؤوب الى أمى سليما مكرما ... وغرسان مقتول بدار هوان !

« ومهلهل » كذلك ، يذكر أمه فيخرجه الأسى عما يجب لمثله من وقار ، ويضج بنواح أشبه بنواح النوادب والثكالى :

ويح أمى ، وويحها لقتيل ... من بنى تغلب ، وويحا ، وواحا !

وكعب بن سعد الغنوى يقول :

هوت أمه ، ماذا تضمن قبره ... من المجد والمعروف حين يغيب !

ومن الالتفات الى وحدة الأصل ، أن ينادى الراثى أخاه : يا ابن أمى ، وهذا النداء قديم فى المرثية الجاهلية ، سبق اليه « معد يكرب بن الحارث » عم امرىء القيس — فى رثاء أخيه شرحبيل :

يا ابن أمى ، ولو شهدتك اذ تد ... عو تميما وأنت غير مجاب
لتركت الحسام تجرى ظباه ... من دماء الأعداء يوم الكلاب

وتبعه الراثون من بعده ، فيقول الشاعر الفقعسى فى رثاء اخوته :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا ... أرجى حياة ، أم من الموت أجزع ؟

وتقول « الخنساء » فى رثاء أخيها معاوية :

قال : ابن أمك ثاو بالضريح وقد ... سدوا عليه بألواح وأحجار

هل تدريان على من ذا سبلتكما ... على ابن أمى أبيت الليل معمودا

وذكر الأمومة هنا ، التفات من الشاعر العربى الى صلة الاخوة التى تربطها وحدة أصل ، فيرى نفسه وأخاه صنوين ، ويذكر أمه ، وينادبه يا ابن أمى .

***

ومن تتبع مراثى القدامى لاخوتهم ، نجد الى جانب هذا الشعور بوحدة الأصل ، ما نعلل به ظاهرة غلبة الرثاء للاخوة : فالأخ يرى فى أخيه صنوه ، ومثله . واذا مات فكأنما مات شطر منه ، وبكى بعضه على بعض ، وهو ما أحسه الشاعر القديم فطلب الى صحبه أن ينعوه — مع أخيه — الى أهله ، ليندبوهما معا :

فمن مبلغ عنى كريمة قومه ... لتندب غرسانا ، وبراق ثانيا !

ثم ان الأخوين يخوضان معا معركة الحياة متساندين ، وليس بينهما ما يكون عادة بين جيلين مختلفين ، كالذى بين الآباء والأبناء ، والشيوخ والشباب ، حيث يعيش كل جيل فى عالمه ويحيا بأسلوب زمانه .

وفى حياة القبيلة ، يحمل جيل منها عبء الدفاع عنها والذود عن حماها ، وهو الجيل القادر على حمل السلاح وخوض المعركة وركوب المخاطر ، فمن الطبيعى أن يشعر الأخ بحاجته الى أخيه ، صاحبا ومؤازرا ومعينا :

قال البراق :

أخى ، ومعينى فى الخطوب وصاحبى ... بكل اغاراتى بحد سنان !

وقال كعب بن سعد الغنوى :

أخى كان يكفينى وكان يعيننى ... على نائبات الدهر حين تنوب

فلو كانت الموتى تباع اشتريته ... بما لم تكن عنه النفوس تطيب !

بعينى ، أو يمنى يدى ، وقيل لى : ... هو الغانم الجذلان حين يئوب

وشأن الأخوة فى الحياة أن تكون صداقة وزمالة ، ومشاركة وجدانية وتجاوبا عاطفيا ، والفا متبادلا ، فكيف بها فى مجتمع لا يقوم الا بالمعاونة والمساندة

والنصرة ! فذلك قول « صخر » فى رثاء أخيه « معاوية » :

اذا ذكر الاخـوان رقرقت عبرة ... وحييت رمسا عند « ليـة » ثاويا
وطيب نفسى أننى لم أقـل له : ... كذبتَ ، ولم أبخل عليـه بماليـا
وذى اخـوة قطعت أقران بينهم ... كما تركونى واحـدا لا أخا ليـا

وقول شاعر الحماسة يرثى أخاه :

أخ ، وأب بر ، وأم شـفيقة ... تفـرق فى الأبرار ما هو جـامع
سلوت به عن كل من كان قبـله ... وأذهلنى عـن كل ما هـو تابع

ونقدر بعد هذا أن موضع الأخوة فى حياة القبيلة قديما ، غير موضعها اليوم ، حيث أغنت طبيعـة التطور عن المعـونة والنصرة ، بما وفرت من الأمن مثلا ، وبما هيأت من وسائل ليسر الحياة ، تسعف فيها الآلة فى مختلف المرافق .

***

(ب) والمرثية القديمة تشهد بعمق المعاناة ، وقوة الانفعال بصدمة الفجيعة ، وقد عبر الشاعر فيها عن وجدانه بعبارات وألفاظ تشهد بهذه المعاناة الوجدانية العميقة ، مثل : الشجون الهاجسات ، واللوعة المكتومة ، والجراح المنكوءة ، والشرر المتطاير بين الجوانح ، والليل الطويل الذى يبدو كأن لا آخر له ، والغليل الذى لا يهدأ ولا يبرد .

قال معد يكرب بن الحارث يرثى أخاه :

ان جنبى عن الفـراش لنـابِ ... كتجافى الأسِرّ فـوق الظراب
مـن حـديث نمى الى فلا تر ... قأ عينى ولا أسـيغ شـرابى
مرة كالذعاف أكتمها النـا ... س على حـرملة كالشـهاب

وقال « البراق » يصف حاله بعد أخيه :

وقـد أصبح البراق فى دار غربة ... وفارق اخـوانا له ومواليـا
حليف نوى ، طاوى أسى ، سافك دما ... يرجع عبـرات يهجن البـواكيا

ولمهلهل :

ان فى الصـدر من كليب شجونا ... هاجسات نكأن منـه الجـراحا
أهاج قـذاة عينى الادكار ... هـدوءا فالدموع لهـا انهمـار

وظل الليـــل مشـــتملا علينـــا كأن الليـــل ليس له نهـــــار
كأنى اذ نعى النـــاعى كليبـا تطـاير بين جنبى الشـــرار
بات ليـــلى بالأنعمين طـــويلا أرقب النجم ســـاهراً لن يزولا

وتتبع هذه المعانى الوجدانية الداخلية فى مراثى العرب ، يصحح ما شـاع عن سطحية المعاناة وخارجية المعانى فى الشعر الجاهلى .

ولعل من مظاهر عمق المعاناة ، فى المرثية الجاهلية ، شعور الراثى بتجاوب الكون معه فى الانفعال بالمصاب :

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها ان أنت خليتهـا فيمن يخليهـا
نعى النعـاة كليبا لى فقلت لهم مادت بى الأرض أم مادت رواسيها
لمـا نعى النـــاعى كليبا أظلمت شمس النهـار فمـا تريد طلوعا

وهو معنى تناقله الراثون العرب من بعده وتوسعوا فيه .

***

(ج) وسبقت المرثية القـديمة الى خطاب الميت كأنه حى يسمع ويصغى ، اما لأن الشاعر لا يصدق أن فقيده مات ، واما لأنه لم يزل يشعر به ملء الحياة فى وجدانه وقلبه . وقد يظن أن هذه الظاهرة ، تكون عند قرب العهد بالميت ، ولكنا نسمع مهلهلا فى قديم المراثى ، يخاطب أخاه خطاب الحى بعـد أن بعـد العهد به وطال الفراق :

نبئت أن النـار بعـدك أوقدت واستب بعـدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمـر كل عظيمـة لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وربما أنكر الراثى — لقوة تمثله فقيده حيا — ألا يجيب الميت نداءه ، فيكرر النداء فى حسرة وأسى مرة بعد مرة ، كقول مهلهل :

دعـوتك يا كليب فلم تجبنى وكيف يجيبنى البـــلد القفـار
أجبنى يا كليب خـــــلاك ذم لقـــد فجعت بفارســـها نزار

وقد سار الراثون من بعده على مخاطبة موتاهم كأنهم أحيـاء ، وربما فرض الشاعر على غيره ، شعوره بحياة فقيده ، كقول « كعب سعد الغنوى » فى رثاء أخيه « أبى المغوار » :

وداع دعا : يا من يجيب الى النـــدى
فلم يستجب عنـــد النـــداء مجيب
فقلت : ادعْ أخرى ، وارفع الصوت عاليا
لعـــل أبا المغـــوار منـــك قريب
يجبـــك كمـا قـــد كان يفعـل ، انه
بأمثالهـــا رحب الـذراع قـريب

***

(د) وجمعت المرثية الجاهلية بين تأبين الميت ورثائه ، أى بين مدحه والبكاء عليه ، جمعا لا يرهقه تكلف ولا يئوده قسر واعتساف . وقد ظهر هذا الجمع من قديم ، فى رثاء « البراق » أخاه غرسان ، وفى رثاء « مهلهل » أخاه كليبا :

أكليب ان النـار بعدك أخمدت ونسيت بعـدك طيبات المجلس
من للأرامل واليتـامى ، والحمى والسيف والرمح الدقيق الأملس

وقد سار الراثون على هذا ، حتى صار سمة من سمات المرثية العربية بوجه عام ، ولم يكن التأبين ــ عند المجيـدين ــ يخرجنـا من جو الحزن ، بل كان فى الواقع نوعا من البيان لفداحة المصاب فى الفقيد ، ولكن بعض المتأخرين أسرفوا فى تعداد مناقب الميت ، حتى ليشتبه الأمر علينا فى المرثية ، فلا ندرى أهى مدح لحىّ ، أم تأبين لميت ، مما دعا النقاد الى التماس ألفاظ تميز بين المدح والرثاء ، على ما سوف نبينه عند الحديث عن « المرثية عند النقاد » .

وليس الأمر هكذا عند « مهلهل » اذ يقول :

نُبِّئْت أن النار بعـدك أوقدت واستب بعـدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمـر كل عظيمـة لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

ولا عند « كعب بن سعد » اذ يقول :

وداع : دعا يا من يجيب الى النـــدى
فلم يستجب له عنـــد النـــداء مجيب

فقلت : ادع أخرى ، وارفع الصوت عاليا

لعل أبا المغوار منك قريب

الى أن يقول :

أتاك سريعا واستجاب الى الندى

كذلك قبل اليوم كان يجيب

اذا ما تراءاه الرجال تحفظوا

فلم ينطقوا العوراء وهو قريب

فلسنا هنا فى حاجة الى أن نسأل : أهذا مدح لحى أم تأبين لميت ، لأن الشاعر لم يخرج بنا من جو الحزن المسيطر على وجدانه ، ولا قصد الى المدح ، بقدر ما قصد الى التعبير عن فداحة الخطب فى فقيده ، وجلال المصاب .

***

(د) وظهرت الحكمة فى المرثية العربية من قديم ، وهى لا تبدو مقحمة ولا دخيلة على الجو النفسى للرثاء ، فالموت بطبيعته حادث جلل ، يمضى بالراثى وراء الذاهب الذى لن يعود ، ويذكره بالمصير المحتوم الذى لا مفر منه ولا مناص :

طاف يبغى نجوة من هلاك فهلك

والمنايا رصد للفتى حيث سلك

مجاور قوم لا تزاور بينهم ومن زارهم فى دارهم زارهُ غدا

همُ جيرة الأحياء ، أما جوارهم فدان ، وأما الملتقى فبعيد

نمدهم كل يوم من بقيتنا ولا يئوب الينا منهمُ أحدُ

ولم تأت الحكمة فى المراثى الجاهلية الا عفوا ، عن تأمل فطرى فى مأساة الموت ، أو هذا هو ما يبدو لى فيما قرأت من هذه المراثى . على أنها كثرت فى مراثى قس بن ساعدة ، وعدى بن زيد ، وأمية بن أبى الصلت ، ممن تأثروا بالنصرانية أو اعتنقوها ، وهؤلاء يصدق عليهم قول « ابن رشيق » : « ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك والأعزة والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى

قلل الجبال ، والأسود فى الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لبأسها وطول أعمارها . وذلك فى أشعارهم كثير لا يكاد يخلو منه شعر » (١) .

لكن اطلاقه هذا القول على الشعراء القدماء ، بمثل ذلك التعميم ، فيه نظر . فالذى بين أيدينا من مراثى الجاهلية القديمة ، لا نجد فى أكثره ذكرا لفناء الملوك والأعزة والأمم السالفة ، وانما نجد مثل هذا فى بيئة خاصة ، كالحيرة ، وعند شعراء معينين مثل عدى النصرانى ، وقس الحكيم ، وأمية المتطلع للنبوة ، وأمثالهم ممن أوتوا حظا من المعرفة بالتاريخ ، والعلم بالكتاب .

***

(هـ) وتنتهى بنا هذه الملاحظ ، الى أهم سمة للمرثية الجاهلية ، وهى الوحدة الموضوعيـــة للقصـــيدة ، على غير ما ألفنـــا فى غير الرثاء ، حيث كان الشاعر ينتقل فى القصيدة من بكاء الأطلال أو الغزل ، الى الوصف ، فالمدح أو الهجاء أو الفخر ، فينقلنا الى عوالم متفـــاوتة متباينـــة ، لا يربطها غير رابط شكلى من وحدة الوزن والقافية .

ولم يكن القوم يضيقون بانتقال الشاعر من وقفة حزينة بالأطلال الى المدح فالحكمة ، على نحو ما فعل « زهير » أو من استيقاف الصحب للبكاء من ذكرى حبيب ومنزل ، الى وصف مغامرة طائشة بدارة جلجل ، الى الشكوى من ليل كموج البحر أرخى سدوله وتمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل ، الى وصف الفـــرس مكرا مفـــرا مقبـــلا مدبرا معـــا ، على نحو ما فعل « امرؤ القيس » بل لم يضيقوا بانتقال « النابغة الذبيانى » من وصف مفاتن « المتجردة » وقد سقط نصيفها فى مجلس الندامى ، فتناولته واتقتهم باليد ، الى الانذار بفراق وشيك أرجف به زعم البوارح ، وتنعاب الغراب الأســـود ، كما ضاقوا بخلل شكلى فى حركة الروى ، فجاءوا بقينة تغنى أبيات « النابغة » كى ينتبه الى ما فيهـــا من اقواء .

أما المرثية الجاهلية فلم يكن فيها هذا الاخلال بالوحدة الموضوعية للقصيدة ، كان الرائى يبكى فقيده ، ويذكر سجاياه ، ويلتفت الى عبرة الموت ، وربما طالب

(١) العمدة : ٢/١٢١ .

بثأر الميت فسمعنا فى مرثيته صليل السيوف وضجيج المعركة ، وزئير الوعيد ، لكن لا الحماسة ، ولا الحكمة ، ولا التأبين ، بالذى يزق الجو النفسى للقصيدة ، أو يهدر وحدتها الموضوعية .

بل ان ذكر الشراب والندامى ، لم يفسد هذه الوحدة فى المرثية التى قالوا « انهـا بدأت بالغزل والشراب ، فخرجت على مألوف الرثاء » وهى مرثيـة « دريد بن الصمة » فى أخيه عبد الله :

يا نديمى اسـقنى كأس الحميـا ... فى ثنيات اللوى ، من كف «ريّا»
يا نديمىّ اسـقيانى خمـرة ... ودعانى أبصر الشـيئين شـيا
ففؤادى قد صـحا من سـكرته ... واشـتفى الداء الذى كان دويا
ليت « عبـد الله » أبقاه الردى ... يا بنى العم ، وعاد اليـوم حيـا
ليتـه عاد كمـا أعهـده ... حسن القـامة وضـاح المحيـا
ليرى أعـداه معْ وحش الفـلا ... تتهـادى منهمُ لحمـا طـريا
وتركت الأرض من فيض الـدما ... تشتكى بعـد الظما فيضـا وريا

قال « ابن رشيق » :

« المتعارف عند أهل اللغة ، أنه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشبيب الا قصيدة دريد بن الصمـة . وأنا أقول ان عدم البدء بالتشـبيب هو الواجب فى الجاهلية والاسلام ، لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة . وانما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته »[1] .

ونقول ان « دريداً » فى غير حاجة عنـدنا الى أن يلتمس له « ابن رشيق » العذر عن هذا التشبيب ، بمضى سنة من مقتل أخيه ، وبأنه قد أخذ ثأره . فالحس الدقيق لا يفوته أن يلحظ أن هذا الهتاف بالندامى ، واللهفة على أن يسقوه كأس الحميا من كف « ريا » ليس مبعثـه الطرب والنسيان ، وانما هو احتفال بالثـأر قد شـفى فؤاده من داء كان دويا ، وكيف يجوز افتراض السـلو بمضى سنـة أو سنين ، وهذا « دريد » يذكر أخاه ويتمنى لو بعث حيا ، على العهد به حسن

---

(١) العمدة : ٢/١٢١ .

قامة واشراق ضحيا ، ليرى أعداءه مع وحش الفلا وقد شبعت من لحمهم فهى تتهاداه طريا ، ويرى الأرض تشتكى فيض الدما بعد الظمأ . فالجو النفسى هنا لا يختل مطلقا بهذا المطلع المتلهف على الشراب ، والوحدة الموضوعية فى القصيدة لم تضع مع هتاف الشاعر بالندامى أن يسقوه من كف « ريا » .

وهكذا يسعنا أن نقول فى طمأنينة ، ان المرثية الجاهلية قد توفرت لها هذه الوحدة التى تفتقدها غالبا فى غير الرثاء ، وبرئت من عيب الانتقال المباغت لا نستثنى مرثية دريد ، التى نرى الرابطة النفسية فيها بين حفل الشراب الذى يلتمسه الراثى المحزون ، وبين هذه الوليمة التى أقامها لوحش الفلا من لحم أعداء أخيه ، وروى الأرض من دمائهم .

وهذا الملحظ يجعل للمرثية الجاهلية قيمة خاصة ، حين تعرض الشعر العربى القديم على المقاييس النقدية التى ترضاها اليوم .

(٤)

الرثاء عند متقدمى النقاد

نستطيع بعد هذا العرض العام أن ننظر فى أحكام متقدمى النقاد ، لنرى مكان الرثاء عندهم وموضعه من الفن لديهم ، ثم نحاول على قدر ما يتسع المجال ، أن نعرض هذه الأحكام على المرثية الجاهلية لنرى ما تقبله منها وما ترفضه .

(ا) وأول ما نذكره من ذلك،أنهم حين قسموا الشعر بحسب أغراض الشعر، لم تتفق كلمتهم على عدّ الرثاء فنا مستقلا بذاته ، بل قال بعضهم « ان الشعر بنى على أربعة أركان : المدح والهجاء والنسيب والرثاء[1] » لكن كثيرا منهم ، على عدم اعتبار الرثاء غرضا مستقلا ، وانما هو تابع للمدح : « فالرمانى ، على ابن عيسى » يقول فيما نقل « ابن رشيق » :

« أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف » وقيل : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة

---

(١) العمدة : ١/٧٧ .

واللهو . ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر ، ثم يكون من الهجاء الذم والعتاب ، ومن الحكمة الأمثال والمواعظ . ومن اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر »[1].

« وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ، فالى المديح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب وما تعلق بذلك من محمود الوصف وتحسين الأخلاق ، كالأمثال والحكم والمواعظ والزهد والقناعة . والهجاء ضد ذلك كله »[2] .

بل ربما أهدروا الرثاء جملة فلم يجدوا له مكانا . وليس من العسير علينا أن نفهم سبب هذا الاهدار ، اذ يفسره الميزان النقدى الذى حددوا به ما سموه قواعد الشعر فقالوا :

« قواعد الشعر أربع : الرهبة والرغبة والطرب والغضب : فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون التوعد والعتاب الموجع[3] » .

فهم لم يهدروا مكان الرثاء لجهلهم به أو لقلة تراثنا منه ... « أبو تمام » مثلا وضع مختارات المراثى تالية للحماسة مباشرة ، « وأبو زيد القرشى » أفرد للرثاء فى « الجمهرة » باباً خاصا ، « وابن سلام » جعل لفحول المراثى طبقة مفردة ...

وانما ضيع الرثاء عندهم ، تقيدهم بالتقسيمات الشكلية والضوابط المنطقية فى التعريف،وهى نزعة طارئة على علماء العربية والاسلام فى القرن الثانى والثالث، تأثرا بما نقل اليهم من منطق أرسطو وفلسفة اليونان ، فكان ما كان من حصرهم مثيرات الوجدان بكذا وكذا ، وتحديدهم لأغراض الشعر وأركانه بكيت وكيت . ووراء هذه التقسيمات والضوابط ، لم يعنهم أن ينفذوا الى أعماق الوجدان ، أو يتصلوا بجوهر الفن ومنابعه الأصيلة فى النفس . ومن ثم جاءت أحكامهم ومقاييسهم فى الغالب ، جامدة جافة ، لاحظ لها من نفاذ النظرة وذوق الفن .

***

(١) ابن رشيق : العمدة ١/٧٧ ، ٧٨ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ديوان الحماسة : الباب الثانى .

(ب) من تلك الأحكام، الحاقهم الرثاء بالمدح على ما نقلنا آنفا من كلام ابن رشيق فى العمدة ، ومن قبله نقل « ابن سلام » عن يونس بن حبيب : « ان التأبين مدح الميت والثناء عليه ، والمدح للحى »[1] وهى قولة شاعت من بعده ، وانتهت الى ما يشبه المسخ الفنى ، فى قول « قدامة بن جعفر » فى باب نعت المراثى : « ليس بين المرثية والمدحة فصل الا أن يذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل : كان ، وتولى ، وقضى نحبه ، وما أشبه ذلك ، وهذا ليس يزيد عن المعنى أو ينقص منه ، لأن تأبين الميت انما هو بمثل ما كان يمدح به فى حياته »[2] .

وتابعه على ذلك المسخ متابعون ، فيقول « ابن رشيق » : « ليس بين الرثاء والمدح فرق الا أن يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود به ميت ، مثل : كان أو عدمنا . أو ما يشاكل هذا ، ليعلم أنه ميت »[3] .

وهى بلا ريب نظرة سطحية عشـــواء ، لا تتصل بجوهر الفن من قريب أو بعيد ، حين تغفل العنصر الوجدانى اغفالا تاما ، وتنسى الجو النفسى المسيطر على الراثى ، وهو جو بعيد كل البعد عن جو المادح . ومتى صارت المسألة عند هؤلاء النقاد ، مسألة لفظ لا يزيد فى المعنى ولا ينقص منه ، فهو المسخ الذى يستوى عنده أن ترثى فقيدا بقلب موجع حزين ، وأن تمدح حيا بنفس متفتحة وقلب يفيض بهجة واشراقا .

ومعاذ الفن أن يستوى الأمران ، ومعاذ الحق أن تقبل الرثية الجاهلية هـــذا المسخ ، وانها لتشجينا من وراء بضعة عشر قرنا ، بصدى المعاناة العميقة ، التى تفرض حزنها على الكون كله .

***

(ج) ومن أحكامهم كذلك ، قول بعض النقاد ، فيما نقل « ابن رشيق »[4] :

« أصعب الشعر الرثاء ، لأنه لا يعمل عن رهبة أو رغبة » . وهو حكم يحصر مثيرات الانفعال الوجدانى فى الرغبة والرهبة . ويجعل الشاعر حين ينقطع رجاؤه

(١) طبقات الشعراء : ص ٥٠ ط بريل ، ليدن .
(٢) نقد الشعر : ٥٩ .
(٣) العمدة : ١/٧٩ .
(٤) العمدة : ٢/١٢٤ .

فى الميت ، أو خوفه منه ، يشق عليه أن يرثيه ! وهم هنا لم يدخلوا فى حسابهم ، الانفعال بالأسى ، أو الحزن لفقد عزيز ، أو الترنح تحت الصدمة التى تهز وجدان الشاعر حين يواجه مأساة البشرية الكبرى ، فى ميت من أحبائه وذويه .

ذلك لأن الرغبة عندهم ، كانت تعنى الطمع فى عطاء حاكم أو غضب أمير . بديل أنهم حصروا مجال الرهبة فى الاعتذار والاستعطاف ، وفاتهم وراء هذا الملحظ المادى المحدود بفهمهم لوظيفة الشعر فى مجتمعهم ، أن ينتبهوا الى مثيرات أخرى للرهبة ، كشجن الفراق الطويل الذى لا لقاء بعده ، والخوف من وحشة الفراغ بموت حبيب ، ومن وطأة الذكريات حين تعاود الأحياء ، معيدة رؤى الماضى وأطياف الذين غابوا ، بل فاتهم أن يلتفتوا الى رهبة الموت نفسه ، بما يبعث فى النفس من خوف طاغ ، من ذلك القدر المحتوم الذى لا ينجو منه حى،ولا تشفع فيه رُقية ، ولا يعصم منه معقل . وليس أشد من هذا الخاطر ترويعا لأمن النفس واثارة لخوفها . والشاعر بطبيعته أرهف الناس احساسا وأرقهم وجدانا . لكن نقاد العصر العباسى أسقطوا هذه الرهبة من حسابهم ، لأنهم لم يتصورا خوفا الا الخوف من ذى سلطان يضر وينفع . وعذرهم فى ذلك أن أكثر شعراء عصرهم كانوا كذلك، يخافون غضب الأمير أكثر من خوفهم من الموت ، ويخشون الحاكم أشد مما يخشون الله . فلا عجب أن حكم النقاد على الرثاء ، بعقلية تعيش فى مجتمع طبقى استبدادى ، فجاء حكمهم صادقا بالنسبة الى من عرفوا من مداح الملوك الذين يمدحون عن رغبة فى العطاء أو خوف من السلطان ، فاذا انقطع الرجاء والخوف بالموت ، شق عليهم أن يرثوا الموتى الا أن يكون تملقا لخلفائهم ذوى المال والسلطان . « فالأخطل » مثلا ، ملأ الدنيا بغرر مدائحه فى بنى أمية ، وكان شاعر بلاطهم ، وليس فى ديوانه غير قصيدة واحدة للرثاء ، لأن الميت ليس عميلا صالحا لمبتغى العطاء . ويروون أن « أحمد بن يوسف » قال لأبى يعقوب الخريمى : « أنت فى مديحك لفلان ــ كاتب البرامكة ــ أشعر منك فى مراثيك له . فقال أبو يعقوب : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ! »[1]

ولكن هذا الرأى ان صدق على الشعراء المرتزقة ، فى عهود الحكم الفردى المطلق ، فانه لا يصدق على شعراء أصلاء ، لم يقولوا الشعر عن مثل تلك الدوافع

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١/٧٩ .

المادية . ونستطيع أن نشهد الفرق واضحا ، بين القيم الفنية للمجتمع العربى الأصيل ، فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وبين ما صارت اليه عندما صار الشاعر أجيرا تابعا لذوى الجاه والسلطان ، بالموازنة بين كلمة « أبى يعقوب الخريمى » وكلمة أخرى لمتمم بن نويرة ، حين رثى « زيد بن الخطاب » فلم يحسن الرثاء ، فقال له « عمر » رضى الله عنه : « لم أرك رثيت أخى زيدا ، كما رثيت أخاك ! فأجاب متمم : « انه والله يحركنى لمالك أخى ، ما لا يحركنى لزيد أخيك » .

ومراثى الجاهلية بين أيدينا ، ترفض ما ذهب اليه النقاد من « صعوبة الرثاء لأنه لا يعمل عن رهبة أو رغبة » وقد كان على هؤلاء النقاد ، أن يفسروا لنا ، كثرة الرثاء فى ديوان الشعر العربى ، واستئثار الاخوة بالحظ الأكبر من المراثى فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وما مثلها بالذى يعمل عن رغبة أو رهبة ، على ما فهموا من معناهما .

***

(د) وقريب من حكمهم هذا بصعوبة الرثاء لأنه لا يعمل عن رغبة أو رهبة ، قول « ابن رشيق » :

« ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر ، أن يرثى طفلا أو امرأة ، لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات »[1] وهو قول يبدو لنا غريبا ، اذ لا نستطيع أن نتصور ما هو أفدح وأقسى من انطفاء الحياة فى الولد طفلا يتفتح للحياة أبعد ما يكون الظن به أن يموت ، أو موت امرأة لا تعدو أن تكون أما أو بنتا أو زوجة أو حبيبته ، وهى فى كل هذه الحالات ، نبع الحنان ومبعث الأنس ومصدر الالهام .

وحين نعرض هذا الحكم النقدى على المرثية العربية ، بوجه عام ، نجد مراثى الأبناء غير قليلة ، فهى فى الاحصاء العددى الذى حاولناه ، تأتى تالية لمراثى الاخوة التى ظفرت بأكبر حظ من الرثاء فى الجاهلية والخضرمة . والشعر العربى بعامة ، لا الجاهلى وحده ، يعتز بروائع من رثاء الأبناء ، تعد من عيون الشعر العربى . ويكفى أن نذكر هنا مرثية « أبى ذؤيب الهذلى » فى بنيه ، ومرثية

---

(١) العمدة : ٢/١٢٤ .

السلكة فى ولدها السليك ، ومراثى « ابن الرومى » فى أولاده ، ومرثية « التهامى » فى ابنه الذى فجع فيه صغيرا كالهلال لم يكتمل ، ومراثى شعراء « الحماسة » فى الأبناء ، ومرثية مختارة فى « أمالى اليزيدى » لشاعر من طيىء فى ولده . وهذه الروائع تكفى وحدها للرد على ذلك الحكم النقدى الذى يهدر انسانية الأب العربى ، ويجرده من مشاعر الرحمة وعواطف الأبوة .

ولو قال النقاد ، ان رثاء الولد الصغير صعب ، لأن المصاب فيه من القسوة والفداحة بحيث يشل لسان الأب الشاعر ، فلا يدرى ماذا يقول فى محنة شكله ، لقبلنا حكمهم راضين ، ولكن النقاد وجدوا رثاء الولد الصغير من أشد الأشياء صعوبة على الشاعر ، لا لفداحة المصاب ، بل « لضيق الكلام فى الصغير ، وقلة الصفات » ! .

ونقول اذا كان الشاعر الثاكل يجد صعوبة فى رثاء ولده الطفل ، فليس ذلك لأنه يجد مجال القول فيه ضيقا ، أو لقلة الصفات كما ظن النقاد ، وانما لأن حزنه أقوى من أن يعبر عنه ، ولأن صدمة الثكل قد تكون من العنف بحيث تشل اللسان وتمزق القلب . ولعل هذا يعين على تفسير الظاهرة التى أشرنا اليها ، وهى غلبة رثاء الاخوة — لا الأبناء — فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام .

أما كلام النقاد عن صعوبة رثاء المرأة ، لضيق الكلام فيها وقلة الصفات ، فلا تفسير له عندنا الا أن القوم — وقد عاشوا فى العصر العباسى — نظروا الى المرأة بعين مجتمع استرقها ، وعزلها عن الحياة العامة ، وفرض عليها الوأد العاطفى والمعنوى . فلهم عذرهم ، اذا لم يتصوروا أن هناك ما يمكن أن يقال فى رثاء المرأة ، وقد رأوها مهدرة الحرية معطلة المواهب معزولة عن الحياة العامة ، ولست أستبعد أن يكون لشعراء الجاهلية مراث فى المرأة ، لم يهتم رواة الشعر فى القرنين الثانى والثالث بجمعها ، ولم يحفل النقاد بأمرها ، كما لم يحفلوا بشعر المرأة فى غير الرثاء الذى حصروا فيه مجالها الفنى . وهو موضوع لا أريد أن أتوسع فى الحديث عنه هنا ، لأن له بحثا مفردا ، مستقلا ، فيما أشتغل به من « قيم جديدة للأدب العربى » وقد ألممت به فى دراستى للخنساء ، وفى مقال لى عن « رابعة العدوية : أديبة شاعرة » المنشور بالعدد الأول من حولية الكلية .

أجل ، لا أستبعد أن يكون للشعراء القدامى مراث فى المرأة لم يحفل بهـا الرواة والنقاد ، وقد أفلتت مع ذلك بعض مراث ، أذكر منها مرثية « عنترة »[١] فى « تماضر » أم صديقه قيس بن زهير العبسى ، وهى من أقوى مراثى « عنترة » كما أذكر من تراثنا الأدبى مرثية « لمحمد بن عبد الملك » فى أم ولده ، وقد عدها النقاد أنفسهم من أروع المراثى[٢] ولا يعدلها فى رأينا ، فنيا وانسانيا ، ديوان كامل من المراثى المتكلفة التى تصف سجايا الفقيد وتسرد صفاته سردا اخباريا ، لا حظ له من استبطان نفسى وانفعال وجدانى .

***

وأعود فأقول ، انه ليس بمستغرب من هؤلاء النقـاد ، ولا بمنكر فى تقـدير عصرهم ومجتمعهم أن يصدروا مثل تلك الأحكام على الرثاء ، فهم كما رأينـا يقدرون بواعث الحزن بمثيرات مادية غير نفسية ، فالشعر عندهم يصدر عن رغبة أو رهبة ، ومجال القول فى الرثاء يتسع اذا تعلقت به رغبة أو اذا كانت له سجايا وصفات ، يمدح بها حيا ، ويؤبن بها ميتا . والا ضاق مجال القول ، وصـار من الصعب رثاء ميت انقطع منه الرجاء ، وأشد صعوبة أن يرثى الشاعر ولدا صغيرا ثكله ، أو امرأة لا يعرفون لها فى مجتمعهم صفة أو مكانة .

ولا أرانى أبعد عن الحق ، اذا قلت انها مقاييس وقيم تأباها المرثية العربيـة الأصيلة ، التى لمحنا فيها صدق المعاناة وعمق الانفعال بمثيرات للحزن غير نفعية مادية ولا سطحية ظاهرية .

وأرجىء ما وراء هذا من استخلاص للقيم الجديدة ، الى أن أفرغ من بحث الموضوع ورصد نتائجه ، معتذرة عما فى حديثى هذا ، من ضغط للفكرة ، ونقص فى الشواهد ، وسرعة فى الاستقراء ، راجية أن يتاح لى استكمال البحث فى مجال أرحب وأوسع ، والله المستعان .

---

(١) شعراء النصرانية : ٨٦١/٦ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ١٢٥/٢ .

فى تاريخ النحو

للدكتور عبد الحميد سند الجندى

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لقد كان من حدوث اللحن ما حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم ، فشرعوا يتكلمون فى الاعراب وقواعده حتى تم لهم مع الزمن هذا العلم . وتجمع المصادر على أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رءوسه كلهم بصريون .

وأول من أرسل فى النحو كلاما أبو الأسود المتوفى سنة ٦٧ [١] . وقد أفاض ابن النديم وابن الأنبارى فى أولية وضع النحو وسبب ظهوره ، وهو كلام طويل معروف [٢] ويؤخذ منه أنه قيل ان عليا كرم الله وجهه هو الذى ألقى على أبى الأسود شيئا من أصول النحو ثم قال له : « انح هذا النحو » . وقيل ان أول من تكلم فيه نصر بن عاصم وقيل عبد الرحمن بن هرمز ، وقيل لم يصل الينا شىء قبل يحيى بن يعمر وابن أبى اسحاق الحضرمى .

وان من يقرأ بامعان ترجمة أبى الأسود فى كتب التراجم ، ثم يفكر فى توارد أكثر المصادر على اعتباره واضع الأساس فى بناء النحو لا يستبعد ذلك . فالرجل ذو ذكاء نادر وعقل حصيف ، ثم هو بليغ أريب مرن الذهن . وحسبك اختراعه « الشكل » الذى عرف بنقط أبى الأسود . ولا شك أن الشكل أجدى على حفظ النصوص من حدود النحو ، وقد سبق السريان أبا الأسود فى وضع ضوابط للحركات فى لغتهم ، ومن الجائز أن يكون أبو الأسود قد استأنس بهم حين هم بوضع الشكل وقد كانوا يملئون البصرة فى زمنه [٣] .

---

(١) المعارف ١٩٢

(٢) انظر الفهرست ٣٩ وطبقات الأدباء ص ٣

(٣) محاضرات الأستاذ جويدى ص ٨٣

ومهما يكن من شيء ؛ فان هؤلاء الذين ينسب اليهم الأولوية فى وضع النحو فى بعض الآراء مثل نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الأقرن كلهم تلاميذ أبى الأسود أو تلاميذ تلاميذه ، عنه أخذوا العربية والقراءة بالبصرة. وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة . ثم نشـــأ بعد نحو مائة عام من تلاميذهم من ذهب الى الكوفة فعلم بها فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى «مدرسة الكوفة » . وخليق بى أن أبين ذلك بشيء من التفصيل :

فيحيى بن يعمر (١٢٩) روى عن ابن عمر وابن عباس [١] ، ووصف بالعلم والأمانة . وعنبسة الفيل « تعلم النحو وروى الشـــعر وظرف [٢] »حتى صار — كما يقول الخليل — « أبرع أصحاب أبى الأسود [٣] ». وميمون كان رأس الناس بعد عنبسة ، وأبو عبيدة يجعله بعد أبى الأسود فى تأسيس العربية [٤] . ونصر بن عاصم (٨٩) كان « أحد القراء الفصحاء وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس » ويذهب بعضهم الى أنه أول من وضع العربية [٥] .

والرواة يذكرون أن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثى قد ابتكرا نقط الحروف لتمييز المتشابه منها كالباء والتاء والياء والنون باشارة من الحجاج . وتلك خطوة كبرى تلى خطوة أبى الأسود فى ضبط العربية .

وهؤلاء هم عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى .

فأما عبد الله الحضرمى (١١٧) فأمره مع الفرزدق معروف اذ كان يتعقبه ويأخذ عليه سقطات نحوية ، وقد هجاه الفرزدق من أجل ذلك [٦] . وكان الناس يفاضلون بينه وبين معاصره أبى عرو بن العلاء ويقدمونه فى النحو ويقدمون أبا عمرو فى

---

(١) الفهرست ٦٢
(٢) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٤
(٣) المزهر ٢/٣٩٨
(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٥
(٥) اخبار النحو بين البصريين ص ٢١ . والفهرست ٥٩
(٦) انظر الشعر والشعراء ٢٥ طه شاكر .

اللغة وكان عبد الله « أعلم أهل البصرة وانقلهم ، فرع النحو وقاسه وتكلم فى الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه [١] .

وأما أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) فمن أشراف مازن وأحد الأعلام فى القرآن واللغة ، وهو أحد القراء السبعة ، ويقول فيه أبو عبيدة : أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف [٢] . وأخذ عن نصر بن عاصم وعن يحيى بن يعمر وعن قارىء مكة عبد الله بن كثير .

وأما عيسى بن عمر فقد أخذ عن عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى وأبى عمرو بن العلاء ، وعد فى القراء البصريين ، وهو امام فى العربية والنحو ، ولعله أول من ألف فى النحو ، وقدوضع كتابين لم يصل الينا منهما أثر . والظاهر أن تلميذه الخليل بن أحمد قرأها وأعجب بهما فقال :

ذهب النحـــو جميعـــا كله غير ما أحـــدث عيسى بن عمـــر
ذاك (اكمال) وهـــذا (جامع) فهما للنـــاس شمس وقمـــر [٣]

والظاهر أنهما فقدا فى زمن متقدم لأن أبا سعيد السيرافى — وليس بينه وبين عيسى بن عمر أكثر من مائتى سنة — يقول : لم يقعا الينا ولا رأينا أحدا ذكر أنه رآهما [٤] .

ويذكرون عن ابن عمر هذا انه كان فصيحا ، ويقول عنه ابن قتيبة : كان صاحب تقعير فى كلامه واستعمال الغريب فيه [٥] .

وقد تلمذ على عيسى بن عمر الخليل بن أحمد وسيبويه وأبو زيد الأنصارى أئمة البصريين ، وأبو جعفر الرؤاسى الذى صار فيما بعد رأس الكوفيين ، وخلفه فى ذلك تلميذاه الكسائى والفراء . وبهذه الطبقة نصـــل الى ما سموه بالمذهب الكوفى .

---

(١) المزهر ٢/ ٢٠٠
(٢) بغية الوعاة ٨٩
(٣) فى أصول النحو لسعيد الأفغانى ١٤١
(٤) الفهرست ٦٢
(٥) المعارف ٢٣٥

وكل واحد من هؤلاء مشـــهور ، فالخليل بن أحمد (١٧٥) كان الغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فقد بسطه وفرع على أصوله . وهو أول من استنبط العروض ، وعمل كتاب العين الذى تهيأ به ضبط اللغة . وهو أستاذ سيبويه ، وعامة الحكاية فى كتابه عنه ، فكلما قال سيبويه (وسألته) أو « وقال » من غير أن يذكر المسئول أو القائل فهو الخليل . هـذا الى نواح أخرى مجيدة تدل على عبقريته وفضله على العربية . ويقول عنه ابن جنى : سيد قومه وكاشف قناع القياس فى عمله[1] .

وأما أبو زيد الأنصارى (٢١٥) فكان ثقة صدوقا راوية ، وكان مقدما فى النحو على الأصمعى وأبى عبيدة ، ولكن غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، وحولها يدور أكثر مصنفاته .

وأما سيبويه (١٨٠) فأمره مشهور وكتابه يعتبر قرآن النحو كما يقولون ، وكان فى أول أمره يطلب الحديث والفقه . وذات يوم كان يستملى على حماد بن سلمة فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس أحد من أصحابى الا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء . فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحنت يا سيبويه ، ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علما لا يلحننى فيه أحد أبدا[2] . وراح يطلب النحو فلازم الخليل بن أحمد وأخذ أيضا عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهما . وكان الخليل يؤثره ويقدمه على جميع أصحابه ، فدون سيبويه جميع ما أخذه عن الخليل ، ونقل فيه عن غيره من بعض البصريين والكوفيين ، فجمع فى كتابه ما لم يجتمع قبله فى كتاب وصارت كتب النحو بعده عالة عليه .

والكتاب مملوء بالقيـــاس والعلل والفروض مما يدل على أنه متأثر بفقه الحنفية وقد عاصر سيبويه تلميذى أبى حنيفة أبا يوسف ومحمدا .

وقد روى « الكتاب » ونشره أبو الحسن الأخفش الأوسط ، وقد لزمه أثناء تأليفه ، وكان يقول فى ذلك : ما وضع سـيبويه فى كتابه شيئا الا عرضه على . وكان الأخفش مخلصا لسيبويه ، فقد خرج الى بغداد ليناظر الكسائى انتصارا

---

(١) الخصائص ١/٣٦٦

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية للاسكندرى ١٠٢

لشيخه سيبويه لأنه كان من كبار المتكلمين المعتزلة ومن أحذق الناس بصناعة الجدل . ولننتقل الآن الى رأس مدرسة الكوفة أبى جعفر الرؤاسى .

أخذ أبو جعفر العلم فى البصرة على أئمتها كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، ولكنه لم يَنْبُه مثل تلاميذها الآخرين ، وعاش بالبصرة غير معروف [١] . وهو أول كوفى ألف فى العربية ، وكل ما ورد فى كتاب سيبويه من عبارة « وقال الكوفى » انما يعنى أبا جعفر الرؤاسى هذا . ويقال أنه عرض كتابه « الفيصل » على أصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا اليه واستخزى هو من اظهاره . وهو يعد من قراء الكوفيين .

ولما رجع الى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء (١٨٧) مرجع الناس فى العربية فى هذه المدينة ، وكان يعنى بمسائل الصرف خاصة ، ويقال انه أول من وضع التصريف [٢] ، وتبعه فى ذلك من قرأ عليه من الكوفيين حتى قيل انهم فاقوا البصريين فيها . ومن هنا عدهم بعض العلماء واضعى على الصرف . وقد تخرج على الرؤاسى تلميذاه المشهوران الكسائى والفراء .

فالكسائى أعجمى الأصل وأحد القراء السبعة وامام الكوفيين فى العربية . وسمى الكسائى لأنه كان يحضر مجلس معاذ الهراء والناس عليهم الحلل وعليه كساء ورداء [٣] ، واسمه « أبو الحسن على بن حمزة » . وقد أخذ عن يونس البصرى ، وجلس فى حلقة الخليل ثم خرج الى بوادى نجد والحجاز وتهامة يأخذ عن الأعراب ، فانفد خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، ثم قدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفى مكانه يونس ، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره فى موضعه . ثم انتقل الى بغداد فعاش فى قصر الرشيد مؤدبا للأمين والمأمون ، ونال الحظوة وأقبلت عليه الدنيا . ولما خرج الرشيد الى الرى اصطحب معه الكسائى ومحمد بن الحسن الشيبانى فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ فى يوم واحد فقال الرشيد : دفنت الفقه والنحو فى يوم واحد [٤] .

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٢٣/١٨

(٢) المزهر ٢٠٢/٢

(٣) الفهرست ٦٥

(٤) انظر الفهرست ٦٥ ووفيات الأعيان ٣٣٠/١

وأما الفـــراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على أبى جعفر الرؤاسى ثم لازم الكسائى ببغـــداد . واسم الفراء « أبو زكريا يحيى بن زياد الأسلمى » .

والذى حثه على الخروج الى بغداد شيخه الرؤاسى ، وقد صنف كتاب «معانى القرآن » الذى قال فيه أحدهم : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أحدا يريد عليه [١] . وكتبه التى تركها تدور حول مسائل من اللغـــة والنوادر والصرف والنحو والقرآن . ويقول ابن النديم : كان الفراء يتفلسف فى تأليفاته ومصنفاته، يعنى يسلك فى ألفاظه كلام الفلاسفة [٢] وكان غاية فى الذكاء والحفظ ، وقد أمر المأمون أن تفرد له حجرة من حجر دار الحكمة ووكل به من يكفيه كل حاجته حتى لا تتشوف نفسه الى شىء ، وصير له الوارقين فكان يملى وهم يكتبون حتى صنف كتاب «الحدود» . واسم الكتاب يدل على تأثره بالمنطق ، فهو يريد بالحدود التعاريف كحد الفاعل وحد المعرفة وحد الحال وهكذا ، وهذا يفسر لنا قول ابن النديم . وكان الفراء عظيم الفضل ، ولذلك يقولون : لولا الفراء لما كانت اللغة ويقول ابن الأنبارى : لو لم يكن لأهل بغـــداد والكوفة من علماء العربية الا الكسائى والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم اليهما [٣] .

وتكفينا هذه النبذة عن رجال المدرستين ، ولنحاول الآن تتبع الخلاف بينهما ومعرفة طبيعته متوخين الايجاز فنقول :

يشاهد أن ســـيبويه ينسب أقوالا كثيرة فى كتابه الى « الكوفى » وهو أبو جعفر الرؤاسى . ويبدو أن مرافقة الرؤاسى للخليل بن أحمد أستاذ سيبويه فى القراءة على عيسى بن عمر الثقفى خلقت بينهما نوعا من الأنس سمح للخليل أن يطلب من الرؤاسى كتابه ، فروى منه بعض أقواله لتلميذه سيبويه فأثبتها هذا فى كتابه . ويؤيد هذا أن الرؤاسى نفسه يقول : بعث الى الخليل يطلب كتابى

---

(١) الفهرست ص ٦٦
(٢) الفهرست ص ٦٦
(٣) طبقات الأدباء ١٩٨

فبعثت به اليه فقرأه[1] . ومن المحتمل جدا أن يكون سيبويه قد أخذ من الرؤاسى بعض أرائه فى النحو ابان اقامة الأخير بالبصرة .

وقد كان الخلاف يقع بين البصريين أنفسهم ، ولكنه لم يكن ذا خطر ، اذ لا يعدو أن يكون لونا من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة والرد عليها . وكثيرا ما نرى سيبويه يورد لأشياخه أقوالا يخالفهم فيها . ويدلنا على ذلك قوله : وزعم الخليل .. وزعم يونس .

ومن المرجح أنه حدث خلاف بين الخليل والرؤاسى ، ولكنه كان خلافا لم تدنسه شوائب المادة ، فظل هادئا صافيا لأن كليهما كان عفيفا تقيا صالحا لا يأبه لأعراض الدنيا .

ثم شاء الله أن يقرب بنو العباس شيخ الكوفيين الكسائى وتلاميذه وأن يوكلوا اليهم أمر تربية أبنائهم من ولاة العهد والأمراء وأن يغدقوا عليهم العطايا ، وذلك لأن أهل الكوفة — على العموم — كانوا أخلص للعباسيين وأحسن سابقة معهم لأنهم كانوا شيعة بنى هاشم ، على عكس أهل البصرة ، فقد كان أكثرهم عثمانيين . هذا الى أن الكوفة قريبة من بغداد ، ففرع علماؤها أبواب العاصمة قبل أهل البصرة . ولذلك اتخذ الكسائى معلما لولدى الرشيد ، وتلميذه الفراء معلما لأولاد المأمون ، وابن السكيت تلميذ الفراء معلما لأولاد المتوكل . وقلما نجد بصريا يحظى بتقريب من قصر الخلافة كاليزيدى البصرى أحد معلمى المأمون، وكالمبرد الذى شارك ثعلبا الكوفى فى تعليم عبد الله بن المعتز .

وقد ذاق الكوفيون طعم الحياة الناعمة بجوار بيت الخلافة ، فحرصوا على ذلك أشد حرص ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علما ، فأخذوا يحطون من قدرهم ويحولون بينهم وبين الحظوة المادية والأدبية لدى الخلفاء العباسيين لأنهم يعلمون علم اليقين أن علمهم قليل بجانب علم البصريين . ويقول أبو حاتم السجستانى : لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائى دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات الأعراب مطروحة لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على

---

(١) الفهرست ٢٤

ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم واليه يرجعون [١] .

وأيا ما كانت المبالغة فى قول أبى حاتم ، فلا جدال فى أن الكوفيين كانوا دون البصريين علما ومعرفة ، وانهم أرادوا ستر هذا القصور بالتمكين لأنفسهم فى قصور الخلفاء والاجهاز على خصومهم فى غير ما هوادة أو ريث . ومن أجل هذا كان الكوفيون يتحرون أن تكون الملاحاة بينهم وبين البصريين أمام الخلفاء وكبار رجال الدولة ممن بيدهم الأمر والسلطان . وكانوا يتخذون كل الوسائل لكى يظفروا بالغلبة والنصر ليطامنوا من عزة البصريين ، ويرتفعوا هم فى أعين الخلفاء . وقد حدثت مناظرات كثيرة بين الفريقين ، وظل أوار هذه المناظرات مندلعا حتى أواخر القرن الثالث . وكان البصرى والكوفى لا يكاد يرى أحدهما الآخر حتى يحتدم النقاش بينهما فى أمور النحو واللغة جميعا . وقد أثبت الزجاجى فى أماليه وياقوت فى معجمه كثيرا من هذه المناظرات الطريفة . وأشهرها مناظرة الكسائى والأصمعى فى حضرة الرشيد [٢] ، وفيها يستخرج الكسائى للكلمة عدة أوجه للاعراب ، وقد سكت الأصمعى لأنه كان صاحب لغة ولم يكن صاحب اعراب . ومناظرة ابن الأعرابى والأصمعى عند سعيد ابن مسلم ، وكانت لغوية ، وفيها هزم الأصمعى [٣] . ومناظرة الكسائى وسيبويه بين يدى البرامكة [٤] . ومناظرة الكسائى واليزيدى وهو يحيى بن المبارك وقد اتصل بخال المهدى يزيد بن منصور الحميرى ليؤدب أولاده ، واليه نسب فقيل له (اليزيدى) . وكانت هذه المناظرة نحوية وجرت فى حضرة المهدى ، وهى تبين لنا مبلغ مغالطة الكسائى ، وقد غلبه اليزيدى [٥] .

وأخيرا مناظرة المبرد وثعلب [٦] ، وفيها يرمى كل منهما الآخر بالتمويه والكذب والادعاء .

---

(١) معجم الأدباء ١٣/١٩٠

(٢) انظر أمالى الزجاجى ص ٣٤ ومعجم الأدباء ١٣/٨٣

(٣) أمالى الزجاجى ص ٣٩

(٤) معجم الأدباء ١٣/١٨٥ وأبو الفدا ٢/١٦

(٥) أمالى الزجاجى ص ٤٠ ومعجم الأدباء ١٣/١٧٨

(٦) أمالى الزجاجى ص ٣٩ ومعجم الأدباء ١٩/١١٨

وكانت الغلبة فى معظم هذه المناظرات للكوفيين بطبيعة الحال لأن الزمن كان يجرى فى ركابهم كما قلنا ، وكان يعينهم على الفوز هؤلاء الأعراب الذين كانوا يقفون بباب الخلفاء معتفين ، اذ يقال انهم كانوا يحملون على تأييد الكسائى بالرشوة أو بالايعاد ، وأحيانا كانوا يتقدمون هم أنفسهم بذلك ارضاء للخليفة ورجال السلطان الذين كانوا يميلون الى الكوفيين .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن هـــذه العصبية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصبية السياسية التى ظهرت بين المصرين[1] . وأنا أرى أنها كانت متأثرة بها وليست مؤسسة عليها لأن العلماء أيا ما كان موطنهم فى ذلك العصر كانوا فى تنافس لا ينقطع ولذلك كان أهل المصر الواحـــد يختلفون فيما بينهم كالذى كان يحدث بين يونس والخليل البصريين ، وبين المفضل الضبى وحماد الراوية الكوفيين . بل ان المبرد البصرى قد أفرد كتابا فى القدح فى كتاب سيبويه والغض منه .

ونستطيع أن نرد الخلاف بين المذهبين البصرى والكوفى الى أمرين :

السماع والقياس . ولنتحدث عن كل منهما بشىء من الابانة .

كان أكثر عرب البصرة من قيس وتميم ، وهاتان القبيلتان فى الذروة الأولى ممن يؤخذ عنهم ويقتدى بهم فى اللسان العربى . وكانت تحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تفسد لغتها بمخالطة الأعاجم .

وكانت هـــذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المربد) وهى — كما يقولون — عكاظ الاسلام ، فيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع .

وكانت البصرة الى جانب ذلك تقع على سيف البادية ، فقامت رحلات متبادلة بين علماء البصرة والأعراب ، فكان لذلك كله أثره فى فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ومن ثم ضربوا المثـــل بأدب البصريين ، وجعـــلوا هـــذا الأدب بمنزلة ما اختصت به الأمم طبيعة من الميراث التاريخى كفلسفة اليونانيين وصناعة أهل الصين وما اليها .

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٤

ولقد ضرب فى بوادى الجزيرة الأصمعى وأبو عبيـــدة ويونس وأبو زيد والخليل وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم . وكانوا يتحرون فى الأخـذ عن العربى سلامة لغته وسليقته وعن الراوى الصدق والضبط . وكان الخلفاء فى زمن بنى أمية لا يثقون الا فى علماء البصرة ، فقد حدث أهل البصرة أنهم كانوا يرون كل يوم راكبا من ناحية بنى مروان ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسى (وكان أجمع الناس توفى سنة ١١٧) يسـأله عن خبر أو نسب أو شعر [١] . ويصف أبو عمرو بن العلاء تدافع الناس وازدحامهم عليه فيقول : لو أمكنت الناس من نفسى ما تركوا لى طوبة [٢] .

أما الكوفة فهى أدخـل فى العراق وأقرب الى الاختلاط بالأعاجم ، ولغة أعرابها أقل سلامة من لغة أعراب البصرة لأن أكثرهم من عرب اليمن .

وكان يطرأ عليها ضعاف الأعراب ، فأسرع الفساد الى لغة أهلها . وبظاهر الكوفة كانت منازل النعمان بن المنذر والحيرة والخورنق والسدير وما هناك من القصور والمتنزهات . وكل ذلك غير طبيعى فى تاريخ الفصاحة العربية .

هذا الى أن بين الكوفة وجزيرة العرب بادية السماوة مما جعل رحلات علمائها الى الجزيرة شاقة عسيرة . وكان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكى مربد البصرة وهى سوق (كناسة) ، لكنها كانت داعية الى افساد اللغة لا عاملا على صيانتها ، لأن الأعراب الذين كانوا يؤمونها غير فصحاء .

ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يغتمزون الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوارز والكواميخ [٣] . والمراد الأخذ عن أعراب البادية الجفاة وأعراب الأسواق الضعفاء الذين اختلطوا بأهل المدن . وقد ذكروا أن الكسائى ذهب الى البصرة مرة وأخذ العلم الصحيح عن أساتذتها ثم خرج الى بغداد فقدم أعراب الحليمات وهم غير فصحاء ، فأخذ عنهم شيئا فاسدا فخلط هذا بذاك فأفسده .

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١/٤١٠

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاريخ الرافعى ١/٣٧٠ . حرش الضب : صاده . اليربوع : دويبة . الشوارز : الألبان الشخينة . الكواميخ : المخللات يشهى بها الطعام .

كل هذه العوامل صرفت الكوفيين الى رواية الشعر ، فذلك هو الميسور لهم. ويبدو لى أن ذلك كان ميراثا فيهم منذ نزلها العرب ، ويدلنا على ذلك أن علياً كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج على أن يستعدوا لقتال أهل الشام فتخاذلوا عنه لم ير أبلغ فى ذمهم من صفة التشاغل بالشعر فقال يخطبهم : « اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار ، تربت أيديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل [١] » .

ومن الطريف أن حماداً الراوية يثبت تأصل اشتغال الكوفيين بالشعر فيزعم أن المختار بن ابى عبيد لما خرج بالكوفة قيل له أن تحت القصر الأبيض الذى كان للنعمان كنزا ، فاحتفره فوجد الطنوج (أى الكراريس) التى كان النعمان أمر أن ينسخ فيها أشعار العرب فأخرجها ، قالوا : فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالشعر [٢] .

وكان الكوفيون الى جانب ذلك لا يعنون بصدق الراوى وضبطه كما كان يفعل البصريون ، ولذا كثر الموضوع فى أكثر رواياتهم . قال أبو الطيب اللغوى : الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم [٣].

وقصة خلف الأحمر مع الكوفيين معروفة [٤]. وراويتهم الأكبر حماد الراوية كالشمس شهرة فى الكذب والوضع [٥] ، وله قصة مشهورة مع المهدى بحضور المفضل الضبى وفيها يصرح فى غير خفاء بأنه قد نحل زهيرا بعض الأبيات [٦].

هذا فرق ما بين المدرستين فى أمر السماع وصحته والتحرى فيه . أما القياس فالأمر بينهما فيه مختلف كذلك ، فلقد جعل البصريون هدفهم عصمة اللسان من

---

(١) نهج البلاغة ١/١٧٠
(٢) الخصائص ١/٣٩٣
(٣) مراتب النحويين ١١٩
(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٣٩٣
(٥) اقرأ كلمة المفضل الضبى عنه فى معجم الادباء ١٠/٣٦٥
(٦) انظر الأغانى ٥/١٧٣ بولاق .

الخطأ وتيسير العربيـــة على من يتعلمها من الأجانب ، ولذلك نراهم يضعون قواعدهم على الأعم الأغلب . فاذا تنـــاثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم مع ثبوت صحتها تأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة ، أو نصوا على شذوذها فتحفظ ولا يقاس عليها .

فالبصريون قد أحسنوا صنعا بمنهجهم هذا لأنهم حكموا المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم متماسكة متناسقة فى الجملة . ولا بد فى كل تنسيق من تشذيب يخرج بعض النتوء من الهيكل المشذب ، فكانوا يختارون من اللغة أشيعها وأقربها الى القياس . وهذا عمل جليل حفظ اللغة وصانها من العبث ، وقد بين هذا المنهج أبو عمرو بن العلاء اذ سأله رجل : أخبرنى عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال : لا ، فقال : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : احمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات [١] .

أما الكوفيون فانهم جمعوا كل ما وصلت اليه أيديهم من لغـات العرب بلهجات قبائلها ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ ، وأخذوا عمن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضر ، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه فتشتت قواعدهم ، ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق ، وضاعت الغاية من وضع النحو وهى كونه أداة تيسير لتعلم العربية ، اذ أصبح لهم قواعد بقدر ما جمعوا من شواهد . ويقول ابن يعيش : فلو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين [٢] .

وأول من ســن للكوفيين هـــذه الطريقة شيخهم الكســـائى ، وقد قال ابن درستويه أحد تلاميذ ابن قتيبة : كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لا يجوز الا فى الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك [٣] . ولقد ضاق اليزيدى بالكسائى وبقياسه وبسماعه فقال :

كنا نقيس النحـــو فيمـــا مضى ... على لســـان العـــرب الأول
فجـــاءنا قـــوم يقيســـونه ... على لغى أشـــياخ قطـــر بل
ان الكســـــائى وأشـــياعه ... يرفون بالنحو الى أســـفل [٤]

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٥٩
(٢) شرح المفصل ٣٥٠ طبعة اوربا .
(٣) بغية الرعاة ٣٢٦
(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٤٤ ومعجم الأدباء ٢٠/٣١

ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون الى الوضع فيما لا يصيبون له شاهدا . وأنت تجد فى شواهدهم من الشعر مالا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر كالشاهد الذى يحتجون به على جواز دخول اللام فى خبر لكن ، وهو قول القائل المجهول : ولكننى من حبها لعميد .

وتنج عن ذلك كله أنهم كانوا يجيزون الأوجه الكثيرة فى الاعـــراب ولا يعدمون أن يجدوا لكل وجه شاهدا من لدنهم . ومن أجل ذلك كثرت روايتهم للشعر .

ومن غريب الأمر أن الكسائى هذا الذى كان يروى عن غير ثقات الأعراب كان يبكى خوف الزلل ، فقد دخل عليه الفراء يوما فوجده يبكى فقال ما يبكيك ؟ قال : هذا الملك يحيى بن خالد يوجه الى ليحضرنى فيســألنى عن شىء ، فان أبطأت فى الجواب لحقنى منه عتب ، وان بادرت لم آمن الزلل . قال الفـــراء : يا أبا الحسن من يعترض عليك ؟ قل ما شئت فأنت الكسائى . فأخذ الكسائى لسانه وقال : قطعه الله اذن اذا قلت مالا أعلم[1] .

ونستطيع أن نجمل النزعتين بكلمة للأســتاذ أحمد أمين يقول فيها : ان البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وان طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة . والكوفيون أقل حرية وأشد احتراما لما ورد عن العرب ولو موضوعا . فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغه يسودها النظام والمنطق ويميتوا كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أوموضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق . والكوفيون يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ من غير أن يهملوا شيئا حتى الموضوع ، فكل عملهم أن يضعوا الشىء الى لفقه ، فاذا كان للشىء الواحد جملة صور وضعوا له جملة قواعد »[2] .

فلا عجب اذا حكم الزمن لعلم البصريين بالبقاء لأنه الأضبط ، ولا عجب اذا كان نحو الناس بصريا حتى اليوم .

ويلاحظ أن الكوفيين قد اتجهوا فى العلم جهة الايضاح والتبسيط أكثر مما فعل البصريون حتى أن الفراء مؤدب أولاد المــأمون جعل النحو فى متناول

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣٥٧/١
(٢) ضحى الاسلام ٢٩٦/٢

الصبيان . وعلة ذلك — فيما يرى الأستاذ أحمد أمين — قرب الكوفيين من الخلفاء واشتغالهم بمهنة تأديب الأمراء [١] . وهذا تعليل مقبول .

وهناك أمر يجب أن نشير اليه وهو أن النحاة جميعا قد احتذوا فى أصولهم أصول الفقه عند الحنفية خاصة . ويصرح ابن جنى بذلك فيقول : ينتزع أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيبانى [٢] . وقد ظل هـذا الاحتذاء ملازما للنحاة فى مختلف عصورهم ، فالسيوطى الذى توفى سنة ٩١١ يؤلف كتاب « الاقتراح » ويقول فى المقدمة : « ورتبته على نحو أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم ... فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد ، الى غير ذلك على حد أصول الفقه ، فان بينهما من المناسبة ما لا خفاء به لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول » .

وقد ظل الخلاف محتدما بين المدرستين حتى أصبحت مدينة بغداد مورد طلاب العلم ومهبط العلماء من كل فج بسبب تشجيع الخلفاء للعلم واغداق المال على المشتغلين به واستقدامهم لتعليم الأمراء ، فالتقت فى مدينة بغداد ألوان من كل علم وفن اختلطت وامتزجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان فى النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون وسعى كل منهما فى نشر مذهبه ، حكى الأخفش : وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائى فصليت خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته وقعد بين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها» [٣]. وهذا يدل على أن المذهبين كانا يتسابقان فى بغداد .

وقد نشأ عن ذلك طبقة جديدة فى بغداد اختارت من المذهبين وكونت ماعرف بالمذهب البغدادى . ويلاحظ أن الطابع البصرى أغلب فى المذهب البغدادى على العموم ، وذلك لأن الاصالة التى فى المذهب البصرى قد فرضت نفسها عليهم فرضا . والبقاء للأصلح كما يقولون .

---

(١) ضحى الاسلام ٣١٢/٢
(٢) الخصائص ١٦٨/١
(٣) معجم الادباء ٢٤٣/٤

وكان خاتمة الخلاف بين المدرستين ممثلة فى النزاع الذى كان بين أبى العباس ثعلب الكوفى المتوفى سنة ٢٩١ والمبرد البصرى المتوفى سنة ٢٨٥ . وبعدها زال هذا النزاع أو على الأقل زالت حدته ، وأصبحت مواطن الخلاف بين المدرستين تدرس على أنها مسائل تاريخية كما يصنع الأساتذة المشتغلون بالنحو فى هذه الأيام .

وقد ألف أبو البركات ابن الأنبارى كتابا فى الخلاف بين نحاة المصرين على نمط ما صنع الفقهاء فى كتبهم التى ألفوها فى الخلاف بين الحنفية والشافعية واسم الكتاب « الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » .

ويقول فى مقدمته : « سألونى أن ألخص لهم كتابا لطيفا يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويى البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشـــافعى وأبى حنيفة ليكون أول كتاب صنف فى علم العربيـــة على هذا الترتيب .. الخ » . وقد سرد ابن الأنبارى مائة وعشرين مسألة من المسائل التى كانت موضع خلاف بين علماء المدرستين . وللكتاب نصيب كبير من اسمه لأن المؤلف قد برأ نفسه من التعصب واعتصم بالانصاف . ويتوهم البعض أن الرجل يميل الى البصريين ولذلك يرجح آراءهم فى كثير من الأحيان ويرد على الكوفيين. والواقع أنه كان مصنفا أشد انصاف ، ولم يكن ترجيحه للمذهب البصرى ناجما عن التعصب ، وانما كان مبعثه الانصاف الذى تزكيه استقامة المذهب البصرى .

الشعر الحر

نشأته وخصائصه

للدكتور ماهر حسن فهمى

المدرس بقسم اللغة العربية

ان الباحث فى هذا الموضوع يدرك أن المحاولات القوية فيه قد بدأت بعد الحرب العالمية الثانية . ففى عام ١٩٤٧ طلع علينا الدكتور لويس عوض بكتاب غريب هو « بلوتولاند » . ولقد كان الكتاب غريبا حقا : غريبا فى صورته ، غريبا فى مادته ، حتى لقد أنكره كل من قرأه ، سوى نفر قليل من الشباب الحيارى الذين وجدوا فيه تعبيرات عن أشياء يحسونها ولا يدركونها حق الادراك ، وقد اضطر المؤلف بعد ذلك الى سحبه من السوق .

أما الخطوة الكبرى فكانت بعد ذلك بعامين حين طلعت علينا «نازك الملائكة» الشاعرة العراقية بديوانها « شظايا ورماد » وتضمن الديوان مجموعة من الشعر الحر ، ولكن المهم هو مقدمة الديوان ، التى دافعت فيها عن وجهة نظرها فرأت أن الأوزان قد كبلت الشاعر منذ القدم بقيود أصبح مضطرا معها الى أن يصوغ معانيه فى قوالب ظلت تتكرر وتتحجر على مر السنين فلم نستطع أن نبدع ماأبدعه غيرنا ، وفى ذلك تقول : « فنحن عموما ما زلنا أسرى ، تسيرنا القواعد التى وضعها أسلافنا فى الجاهلية وصدر الاسلام . وما زلنا نلهث فى قصائدنا ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة ، وقرقعة الألفاظ الميتة ، وسدى يحاول أفراد منا أن يخالفوا فاذ ذاك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة وألف حريص على التقاليد الشعرية التى ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه ، فجمدنا نحن ما ابتكر واتخذناه سنة . كأن سلامة اللغة لا تتم الا ان هى جمدت على ماكانت عليه منذ ألف عام ، وكأن الشعر لا يستطيع أن يكون شعرا ان خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل . ويقولون ما لطريقة الخليل ؟ وما للغة التى استعملها آباؤنا

منذ عشرات القرون ؟ والجواب أوسع من أن يمكن بسطه فى مقـــدمة قصيرة لديوان . ما لطريقة الخليل ؟ ألم تصدأ لطول ما لا مستها الأقلام والشفاه منذ سنين وسنين ؟ ألم تألفها أسماعنا ، وترددها شفاهنا ، وتعلكها أقلامنا ، حتى مجتها وتقيأتها ؟ منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون . لقد سارت الحياة ، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحاسيس ومع ذلك مازال شعرنا صورة لقفانبك وبانت سعاد . الأوزان هى هى ، والقوافى هى هى ، وتكاد المعانى تكون هى هى . »[1] ثم تحاول أن تثبت رأيها بطريقة عملية فتأتى بمعنى وتصوغه مرة صـــياغة حرة ومرة أخرى تلتزم الأوزان التقليدية ، فيتبين لها أن الصياغة الأولى قد أدت المعنى بطريقة موجزة وأن الصياغة الثانية قد استدعت زيادة بعيدة عن المعنى تكمل بها البحر .

ولنستمع اليها تقول : « الأبيـــات التاليـــة تنتمى الى البحـــر الذى سماه الخليل (المتقارب) وهو يرتكز الى تفعيلة واحدة هى (فعولن) :

يداك للمس النجوم .
ونسـج الغيوم ...

أترانى لو كنت استعملت أسلوب الخليل ، كنت أستطيع التعبير عن المعنى بهذا الايجاز وهذه السهولة ؟ ألف لا . فأنا اذ ذاك مضطرة الى أن أتم بيتا له شطران ، فأتكلف معانى أخرى غير هذه ، أملأ بها المكان ، وربما جاء البيت الأول بعد ذلك كما يلى :

يداك للمس النجوم الوضـــاء ونسج الغمـــائم ملء السماء

وهى صورة جنى عليها نظام الشـــطرين جناية كبيرة . ألم نلصـــق لفظ « الوضاء » بالنجوم دونما حاجة يقتضيها المعنى اتماما للشطر بتفعيلاته الأربع ؟ ألم تنقلب اللفظة الحساسة « الغيوم » الى مرادفتها الثقيلة « الغمائم » وهى على كل حال لا تؤدى معناها بدقة ؟ ثم هنالك هذه العبارة الطائشة « ملء السماء » التى رقعنا بها المعنى ، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات ؟ هذا كله اذا نحن

---

(١) شظايا ورماد ص ٧ ، ٨ (نظم نازك الملائكة : بيروت ـ الطبعة الثانية ـ سنة ١٩٥٩) .

اخترنا الوزن « المتقارب » أما اذا اخترنا « الطويل » مثلا ، فالبلية أعمق وأمر . اذ ذاك تطول العكازات وتتسع الرقع ، وينكمش المعنى انكماشا مهينا »[١] .

ثم تتحدث بعد ذلك عن القافية كعائق يعترض أحاسيس الشاعر وتتحطم عليه وحدة القصيدة ، فتدعم بذلك أدلتها فى اختيار الشعر الحر الذى تحرر تماما من القافية فتقول : « ثم تتحدث عن القافية ، ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت . قالوا ان العربية لغة واسعة غنية ، وان ذلك يبرر كونها اللغة الوحيدة التى اتخذت القافية الموحدة سنة فى قصائدها ، ونسوا أن أية لغة مهما اتسعت وغنيت ، لا تستطيع أن تمد « ملحمة » بقافية واحدة ، أيا كانت ، ولم ينتبهوا الى أن ذلك كان واحدا من الأسباب التى حالت دون وجود الملحمة فى الأدب العربى ، مع أنها وجدت فى آداب الأمم المجاورة كالفرس واليونان . وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التى أنزلتها القافية الموحدة بالشعر العربى طيلة العصور الماضية ، وانما المهم أن نلاحظ أن هذه القافية تضفى على القصيدة لونا رتيبا يمل السامع فضلا عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية . ومن المؤكد أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة ، وأدت معانى لا حصر لها فى صدور شعراء أخلصوا لها . ذلك لأن الشعر الكامل — الغنائى منه خاصة ، والشعر العربى غنائى كله تقريبا — لا يستطيع أن يكون الا وليد الفورة الأولى من الاحساس فى صدر الشاعر ، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيل اندفاعها ، فهى أشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم ، والقافية الموحدة قد كانت دائما هى « العائق » فما يكاد الشاعر ينفعل وتعتريه الحالة الشعرية ، ويمسك بالقلم فيكتب بضعة أبيات ، حتى يبدأ محصوله من القوافى يتقلص ، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله ، والتفكير فى القافية ، وسرعان ما تغيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها ويمضى الشاعر يصف الكلمات ويرص القوافى دونما حس . ولذلك قلما نجد فى أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة ، يسيطر عليها جو تعبيرى واحد منذ مطلعها الى ختامها . فالشاعر يضطر الى مصانعة القافية ، وأنا أعرف شعراء يختارون القافية ، ثم يكتبون البيت وفقا لها ، وهذا أبرز دليل على طغيان هذه الآلهة المغرورة »[٢] .

---

(١) مقدمة شظايا ورماد ص ١٠ ، ١١

(٢) مقدمة شظايا ورماد ص ١٢ ، ١٣

ولا يمضى عامان آخران ،حتى تطالعنا قصيدة عبد الرحمن الشرقاوى ، التى طبعت بعنوان « خطاب مفتوح من أب مصرى الى الرئيس ترومان » وهى قصيدة جديدة فى صورتها من حيث اتخاذها أسلوب الخطاب وطريقته ، وعدولها نهائيا عن عمود الشعر العربى المعروف .

ومن أجل هذا أحدثت القصيدة ضجة أدبية ، ومن أجل هـذا أيضا لقبه الدكتور لويس عوض بالشاعر الجسور فى مقـاله الذى نشر باحدى الصحف اليومية ، والذى عرض فيه الصورة الجديدة للقصيدة قائلا : « فى هذه الصورة قد تبلور تطور الحساسية الشعرية من جيل الأمس الى جيل اليوم . فلقد كان يمكن أن ينظم شوقى أو الزهاوى أو حافظ أو الرصافى أو العقاد أو رامى أو ناجى أو طه المهندس القريض فى السلام فيخرج لنا منهم قريض رفيع فى مادته رفيع فى صورته ، ولكنه قريض غير هـذا القريض الذى تقرأ اليوم من جيل اليوم ... أما عبد الرحمن الشرقاوى فقد أنشأ لنا طريقة جديدة فى الأداء لم نألفها من قبل ، واستحدث لنا صورة للشعر ما كان يمكن أن تكون فى الماضى ، وما فعل كل ذلك افتعالا ولكنه فعله لأن الحساسية الشعرية والمفهومات الشعرية قد تغيرت من جيل الى جيل . فهو أولا قد اختار لنفسه اطارا عاما هو اطار الخطاب أو الرسالة ، فكان هذا أول خروج على قواعد الانشاء التى عرفناها فى القدماء ومن تأدبوا على القدماء . قال الشرقاوى :

يا سيدى[1] .
اليك السلام وان كنت تكره هذا السلام
وتغرى صنائعك المخلصين لكى يبطشوا بدعاة السلام
ولكننى ، سأعدل عن مثل هذا الكلام
وأوجز فى القول ما أستطيع
فأنت معنى بشتى الأمور ، بكل الأمور .

ومن هـذا ترى أن الاطار العـام ، اطار الخطاب المفتوح الذى اختـاره عبد الرحمن الشرقاوى ، قد فرض عليه اتجاها فى الأداء والصياغة ، وهو أقرب

---

(١) خطاب مفتوح من أب مصرى الى الرئيس ترومان (نظم عبد الرحمن الشرقاوى : القاهرة ـ ١٩٥١) .

الى لغة النثر منه الى لغة الشعر . وقد أحدث « عبد الرحمن الشرقاوى » حدثا فى قواعد الانشاء الأدبى حين أثبت أن الشعر الرفيع يمكن أن يؤدى بلغة النثر المألوف ... كان من الممكن أن يهرب عبد الرحمن الشرقاوى من اللغة التى يستخدمها الناس صباح مساء فى سنة ١٩٥١ ، وأن يستحلب الشعرية ، ولا أقول الشعر ، استحلابا من لغة الماضى البعيد بكل ما فيها من جلجلة لفظية سامية تنضح بالشاعرية لا لسبب الا لأنها بعيدة عن الحياة اليومية المبتذلة ، وتفيض بالسحر لالسبب الا لأنها مرتبطة فىأذهانالناس بالقول الساحر الذىقاله الأولون كذلك كان فى امكان عبد الرحمن الشرقاوى أن يهرب من هذه اللغة الحيوية فى لفظها وفى معناها الى لغة روماتيكية سامية ليستحلب الشعر استحلابا من ضرع الخيال الذى يحيا فيه صاحبه ، ولكن الناس لا يحيون فيه ... لقد أثبت الشرقاوى كما أثبت « اليوت » أن الأداء الشعرى القديم قد أصبح مستهلكا غير ذى موضوع لا تربطه بحياة العصر رابطة أو سبب . كذلك أثبت الشرقاوى ، كما أثبت اليوت أن موت شوقى وحافظ كموت تنسيون وبراونتج ، لم يكن نهاية الحياة ، بل كان نهاية عصر انتهى[1] » .

وكأنما كانت هذه القصيدة حقيقة بداية لحركة هائلة فى شعرنا المعاصر ، وصيحة تردد صداها فى منتدياتنا الأدبية ، وتتابعت بعدها دواوين الشعراء تسير على هذا النسق الجديد .

ففى عام ١٩٥٤ صدر ديوان « أباريق مهشمة » لعبد الوهاب البياتى ، وفى عام ١٩٥٦ صدر ديوان « قصائد » لنزار قبانى ، وفى عام ١٩٥٧ صدر ديوان « الناس فى بلادى » لصلاح عبد الصبور ، وفى عام ١٩٥٩ صدر ديوان « مدينة بلا قلب » لأحمد عبد المعطى حجازى ، وفى عام ١٩٦١ صدر ديوان « أنشودة الطريق » لكمال نشأت . بل لقد أخذت الدوريات تهتم اهتماما كبيرا بذلك الشعر الحر ، حتى غلب هذا اللون على أشهر مجلاتنا الأدبية كالأديب والآداب وغيرهما .

ولكن هذه الحركة الجديدة لم تجد الطريق أمامها سهلا ، ولم يهتف لها النقاد — كل النقاد — ولم تخل من بعض الأخطاء فى أول الأمر ، فقد غلب عليها

---

(١) جريدة المصرى ٢٦ مارس ١٩٥٤

لون سوداوى ، لا يصور بيئتنا بخصائصها المعروفة ، وان ادعى الشعراء أنهم واقعيون ، حتى شك بعض النقاد فى أصالة تجاربهم ، وفى فهمهم لهذا الاتجاه ، حين لم يجدوا فى قيثاراتهم غير وتر واحد حزين ، وحين وجدوهم يسرفون فى التوقيع عليه ، ويسرفون فى اختيار مادتهم من صور البؤس وحدها .

وفى ذلك يقول الدكتور عبد القادر القط : « والحق أن الواقعية لا تتمثل فى اختيار الموضوع بقدر ما تتمثل فى طريقة معالجته ، فالواقعية طريقة خاصة فى ادراك الحياة ، والنظر الى الأشياء على اختلاف ألوانها ، وكل موضوع يصلح ليكون مادة لقصة واقعية أو لأخرى رومانسية ، وانما يتحكم فى ذلك طبع الكاتب وثقافته ووعيه الاجتماعى ، وطريقة احساسه بالحياة . فالحاح كتابنا على تلك الصور المظلمة المتشائمة هو نتيجة فهم خاطىء عند كثير منهم لطبيعة المذهب الواقعى ، وتضييق لدائرة ابداعهم ، ينتهى بالقارىء فى كثير من الأحيان الى السقم ثم الى الشك فى صدق ما يقرأ [1]» .

هذا من ناحية المادة أو المضمون ، وأما من ناحية الشكل ، فقد دارت معركة بين العقاد وطه حسين من ناحية وبين المدافعين عن هذا المذهب الجديد ، وجمع حصادها فى كتاب « فى الثقافة المصرية » لمحمود العالم وعبد العظيم أنيس . ويؤثر عن العقاد فى النوادى الأدبية — وهو رئيس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب — أنه كان يحول كل قصيدة ترد اليه من هذا الشعر الحر ، الى لجنة النثر للاختصاص ، دلالة على عدم اعترافه به .

وربما اعتبر النقاد المهاجمون أيضا أن هذا الشعر الحر وسيلة ميسرة لكل شاعر عاجز ، فهو غير مقيد بوزن ، وغير مقيد بقافية . ومن الحق أن المتطفلين قد كثروا ، وأن الأدعياء قد ملأوا الصحف بشعرهم المسف ، ولكن بوتقة الزمن لم تبق الا الجيد منه ، كما لم تبق من الشعر العربى القديم الا أصلحه للبقاء فى أكثر الأحيان . ولكن من الحق أيضا أن الشعراء الأصلاء أصحاب هذا الاتجاه الجديد — الذين ذكرنا دواوينهم — كلهم قد بدأوا حياتهم ينظمون بالطريقة التقليدية ، ثم عزفوا عنها حين وجدوا أن الشعر الحر يتيح لتجاربهم أبعادا أكبر ، وتعبيرا أكثر دقة وأشد انطلاقا من الشعر التقليدى .

---

(١) مجلة الشهر أبريل ١٩٥٨

والنقاد الذين دافعوا عن الشعر الحر رأوا أنه بعيد عن شعر المناسبات التى كان ينظم فيها شوقى وحافظ وغيرهما ، وانما هو ارتباط تام بين الشاعر والمجتمع. صحيح أنه يعالج القضايا العامة ، ولكن من خلال التجارب الذاتية ، وفى ذلك يقول «العالم» : « فهو لا يعرض القضايا العامة كما كان يفعل حافظ وشوقى ومحرم عرضا تقريريا ، بل انه يتمثل هذه القضايا العامة خلال تجاربه الذاتية . وهكذا جمع الشاعر الحديث بين ظاهرتين متعارضتين فى التعبير الشعرى السابق ، جمع بين التعبير التقليدى العام والتعبير الذاتى ، جمع بين التجربة الشخصية والقضية العامة ، فخلص القضية العامة من الجمود والتقريرية ، وخلص التجربة الذاتية من الخصوصية والانعزال » . ويدلل على رأيه هذا بأبيات الشرقاوى التى تعرض لقضية السلام عرضا ذاتيا بعيدا عن التحليل والتقرير ، وانما يقول فى بساطة ويسر :

فدعنى أقل لك أنى أبٌ
وأنت أب وكلانا حنون
ولى طفلةٌ كائتلاق الصباح
كحلم الربيع ، كهمس القبل
كنوارةٍ فى اخضرار الحقول ينغنغ فى شفتيها الأملْ
كعصفورةٍ فى المروج الفساح

ومن خلال هذه الرابطة الانسانية يتحدث الشاعر عن ابنته وهى تحاول أن تسير ، وكلما ترنحت قامت بعزيمةٍ جديدة :

تحاول جاهدة أن تسير وكانت لعهدىَ لم تقعد
فحينا تلوذ الى حائطٍ فإن لم تجد فإلى مقعد
ويا ربما رنّحتها الخُطى ويا ربما وقعت ضاحكه
لتنهض عازمةً من جديدٍ كذلك تمضى بنا المعركه
تدربها عثراتُ الطريقِ وتدفعها خبرة التجربه

(١) فى الثقافة المصرية ص ١٢٦ (تأليف محمود العالم وعبد العظيم انيس . بيروت ـ ١٩٥٥) .

وهكذا أخذ الشـــاعر ينتقل انتقالا يتمثل فيه تجربته ، انتقالا من الحدث الخاص الى الحدث العام ثم يخلص الى قوله :

ألست تصون حياة ابنتك ؟
فهل تصنع الموت للأخريات ؟
وانى لأدعوك باسم الأبوة باسم الحياة وباسم الصغار
لتعقد حلفا يصون السلام ويرعى المودات بين الكبار
فأنت أب قد صنعت الحياة ولن تصنع الموت بعد الحياة

وهكذا تنبض القضية العامة بلمسات قريبة الى القلوب ، أشد ما تكون ألفة وحياة . فالحقائق السياسية العابرة التى تنتهى بانتهاء مناسبتها لن تكتب للشعر البقاء ، والحقائق الفردية التى لا تتصل بالحياة والتى يترنم بها الشاعر فى برجه العاجى لن تعيش طويلا فى الأذهان .

« وجيلنا الحاضر فى الغالب يميل بطبعه ومزاجه العلمى التقدمى الى الشعر الهادف الذى يتحدث عن كرامة الانسان ، ويؤمن بوجوب تحرره المـــادى والمعنوى ، ولا يميل الى الشعر الصافى الذى يرمى الى مجرد الطرب والمتعة ... ويؤثر الشعر ذا المعانى المحددة على الشعر ذى المعانى والفكرات المطلقة »[1] .

ومن الحق أن نظرة الدكتور عبد القادر القط كانت صائبة حين قالها منذ سنوات ، فالذى يقرأ مثلا ديوان « المجـد للأطفال والزيتون » لعبد الوهاب البياتى ، يجد طعما مرا شديد المرارة ، ولكن الواقع أيضا أن هذا الاتجاه الجديد قد أخذ يتجه الى الطريق الصحيح ، طريق التعبير الصادق عن مجتمعنا ، وبدأت الشخصية العربية تفرض نفسها على شعر أصحاب هذا الاتجاه ، حتى لننظر الى الى آخر ديوان صدر فى عامنا هذا ، وهو « أنشودة الطريق » لكمال نشأت ، فنجده ريفيا حتى فى غزلياته ، عائليـــا حتى فى وطنياته ، يداعبه الأمل ، وترتد جذور نتاجه الى بيئتنا دائما .

ولنأخذ مثلا قصيدته « أحلام عـــذراء » ، فالشاعر يخط بريشته الخطوط الأولى للمنظر الذى سيحيط بدقائق تجربته ، فلا يجد أجمل من صغار حمام

---

(١) شعر اليوم ص ١٧ (تاليف مصطفى السحرتى : القاهرة ـ ١٩٥٧) .

تاهت فى البرية ليعبر عن الأحلام الوردية الشاردة لفتاة الريف فى ليله من لياليه القمرية . وهى ليلة صيف قمرية ، لأنها من الليالى التى تغرى بالسهر ، وتطلق وراءها الأحلام ، أما ليالى الشتاء فتغرى بالنعاس والدفء ، وتطفىء الخيال ، وتقعد بالحلم ، ثم هو ينطلق وراء خيال الفتاة ويتتبع خطوات أمانيها ، فيبرز ملامح الصورة فى شخص رجل أحلامها (فتى القرية) وهو يختال فتى الخطوات والشال على كتفه ، كالبدر الذى تراه ، ويطلق أحلامها ترعى ، ولكنها لا تراه بعين الحقيقة ، فقد توشح بغمام الخيال . وتكتمل الصورة بدقات الطبول ، طبول العرس وهى تعانق أنغام الأرغول ، وتتعالى الزغاريد ، وتموج الدار بالزوار ، ولكنها ترى أمها وسط الجمع الحافل وهى ترش الملح لتقيها من حسد العيون . وتلك عادة مصرية ، ومن تقـاليد الريف عندنا فى الأفراح . وبين هتاف الزوار وضجيجهم ، ينفذ الشاعر بعينه الفاحصـة الى أغوار نفس الفتاة ، ويبين عن أسرارها التى احتضنتها خلف جناحها ، فيرى نشوتها الكبرى والغيرة فى صدور الصبايا من حولها وعلى وجوههن ، ثم زهوها وهى تتيه بثوبها (اللماع الأخضر) الذى يعجب فتاة الريف لأنه من لون الحقول المخضرة ، وهو جدير بالاعجاب لأنه صنع (البندر) وليس من صنع الريف ، فتنفض طرفها حياء ، وتضم جناحها على الأسرار ، حتى لا تظهر فى مقلتيها أفراح العرس ، ولا يعرف سرها الا قلبها الطروب [1] .

أليست هذه الصورة منتزعة من بيئتنا الخاصة ؟ ثم هل نجد لها مثيلا فى شعرنا التقليدى الحديث ؟

ان الصراع بين النقاد ما زال يدور حول الشعر الحر ، ولكن التيار يسير دون أن يعوقه كثيرا ذلك الصراع .

وقد أثار هذا الصراع كما قلنا من قبل طه حسين والعقاد . أما طه حسين فيرى أن اللغة هى صورة الأدب ، وأن المعانى مادته ، بينما يرفض ذلك نقاد هذه الحركة الجديدة ، ويرون أن الحديث عن اللغة حديث عن الأسلوب لا عن الصورة واللغة أداة من أدوات الصورة التى هى تجسيم لمنظر حسى أو بصرى وسيلته اللغة والحركة واللون والموسيقى . أما مادة الأدب أو مضمونه فلا يمكن أن تكون هذه

---

(١) راجع انشودة الطريق ص ٦١ (نظم كمال نشات : القاهرة ـ ١٩٦١) .

المعانى المتحجرة — كما يقولون — وانما هى فى الوحدة العضوية التى رسمتها الصورة . بمعنى أن تكون اللوحة التى أمامنا لا تعنى هدفا عاما وحسب وانما هى صورة لفرد معين فى وضع معين لهدف معين ؛ عملت الأصباغ والظلال عملها المتشابك مع أبعاد الصورة وملامحها ، بحيث اذا تغير شىء منها بالنسبة للوضع أو الخطوط أو الأصباغ ، لم تعد نابضة بالحياة التى منحها اياها الفنان ، بل تغير الوضع كله بالنسبة للمنظر . وفى ذلك يقول العالم : « نحب أن نقرر أولا أن ما تتهم به حركتنا النقدية من تغليب للجانب الاجتماعى ، انما يرجع الى ما أشاعه هؤلاء الأدباء القدامى من فهم قاصر لهذه العلاقة بين صورة الأدب ومادته ، الى ما يتميز به أدبهم من جمود وانفصال عن حركة الحياة ، والى ما رسبوه فى وجداننا القومى من قواعد فجة لا تفضى بالابداع الفنى الا الى أزمة مقفلة ، ولهذا فعندما نتقدم لتحديد موقفنا من هذه القضية ، فانما نحدد موقفنا كذلك من المدرسة القديمة ، سواء فى النقد أو الابداع . هكذا عرض عميد الأدب للقضية ، وهكذا اهتدى الى حل لها (ان اللغة هى صورة الأدب ، وان المعانى هى مادته وان صورة الأدب ومادته شيئان لا يفترقان أو هما شىء واحد ان شئت ، وأضف اليهما عنصرا ثالثا ان صح أن يستعمل العدد فى مثل هذا الموضع ، هذا العنصر يلزمهما لزوما لا فكاك منه وهو عنصر الجمال) . ومن هذه المقومات الثلاثة : اللغة والمعانى والجمال الذى لا فكاك منه ، يتضح الموقف النقدى للمدرسة القديمة .

الا أننا نرى أن قصر الصورة على اللغة ، وقصر المادة على المعانى لا يكشف عن ادراك سليم لحقيقة الظاهرة الأدبية ، ذلك أن اللغة أداة من أدوات الصورة . فان قصرنا الصورة على اللغة ، فقد تحدثنا لا عن الصورة بل عن الأسلوب . ان الأسلوب الشائق الرائق الذى يحسن موقعه عند سامعه ليس صورة للأدب ولا صياغة له ، بل هى مظهر خارجى أو أداة من أدوات الصورة . وكذلك شأن المعانى ، فليست مادة للأدب بل احدى أدواته كذلك . فلو قدمت لنا جملة جميلة رائعة شائقة تحفل بمعنى لم يسبقه اليه أحد ، لما كان فى هذا وحده دافع الى أن تعدها من الأدب ، فالمعانى كالألفاظ سواء بسواء ، وسائل وأدوات لما هو أجل وأعظم .

ولو راجعنا تاريخ النقد العربى القديم ، لوجدنا أنه لا يخرج فى مجمله عن البحث الجاد عن اللفظة الرائقة للمعنى الفريد ، ولو تأملنا ما يقوله عميد الأدب

اليوم فى قلب القرن العشرين ، وبعد أجيال من التطور الثقافى والتجارب النقدية التى لا حصر لها ، لما وجدناه يخرج عن ترديد هذا الموقف النقدى القديم ، المسرف فى القدم . والحق أن أزمة التعبير الأدبى تقوم الى حد كبير على هـذا الاحتفال البالغ بالأسلوب ، وهذا الوقوف الجامد عند حدود المعانى المنفردة المتناثرة ، نجد هذا فى الحكم النقدى ، وفى التعبير الأدبى ، نثره وشعره على السواء ، وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بيتا من الشعر أبلغ ما قالته العرب وبيتا آخر أهجى ما قالته العرب ، وبيتا ثالثا أصرح ما قالته العرب ، والى غير ذلك من أفعال التفضيل ، لا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو البيت المفرد لما فيه من أسلوب رائق ومعنى شائق .

فهذا الشاعر الفحل — أمير الشعراء أحمد شوقى مثلا — يؤلف القصيدة من ثلثمائة بيت فى الحرب أو فى التغنى بآثار مصر القديمة مثلا ، فلا يعالج الموضوع معالجة أدبية بحيث يكون له مضمونه المصوغ أو مادته المصورة ، بل هى أبيات متناثرة لمعان لا رابط بينها غير وحدة القافية أو وحدة الوزن أو وحدة الموضوع من قريب أو بعيد ... ان مضمون الأدب فى جوهره أحـداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية ، والصورة الأدبية أو الصياغة عملية لتشكيل هذا المضمون وابراز عناصره وتنمية مقوماته [1] » .

أما « العقاد » فهو كما ذكرنا لم يعترف بهذا اللون من الشعر ولم ير فيما أتى به نقاد هـذه الحركة جديدا بالنسبة للوحدة العضـوية ، ورأى أن ذلك لا يعدو أن يكون ترديدا لما قاله هو من زمن طويل ، فجاء رد « العالم » مبينا وجهة نظرهم فى أن هذه الوحدة العضوية ليست من ابتكار العقاد ، وانما هى قديمة قدم أرسطو ، ولكن العقـاد حين قرأها لم يتمثلها ولكنه فهم أنها وحدة الموضوع وحسب . وضرب لذلك الأمثلة من دراساته لشوقى وابن الرومى ، وأتى بشواهد من شعره هو صنع بها ما صنعه العقاد بشوقى حين غير من أبيات القصيدة وبدل فى نظامها . واستنتج العالم من هذا أن شعر العقاد لا تربطه غير وحدة العنوان والوزن والقافية ، وهذا دليل على تفسخ العمل الأدبى وبعده عن الوحدة العضوية [2] .

---

(١) فى الثقافة المصرية ص ٤٢ ، ٤٩

(٢) فى الثقافة المصرية ص ٥٧ ، ٦٤

على أن عدم اعتراف بعض النقاد بالشعر الحر لتخلصه من القافية واستناده الى التفعيلة الواحدة بدلا من البحور العربية ، لا يعنى أن ننفض أيدينا منه ، وأن نغمض أعيننا عما حولنا لأننا غير واقعيين . فالشعر الأوربى قد عرف هذا اللون وهو ما يسمى بالشعر الحر Free verse .

وأوزان الشعر هى موسيقاه ، فهل ما زالت موسيقانا هى موسيقى الجاهليين؟ لماذا نقبل أن تتطور كل فنوننا من عمارة وموسيقى وغناء ، بل نقبل أن تتطور حياتنا الاجتماعية وأن تتبدل بالقياس الى العصور العربية القديمة ، ثم نقف حجر عثرة فى سبيل تطور موسيقى الشعر ؟ يبدو أن الصراع بين الشباب والشيوخ أو بين الجديد والقديم سيبقى دائما سنة الحياة النامية المتطورة ، فالعقاد وطه حسين وأكثر شيوخ الأدب الآن كانوا من زعماء التجديد فى شبابهم ، ولكن هذا الصراع على أى حال يجنبنا الطفرة ويجعلنا نسير بخطوات معتدلة فى مسيرنا .

ان الاستناد الى التفعيلة الواحدة « قد نوع موسيقى الشعر فى نغماتها ، وتآلفها مع أفكار التعبير وانفعالاته ، فلم تعد تؤنسنا موسيقى الكلاسيكيين الرنانة ولا موسيقى الرومانتيكية المخدرة ... نظام يلحظ فيه التركيز والاقتصاد فى الاستطراد ، نظام تتحرك فيه الصور ولا تجمد » [1] .

والتعبير بالصور هو أخطر أدوات الصياغة الجديدة شأنا ، لأن الأسلوب التقريرى مهما كان قويا هو مثل الصرخة ، قد تلفت سمع العابر ، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عنها بعد حين ، ولكن المنظر هو الذى يستقر فى النفس الى أمد بعيد. ولنضرب على ذلك مثلا أتى به مؤلفا فى « الثقافة المصرية » . فشوقى وحافظ وغيرهما من شعراء هذه الطبقة قد نظموا فى حادثة دنشواى . فشوقى يعرض لحادثة دنشواى بهذه الأبيات الوصفية :

السوط يعمل والمشانق أربع ... متوحدات والجنود قيام
والمستشار الى الفظائع ناظر ... ترمى جلود حوله وعظام
وعلى وجوه الشاكلين كآبة ... وعلى وجوه الشاكلات رغام

---

(١) شعر اليوم ١٤ ، ١٥

أما الشاعر الجديد « صلاح عبد الصبور » فيتلقف الحدث خلال شنق « زهران »[1] أحد أبناء دنشواى فيتمثله ويفيض تعبيره من خلال الحدث نفسه فى صور يصوغ منها وحدة فنية متكاملة . فبدأ قصيدته بداية راح يبرز فيها زهران فى ملامحه الخارجية :

كان زهران غلاما
أمه سمراء والأب مولد
وبعينيه وسامه
وعلى الصدغ حمامه
وعلى الزند أبى زيد سلامه
ممسكا سيفا وتحت الوشم نبش كالكتابة
اسم قريه
دنشواى

ومن هذه المعالم الخارجية راح يتعمق حياته الباطنية ، وحنياته الذاتية ، تمهيدا لاستقبال الحدث الرهيب :

شب زهران قويا
ونقيا
يطأ الأرض خفيفا
وأليفا
كان ضحاكا ولوعا بالغناء
وسماع الشعر فى ليل الشتاء

ثم عاد يرسم الملامح الخارجية للحدث :

مر زهران بظهر السوق يوما
واشترى شالا منمنم

---

(١) الناس فى بلادى ص ٤٨ (نظم صلاح عبد الصبور : بيروت ــ ١٩٥٧) .

ومشى يختال عجبا مثل تركى معمم
ويجيل الطرف ما أحلى الشباب
عند ما يصنع حبا
عند ما يجهد كى يصطاد قلبا
كان يا ما كان أن زفت لزهران جميله
كان يا ما كان أن أنجب زهران غلاما وغلاما
كان يا ما كان ان مرت لياليه طويله
ونمت فى قلب زهران شجيره
ساقها سوداء من طين الحياه
فرعها أحمر كالنار التى تحرق حقلا
عند ما مر بظهر السوق يوما
ورأى النار التى تحرق حقلا
ورأى النار التى تصرع طفلا
كان زهران صديقا للحياه
ورأى النيران تجتاح الحياه
مد زهران الى الأنجم كفا
ودعا يسأل لطفا
ربما سودة حقد فى الدماء
ربما استعدى على النار السماء
وما زال حتى أبرز الشاعر الحدث نفسه :
وضع النطع على السكة والفيلان جاءوا
وأتى السياف « مسرور » وأعداء الحياة
صنعوا الموت لأحباب الحياة
وتدلى رأس زهران الوديع
وسارع الشاعر مرة أخرى الى المعالم العامة لقريته يبرز حزنها وشكلها .

قريتى من يومها لم تأتدم الا الدموع
قريتى من يومها تأوى الى الركن الصديع
مات زهران وعيناه حياة
فلماذا قريتى تخشى الحياة .

على أن التعبير بالصور وحده لا يمكن أن يكون له وحده كل هذه القيمة ، وانما هنا عامل جوهرى هو البناء الدرامى . فاذا نظرنا الى القصيدة السابقة « شنق زهران » وجدناها تشتمل على عدة لوحات : الأولى صورة زهران ، والثانية حياته ، والثالثة موته ، والرابعة صورة قريته الثكلى .

ولكنها ليست لوحات منفصلة ساكنة ، ولكنها تتحرك فى شريط مترابط متتابع يعتمد على البناء الدرامى الذى يتركب من التجسيم والحركة والتشويق والمونولوج الداخلى فى بعض الأحيان .

فزهران فرد له ملامح خاصة ، وهي ان تكن ملامح قروية ، ولكنها متميزة ثم تبدأ الصورة فى التحرك فى المنظر الثانى تحركا نعرف به نفسيته بعد أن رأينا ملامحه الخارجية ، نعرف به قلبه الطروب ونعرف به ثقته بنفسه ، ونعرف به حبه للحياة ، ونعرف به رغبته فى صنع حياة أفضل له ولقريته ، ويدفعنا الشوق الى اللوحة التالية ، فاذا بها مفاجأة قاسية لم نكن نتوقعها للفتى النقى الطروب الذى أحب الحياة ، ومن أجل هذا كان الأثر قويا فى المنظر الأخير .

فهذا البناء الدرامى اذن قد حقق هدفين ، حقق عنصر التأثير القوى النابض الذى يأتى من التأثير فى أكثر الحواس لا فى الذهن وحده ، كما هو الحال فى الشعر التقليدى ، وحقق الوحدة العضوية فى بناء القصيدة بحيث يستحيل أن نبدل فيها كما كنا نصنع فى قصائد الشعراء السابقين .

***

بعد أن عرضنا نشأة الشعر الحر وخصائصه ، نحاول أن نجيب عن ذلك السؤال الذى طالما تردد . لم كانت هذه الثورة الأدبية ؟ والواقع أن كل الثورات فى وطننا العربى ترجع الى ايمان العربى بذاته . كانت هذه الحقيقة متوارية خلف حجاب كثيف من التيارات السياسية ، ثم

كانت فترة ما بين الحربين كافية لأن تختمر فيها هذه الحقيقة ، فتتوالى الثورات فى كل البلاد العربية ، ومن الواضح أن تلك الثورات لم تحقق أكثر الآمال التى كانت معقودة عليها ، ولكن من الواضح أيضا أنها كانت نقطة البداية . لم يعد العربى بعد ذلك يخشى أن يجابه نفسه أو غيره فى شكل ثورة .

« هذا الوعى والاحساس العميق ، بل وايمان العربى بذاته ، كان الدافع الى انطلاقه فلم يعد يطيق الجمود ، وشعر بالطاقة الكامنة تدفعه الى التحرك . فالنفس العربية التى انطلقت فى أيامنا هذه قوية جارفة ، كان لابد لها من مظاهر التعبير عنها فى مختلف الميادين ، فكانت الثورات العسكرية هى التعبير السياسى ، وكان التطور الصناعى هو التعبير الاقتصادى ، وكان الشعر الحر هو التعبير الأدبى . وتقبل الناس له كما ذكرنا ، واقبالهم عليه ، يؤكد احساسهم بحاجتهم الى لون أدبى جديد »[1] .

وقد ظهرت الموشحات فى الأندلس منذ قرون ، وخرجت على عمود الشعر العربى لتعبر عن الحياة الجديدة بما فيها من مرح تعرفه أوربا ، وبما فيها من طبيعة ضاحكة ، ولم يتقبله المشارقة ، ولكنه أدى دوره فى الأندلس .

وبعد أن تبلغ انطلاقتنا غايتها ، ونبنى آمالنا ، ونقف لنستريح ، وننظر الى الوراء ، أغلب الظن أن الشعر العربى سيعود مرة أخرى الى تراثه الموروث ، لأن التقاليد العربية ، عميقة الجذور فى حنايانا ، ولكن هذا الشعر الحر سيبقى دائما ، ليسجل واقعا عشناه فى أيامنا هذه .

---

(١) القومية العربية والشعر المعاصر (تأليف دكتور ماهر حسن فهمى : القاهرة ـ ١٩٥٦) ص ١٢٢ ، ١٢٦ .

العلاقات الإنسانية فى تربية النشء

للأستاذة فتحية سليمان

عميدة الكلية ورئيسة قسم التربية وعلم النفس

لا أظن أن هناك اختلافا فى الرأى فى أن مشكلة الانسان فى هذا العصر انما هى مشكلة العلاقات الانسانية التى تربط بينه وبين غيره من البشر والتى تربط بين الجماعات والدول المختلفة بعضها وبعض ، ولقد وضحت هذه الحقيقة منذ زمن بعيد على أن الوسائل التى عولجت بها الأمور كانت وسائل مبنية على افتراضات معينة كان العالم يتخذ منها دليلا ورائدا له فى تصرفاته حتى وصل العالم الى حالة التوتر التى بلغها الآن والتى تنذر بالانفجار بين الحين والحين . أما هذه الافتراضات فانها مبنية على بعض النظريات العلمية مثل نظرية الصراع فى سبيل البقاء اذ أن البقاء للأقوى ، وقد أدى التمشى مع مثل هذه النظريات الى التنافس بين الأفراد والى احتدام النزاع بين الدول والى استغلال القوى للضعيف واستعمار الدول الكبيرة للدول الصغيرة والى استعمال الاكتشاف العلمى وتسخيره لصناعة الأسلحة الرهيبة التى تهدد الجنس البشرى بابادته وبالقضاء على كل ما بلغه من حضارة .

والآن ونحن على حافة الهاوية — هاوية الهلاك للمجتمع الانسانى — يجب علينا أن نعيد النظر فى اتجاهاتنا نحو تربية النشء بحيث نجد الطرق والوسائل الكفيلة بتنمية علاقات انسانية أفضل بين الصغار وبين المجتمع حولهم حتى يشبوا وقد تخلصوا من شوائب النظريات القديمة التى مجدت القوة والقسوة والصراع وقد تكون هذه وسيلة لتدعيم السلم ونشر المحبة والتسامح بين الناس . على أننا قبل أن نبحث عن طرق تنمية العلاقات الانسانية السليمة فى النشء ينبغى أن نبحث عن طبيعة هذه العلاقات وعن الأسس البيولوجية والسيكلوجية التى يمكن أن توجهنا الوجهة العلمية السليمة كيما يكون تفكيرنا مرسوما وهادفا .

أننا ان حاولنا اليوم أن نجـد قيما جـديدة للسلوك الاجتماعى ودوافعه واتجاهاته وأساليب تكوين العلاقات بين الناس ، فاننا لن نكون مجددين فى هذا الميدان ، فقد حاول العلماء والمفكرون — منذ أقدم العصور — ايجاد الأسس التى ينبغى أن تبنى عليها العلاقات بين الأفراد والتى تفسر السلوك الاجتماعى . فقد ذكر أفلاطون الفيلسوف اليونانى القديم فى كتابه المسمى « الجمهورية » رأيه عن علاقة الفرد بالمجتمع وعن علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض وكيفية تنظيم هذه العلاقات بحيث تستكمل العدالة فى المجتمع ، ويصبح مجتمعا فاضلا لا شرور فيه ولا ظلم ، وتبع أفلاطون غيره من الكتاب والمفكرين محاولين سبر غور السلوك الاجتماعى كى يتمكنوا من وضع نظام للعلاقات الانسانية تتفق ، وما ينادون به من مذهب فلسفى أو اتجاه علمى .

ففى عصر النهضة نجد « توماس هوبز » Thomas Hobbs يفسر السلوك الاجتماعى والعلاقات الانسانية على أساس مادى قوامه الأنانية وحب الذات ، وذلك لأن « هوبز » رأى أن دوافع الانسان الجسمية وخوفه ورغبته فى التعالى وهروبه من الألم ، كل هذه رآها أسسا تحدد العلاقات بين الأفراد ، وأن المجتمع البشرى لم يجتمع أفراده الا لاشباع حاجاتهم الفردية ، أو لتجنب الأخطار التى تحيط بهم .

وجاء بعد ذلك «جان جاك روسو» فى القرن الثامن عشر بفكرته التى بينها فى كتابه « اميل » والتى توضح عقيدته فى أصالة الخير فى طبيعة الانسان ، ذلك الخير الذى ينبغى أن يصان ويحفظ ، وذلك بمنع الصغير من الاختلاط بالناس ، وهكذا نادى روسو بتربية الصغير فى معزل عن المجتمع وبعيـدا عن مؤثرات السوء الموجودة فى البيئة الاجتماعية ، فألغى بذلك العلاقات الانسانية من حياة الصغير حتى لا تتلوث طبيعته الخيرة بشرور المجتمع .

وأتى القرن التاسع عشر بعدد من المفكرين والعلماء يعتبر أكبرهم خطرا من ناحية بحثناهذا — « تشارلز داروين » C. Darwin اذ كان لنظريته العلمية الشهيرة أعمق الأثر فى توجيه الفكر الانسانى وتعريفه بأصل الانسان بصفة عامة، وبطريقة سلوكه بصفة خاصة ، ذلك لأن نظرية «داروين» المعروفة والتى قالت بأن الانسان — الذى هو أرقى أنواع الحيوان وأعلاها فى سلم التطور — لاينفهم

سلوكه الا اذا قورن بسلوك الكائنات الأخرى . وقارن « داروين » بين الغرائز فى الحيوانات وبينها فى الانسان مبينا أوجه التشابه . ومن أهم ما جاء فى كتابه المسمى « أصل الأنواع » Origin of the Species الفقرة التالية :

«ان الصراع فى سبيل الحياة ذلك الصراع الذى يتميز به سلوك جميع الكائنات الحية فى هذا العالم . لابد من وجوده بسبب زيادة اعداد هذه الكائنات زيادة بنسبة المتواليات الهندسية . ان كل نوع من الكائنات الحية يتكاثر بأعداد كبيره يعجز الكثير منها عن البقاء ، ولهذا فان هناك صراعا يكاد يكون دائما فى سبيل الحياة . فاذا اختلف كائن من الكائنات عن غيره بأن اختص بميزة أو صفة تزوده بما يفيده فى ظروف الحياة المعقدة والمتغيرة ، فان هذا الكائن سوف يحظى بفرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة ، وهكذا يصبح نوعا منتقى بطبيعته . ولما كان للوراثة أثر كبير فى نقل صفات الكائنات من جيل الى آخر فان هذا النوع المنتقى سوف يولد كائنات من نفس نوعه المنتقى ذى الصفات المميزة » .

وكان لآراء «داروين» هذه — أى فكرته عن كون البقاء للأصلح ، والأصلح عنده هو الأكثر قدرة على الصراع والاحتمال — كان لها أثر بالغ فى شتى نواحى الحياة والمعرفة . وجاء بعده « توماس هكسلى » Thomas Huxley بكتابه المسمى « الصراع فى سبيل الحياة وأثره على الانسان » الذى ظهر عام ١٨٨٨ ، وقد ذكر فيه أن دنيا الحيوان تشبه ساحة لمصارعة الحيوانات اذ أن الكائنات الحية تعامل معاملة لا بأس بها فتطعم وتربى ثم تحفز على الصراع فيما بينها ، ذلك الصراع الذى يؤدى الى غلبة الكائن الأسرع والأكثر دهاء ، فيبقى حيا ليصارع فى اليوم التالى .

وكان لمثل هذه الآراء — عند تطبيقها فى عالم الانسان — مغزى خطير ، فان الصراع البيولوجى بين الكائنات الحية يمكن أن يترجم الى التنافس بين الأفراد فى المجتمع الواحد ، والى الصراع والحروب بين الدول بعضها وبعض ، ويمكن ترجمته أيضا الى معنى أخطر وهو استغلال الشعوب القوية للشعوب الضعيفة ، هذا المعنى الذى هو حجر الزاوية فى البناء الاستعمارى .

ويمكننا القول ان هذه الفلسفة حتى الآن هى التى لا تزال تسيطر على مجتمعنا الانسانى ، فكل واحد لنفسه ، واذا لزم الأمر فانه لنفسه وعلى أعدائه ، فالبقاء

للاقوى وللأكثر قدرة على الصراع . لذا تسابق الأفراد على التنافس والمنازلة فى جميع ميادين الحياة . وتسابقت الشعوب والدول للوصول الى القوة عن طريق التسلح والتكتل فتكونت الأحلاف والمنظمات ، وصنعت القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة والأقمار الصناعية ودبرت المؤامرات الدولية لمنع الشعوب المستعبدة من الخلاص والتحرر من الاستعمار والاستغلال .

ان هذه النظرية القاسية التى تحددت على ضوئها معظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، والتى بنيت على نظرية « داروين » البيولوجية لاشك أنها نظرية خاطئة . ان الحقائق البيولوجية تفسر لنا بعض أوجه السلوك الانسانى ، الا أن هذه الحقائق — كما نعرفها اليوم ، وكما كشفت عنها أحدث التجارب العلمية — قد بينت لنا نواحى أخرى فى سلوك الكائنات الحية لم يبرزها « داروين » فى كتاباته الأولى الا أنه ذكر بطريقة عابرة فى كتابه المسمى The Descent of Man ناحية من هذه الحقائق اذ يقول « وكلما تقدم الانسان فى طريق الحضارة ، وتجمعت العشائر مكونة جماعات كبيرة فان أبسط مفهوم لهذه التجمعات يدل على أنه فى مقدور كل فرد أن يوسع نطاق غريزته الاجتماعية ، فتشمل أفراد المجتمع الأكبر — الذين هم أبناء الوطن الواحد — بالعطف والمحبة ولو أن هذه القدرة قد تكون خافية على الفرد نفسه . فاذا كان هذا ممكنا فان الحواجز والموانع التى تحول بين الفرد وباقى أبناء الجنس البشرى على الاطلاق تكون موانع زائفة ومصطنعة » .

من هذه العبارة يتضح أن « داروين » فطن الى وجود ظاهرة مهمة تميز السلوك الانسانى ، وهى ظاهرة حب التجمع التى اعتبرها طبيعية ، وفى مقدور الأفراد .

ان فى نشاط الكائن الحى نواحى كثيرة تبين أنه لابد له من أن يصارع ويناضل فى سبيل البقاء ، الا أن هذه النواحى لا تمثل كل أنواع النشاط التى تميز السلوك العام للكائن الحى . ان سلوك هذا الكائن — فى الواقع — يظهر أن للتعاون بين الكائنات الحية أهمية لا تقل عن أهمية التنافس بينها والصراع فى سبيل البقاء وان هاتين الظاهرتين التنافس والتعاون لا تتناقضان بل تكملان بعضهما البعض . ان علماء القرن التاسع عشر وعلى الأخص علماء الاجتماع مثل

هربرت سبنسر وأتباعه — أهملوا ظاهرة التعاون فى سلوك الانسان وتجاهلوها ولم يبرزوا الا ظاهرة الصراع والنضال فى سبيل البقاء .

وفى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت عدة مقالات علمية للأمير « بطرس كروبوتكين » Prince Petr Kropotkin جمعها عام ١٩٠٢ فى كتاب أسماه « التعاون المتبادل كعامل فى التطور » Mutual Aid, a Factor in Evolution وفى هذه المقالات حاول « كروبوتكين » أن يبين أن هناك قوة لا شعورية تعمل فى عالم الكائنات الحية ، وأن هذه القوة تتضح فى تبادل المنفعة بين هذه الكائنات ذلك التبادل الذى يساعد الكائنات على الحصول على فرص أكبر للبقاء ، وأن الكائنات تدرك ادراكا — ولو غامضا — أن سعادة الأفراد مرتبطة بسعادة الجماعات ، وأنه اذا كان للفرد حقوق فان للآخرين حقوق أيضا . وقد كانت مقالات « كروبوتكين » هذه عبارة عن أضواء سلطت على ظاهرة التعاون فى حياة الكائنات الحية فلم يكد ينتصف القرن الحالى حتى بلورت البحوث العلمية المختلفة التى أجريت فى مملكة الحيوان — بلورت أهمية ظاهرة التعاون بين الأفراد وفائدتها كعامل مساعد على البقاء سواء للأفراد أو للجماعات .

ففى أبسط أنواع الكائنات الحية — وهى الحيوانات وحيدة الخلية — لوحظ ان التكاثر يحدث بالانقسام المباشر للخلية فتصبح الخلية خليتين وهكذا . وقد يحدث التكاثر بأن تنقسم بعض الخلايا الى عدد كبير من الخلايا الصغيرة (الجاميطات) التى يتجمع كل اثنين منها فيلتصقان ويندمجان فتتكون خلية واحدة (الزيجوت) وهذا هو أبسط أنواع التكاثر الجنسى . وفيما بعد يبدأ الزيجوت فى التكاثر بالانقسام المباشر لخلية الزيجوت .

وسواء أكان التكاثر بالانقسام المباشر أو بتزاوج الجاميطات فان العملية — أى عملية التكاثر — هى عبارة عن عملية تفاعل بين الخلية الأم والخلية الجديدة أى الوليدة المكونة للكائن الحى الجديد . فالخلية الأم هى التى تمد الخلية الوليدة بالمادة الحية كما أنه —أثناء عملية انقسام الخلية — تحدث عدة عمليات بنائية وأخرى فسيولوجية فى بروتوبلازم الخلية قبل أن تنفصل الخليه الجديدة من الخلية الأصلية لتصبح كل منهما مستقلة عن الأخرى . وهذه الظاهرة

— أى ظاهرة الاتصال الحيوى — بين الخلية الأصلية (الأم) والكائن الجديد (الخلية الوليدة) هى الطابع المميز لعملية التوالد فى الكائنات الحية .

يقول الدكتور « آشلى موتاجيو » Ashley Montagu [1] فى كتابه عن « صفات البشر » ان الطابع الاجتماعى الذى يميز الكائنات الحية على الاطلاق تمتد جذوره الى العلاقة الفسيولوجية التى تربط بين الأم والكائن الوليد ؛ وذلك لأن الأم والوليد يكونان متصلين اتصالا حيويا فترة من الزمن ، وأن حياة أحدهما تترتب على حياة الآخر أثناء هذه الفترة ، وعلى ذلك فان ظاهرة التوالد يمكن أن تعتبر أساسا للعلاقات الجماعية فى مملكة الحيوان والتى تسمى بالعلاقات الانسانية فى عالم الانسان ، هذه العلاقات المبنية على التكافل والتعاون بين الأفراد ، والتى تتمثل — فى أبسط أطوارها — فى العلاقة الفسيولوجية بين الخلية الأصلية (الأم) والخلية الجديدة (الوليد) المتكونة من الانقسام المباشر للخلية الأصلية . على أنه كلما تقدمت الحيوانات فى سلم التطور فان فترة هذه العلاقة الفسيولوجية بين الأم والوليد تطول فتصل فى حالة الانسان الى تسعة شهور كما أن فترة طفولة الانسان — تلك الفترة التى يكون فيها الطفل معتمدا على أمه اعتمادا تاما — فى أول الأمر — ثم جزئيا — فى السنوات التالية — هى أطول فترات الطفولة فى عالم الحيوان ؛ وتزداد هذه الفترة أو تقل أيضا وفقا لما بلغ المجتمع الذى يوجد به الطفل من حضارة تتسبب فى تعقيد الحياة وتعقيد العلاقات الانسانية معها .

وعلى ذلك فان أصل الميل نحو التجمع الذى يميز الكائنات الحية يمكن ربطه بالطريقة التى ينشأ بوساطتها الكائن الحى . ان كل خلية تنشأ من خلية أخرى ولا يمكن أن تنشأ الا بهذه الطريقة ، وكيفما كانت طريقة التوالد — سواء أكانت بالانقسام الخلوى البسيط المباشر أو بتزاوج الجاميطات — فان العملية فى كلتا الحالتين عملية اعتماد متبادل وتكافل بين الأم والجنين . والاعتماد المتبادل والتكافل شرطان لا غنى عنهما فى الحياة .

ان كل خلية فى جسم الكائن الحى تعتمد فى عملياتها الحيوية على الخلايا الأخرى المكونة للكائن الحى ، أى أن الكائن الحى يعمل كوحدة وليس

---

(١) Ashley Montagu, on Being Human p. 29.

كمجموعة من الخلايا المستقلة ، فهو وحده لأنه يحيى بطريقة التعاون الخلوى القائم فيه . وبالاضافة الى هذا فانه لا يوجد كائن حى منفرد أو مستقل بنفسه (من الناحية البيولوجية) فى نشأته ، كما أنه لا يوجد كائن حى يعيش بمفرده اللهم الا فى حالات نادرة . وكما جاء فى كتابات العالم «و.م.ويلر»[1] W. M. Wheeler اننا نجد أن الكائنات الحية — نباتية كانت أو حيوانية — تعيش عادة عيشة تجمعية فى قطعان أو مستعمرات أو جماعات ويندر أن توجد كائنات تعيش معيشة انفرادية ، وان وجدت فانها تعتبر غير طبيعية بالرغم من أن انفرادها قد يكون بسبب الأخطار التى قد تتعرض لها لو عاشت وسط الجماعات .

ولقد دلت البحوث التى أجريت فى نصف القرن الأخير تقريبا على الطبيعة الجماعية للأحياء على اختلاف مرتبتهم فى سلم التطور على أن للأحياء ميلا اجتماعيا فطريا فمثلا فى عام ١٨٩٤ وجد العالم « وليام روكس »William Roux المتخصص فى علم الأجنة أنه عند ما فرق خلايا بيضة الضفدع — وهى فى أولى مراحل نموها — وباعد بين هذه الخلايا فى الماء ، وجد أنها أخذت تتقارب من بعضها شيئا فشيئا حتى تم التلاصق بينها . كذلك فان تجربة أخرى على بعض يرقات الفراش بينت أنه اذا بوعد بين يرقة واحدة وبين مجموعة من اليرقات فان اليرقة المنفردة تسعى بنشاط الى صحبة اليرقات الأخرى .

وفى عالم البكتيريا وجد « ثاكستر » Thaxter عام ١٨٩٢ أن تعاون هذه الكائنات الدقيقة وحيدة الخلية واضح ومنظم ، ففى نوع من أنواعها يسمى « الميكسوباكتيريا » لاحظ تعاون الخلايا تعاونا يهدف الى توزيع العمل فيما بينها ، اذ وجد أن بعض الخلايا يلتصق ببعض بمادة لزجة لتكوين عنق وتوجد مجموعة من خلايا بكتيرية أخرى يلتصق بعضها ببعض أيضا وتكون كتلة تختص بعملية التكاثر .

هذه هى بعض الأمثلة القليلة التى توضح ميل الكائنات الحية الطبيعى للتجمع الذى أسماه بعض العلماء بغريزة التجمع ، والذى يشاهد فى الكائنات الحية على اختلاف طبقاتها .

---

(١) W. M. Wheeler, The Social life of Insects.

ان ظاهرة الميل للتجمع هذه تفسر لنا نشأة الكائن الحى المتعدد الخلايا من الكائن وحيد الخلية ، فان دوافع الكائنات الوحيدة الخلية نحو التجمع قد تكون السبب فى دوام تلاصق عدد منها بعد تكاثرها بالانقسام وعدم انفصال الخلايا الجديدة من الخلايا الأصلية (كما سبق أن ذكر فى وصف التوالد البسيط لهذه الكائنات) وبالتدريج زاد تبادل النشاط الفسيولوجى بينها فتكونت الأنسجة المختلفة التى اختص كل منها بوظيفة وتبادلت هذه الأنسجة النفع فيما بينها أيضا فتكون بذلك الكائن المتعدد الأنسجة والخلايا . وعلى نفس النمط نجد أن أى تجمع حيوانى أو أى مجتمع انسانى قد تكون بطريق أو آخر ضمن تبادل المنافع والتكافل بين أفراده أو مجموعاته .

ولقد جاء فى مؤلفات كثيرة للعالم « و.س.ألى » W. C. Allee [1] ما يبرهن على أن فى تجمع الكائنات الحية فائدة حيوية لها ، اذ أن فرصها فى البقاء حية تزداد وهى متجمعة عما هى فى حالة انفرادها . ويذكر العالم على سبيل المثال أن تجربة أجريت على نوع من الديدان البحرية ، عرض بعضها وهى متجمعة وبعضها وهى منفردة للأشعة فوق البنفسجية ، فكانت نسبة الهلاك فى الديدان المتجمعة أقل منها بكثير فى الديدان المنفردة . كما ذكر نفس العالم أن تجربة أخرى أجريت على بعض أسماك الزينة فوضعت مجموعات منها فى محلول سام ووضع بعضها منفردا فى أوان أخرى تحوى نفس المحلول فهلكت الأسماك المنفردة أما الأسماك المتجمعة فلم تهلك كلها بل نجا بعضها . وذكر أيضا أنه فى أبحاثه الخاصة على القنافذ البحرية وجد أنه كلما كان بيض القنافذ متكاثرا فى مجموعات زادت سرعة نموه ، وكلما بوعد بين البيض قلت سرعة نموه . أما تجاربه على بعض أنواع النورس ، وهو طير بحرى يعيش فى جماعات فانها برهنت على أنه كلما ازدادت أعداد الطير فى الجماعات فان نسبة التوالد فيها تكون أسرع منها فى الجماعات التى يقل عدد أفرادها .

---

(١) W. C. Allee, (a) Animal Aggression.
(b) The Social Life of Animals.
(c) Principle of Animal Ecology.

من كل ما سبق يمكن استخلاص عدد من الحقائق أهمها :

أولا — ان الكائنات الحية — حتى أصغرها وأبسطها تركيبا — تحيا عادة حياة جماعية أو اجتماعية (فى حالة الانسان) ، وأنه لا يوجد أى نوع من أنواع الحيوان — على اختلاف مراتبه — يحيا منفردا الا اذا كان فى اجتماعه بالحيوانات الأخرى ما يجلب له الخطر .

ثانيا — ان الحياة الاجتماعية تكسب الحيوانات المتجمعة فوائد حيوية هامة ، وخصوصا من ناحية اكساب هذه الحيوانات فرصا أكبر للبقاء .

ثالثا — ان أهم ظاهرة تميز الحياة الجماعية فى مملكة الحيوان ليست ظاهرة الصراع والنضال فى سبيل البقاء بل ظاهره التعاون فى سبيل البقاء .

رابعا — ان الحياة الجماعية فى مملكة الحيوان معاصرة للحياة نفسها ، فقد بدأت الحياة الجماعية مع بدء الحياة فى هذا العالم .

خامسا — ان الحياة الجماعية فى مملكة الحيوان تمتد جذورها الى الدوافع العضوية والعلاقات الحيوية التى تربط بين الأم والجنين أثناء عملية التوالد ، وان لهذه الظاهرة مغزى هاما ، فعملية التوالد التى تخلق بوساطتها الأحياء ، هى الأساس الذى تستند عليه العلاقات الجماعية فى الأحياء .

والمجتمع الانسانى هو أسمى أنواع التجمعات فى مملكة الحيوان ، وانما يمتاز هذا المجتمع بالعقل البشرى باستعداداته ومرونته وقابليته الهائلة للتعلم ، وبتخلصه من السلوك الحيوى الجامد . ولأن الانسان هو أرقى الحيوانات جميعا فان له حاجات أساسية (كما للأحياء الأخرى) لا غنى عنها لحياته كالتنفس والغذاء والاخراج والتوالد ، كما أن له حاجات أخرى لابد من حصوله عليها كى ينمو نموا طبيعيا ، كحاجته الى الاتصال بالناس وحاجته الى الاعتماد على الغير .

والطفل عند ولادته يكون مزودا بدوافع غريزية تجعله يشعر بالحاجة الى حب أمه له وعنايتها به ، وتعتبر عملية اشباع حاجته الى حب أمه من أهم عمليات

التعاون بين الأحياء . يقول الأستاذ « آدلر » A. Adler [١] فى بعض كتاباته ان أول عملية نشاط يقوم بها الطفل الحديث الولادة هى الرضاعة من ثدى أمه ، وان فى هذا النشاط لمتعة لكل من الأم والطفل على حد سواء لأنه مصحوب بشعور لطيف ومحبب لكل منهما .

من كل ما تقدم يتضح أن الأم هى أول فرد يتصل به الوليد ويتعاون معه سواء فى أثناء الحمل أو بعد الميلاد ، لذلك فان للأم أكبر الأثر فى بدء تكوين العلاقات الانسانية بين الطفل والمجتمع حوله ، وان فى يدها تقوية هذه العلاقات — وهى فى أول مراحل تكوينها — أو اضعافها ، وذلك يترتب على المساعدة والعناية التى تمنحها للطفل الذى لا يملك من أمره شيئا والذى يحتاج حاجة غريزية الى محبتها وعطفها . فاذا فشلت الدوافع الغريزية للطفل فى الحصول على الحب والحنان من أمه (أو ممن يقوم مقامها اذا لم تكن موجودة) فان هذا الفشل يكون سببا لا فى شعور الطفل بالاضطراب وعدم الاستقرار فحسب ، بل قد يتسبب هذا الفشل أيضا فى اضطرابات عملية الهضم عند الطفل. ولقد وجد أنالطفل الذى يبكى ويترك دون أن يستجيب أحد لبكائه فان التوتر العصبى الذى يصيبه كثيرا ما يسبب اصابة الطفل بمرض الربو [٢] . هذا وقد ثبت علميا أن عددا كبيرا من الأمراض العضوية يرجع سببها الى اضطرابات عصبية تكون قد حدثت فى السنوات الست الأولى من حياة الصغير .

ومهما نقل عن أهمية الحب والحنان فى حياة الطفل فى تنمية علاقاته الاجتماعية فاننا لا نوفىهذه الأهمية حقها ، وقد تتبين هذه الأهمية اذا نحن استعرضنا الموضوع الآتى [٣] :—

انه حتى منتصف القرن الأخير كانت احصاءات الوفيات فى الأطفال تدل على أن ما يقرب من حوالى نصف عدد المواليد فى العالم يموتون فى السنة الأولى بعد ولادتهم ، وأن موت الأطفال فى هذه السن كان يرجع فى غالبية الأحيان الى مرض كان يسمى «مرض الهزال» Marasmus . فلما قام الباحثون بتجاربهم لاكتشاف

---

(١) A. Adler, Social Interest : Achallenge to Mankind.

(٢) F. Alexander Psychogenic factors in Bronchial Asthma Part I, Psychomatic Medicine Monograph *IV*, 1941 p. 58.

(٣) Ruth M. Backwin & H. Backwin Psychologic Care During Infancy and Childhood.

سر هذا المرض الخطير وجد أن أكثر الأطفال اصابة به هم أبناء أغنى الطبقات والأطفال فى المستشفيات والمؤسسات كاللقطاء واليتامى ، أى الأطفال الذين يحصلون عادة على أوفر قسط من العناية الصحية ، بينما وجد أن أطفال الطبقات الفقيرة التى تقوم أمهاتهم بتربيتهم بأنفسهن يكونون أكثر قدرة على مقاومة مرض الهزال بالرغم من الظروف غير الصحية التي يعيشون فيها . وهكذا استنتج الباحثون أن حنان الأم وعطفها — الذى يحرم منه أبناء الطبقات الثرية لتعهد الخادمات بتربيتهم ، والذى يحرم منه اللقطاء واليتامى ، والذى يتمتع به أبناء الطبقات الوسطى والفقيرة — هو العامل الذى يسبب فقدانه وقوع الطفل فريسة لمرض الهزال .

وكان اكتشاف هذه الحقيقة سببا فى أن معظم مستشفيات العالم المتحضر ومؤسسات الطفولة فيه تحاول أن تعيد الأطفال الى أمهاتهم ، وفى حالة عدم وجودهن يعطى الأطفال لحاضنات يقمن مقام الأم . ولقد جاء فى كتاب الدكتورة « روث باكوين » [1] وزوجها وهما من مشاهير أطباء الأطفال الأمريكيين — عن العناية بالنواحى السيكلوجية فى تربية الأطفال — جاء ما يفيد بأن اقامة الأطفال بالمستشفيات وما فى حكمها من مؤسسات للأطفال اليتامى واللقطاء وأبناء النساء العاملات ، هذه الاقامة لفترة طويلة تسبب أعراضا طبية واضحة تظهر على هؤلاء الأطفال ، ومن أهم هذه الأعراض عدم قدرتهم على النمو السليم بالرغم من تناولهم الأغذية التى تكفل النمو السليم للأطفال المقيمين فى منازلهم ، وعدم قدرتهم على النوم العميق لفترات طويلة كافية ، كما أنه لوحظ أن هؤلاء الأطفال قلما يبتسمون أو يصدرون الأصوات التى يصدرها الصغار فى الشهور الأولى من حياتهم (المناغاة) . أما شهيتهم للطعام فهى فاترة ويأكلون غذاءهم دون اهتمام به ، وكثيرا ما يصاب الأطفال بنزلات البرد التى تصاحبهم أسابيع وشهورا بينما تزول عن الأطفال المقيمين فى منازلهم فى ظرف يوم أو يومين . ولقد لوحظ أنه بمجرد عودة هؤلاء الأطفال الى منازلهم أو الى حاضنات يقمن مقام الأمهات تتحسن حالتهم الصحية بسرعة عجيبة .

---

(١) Ruth M. Backwin & H. Backwin Psychologic Care During Infancy and Childhood.

هذا كما أن حرمان الطفـل من أمه فى الفترة التى تعقب ولادته وحرمانه بالتالى من حبها ورعايتها تسبب أضرارا كبيرة لا بصحة الطفل الجسمية فحسب بل بصحته النفسية أيضا ،وتدل أبحاث العلماء فى هذا الصدد على أن هؤلاء الأطفال المحرومين — كأطفـال المؤسسات والمستشفيات — يتصـفون عادة بشخصية انفرادية تتميز بسلوك أنانى عدوانى تجاه المجتمع ، كما أن هؤلاء الأطفال يجدون صعوبة كبيرة فى تقبل الحب والعطف وتبادله مع أفراد المجتمع ، هذا بالاضافة الى شـعورهم دائما بعدم الاطمئنان والى تصرفاتهم العشـوائية العديمة الهدف والغاية . وبالاختصار فان هؤلاء الأطفال غير قادرين على تكوين علاقات انسانية سليمة مع أفراد المجتمع حولهم . يقول الأستاذ « و. جولد فارب » Goldfarb [1] ان جميع العلاقات العائلية بشتى اتجاهاتها لا وجود لها عند طفل الملاجىء والمؤسسات ، لأن طفل الملاجىء لا يكون أية علاقات اجتماعية مع الناس . ولذا فان تكوين شخصـيته يكون غير متكامل . ولقد اهتمت الهيئات الدولية بدراسة السلوك الاجتماعى للأطفال الذين يربون فى المؤسسات ، فقامت هيئة الصحة العالمية باجراء عدد من التجارب تحت اشراف « ج . بولى » J. Bowlby [2] على مجموعات من أطفال دول أوربا والولايات المتحدة دلت كلها على أن أهم دعائم الصحة النفسية عند الصغار هى تبادل علاقة الحب والعطف مع أمهاتهم فى السنوات الأولى من حياتهم . وهكذا فان غالبية هذه الدول الآن تسعى الى استعاضة المؤسسات والملاجىء التى يربى فيها الصغار اليتامى واللقطاء ببيوت تشبه بيوت الأسر يعيش فى كل منها عدد صغير من هؤلاء الأطفال مع أم (بالتبنى) أو حاضنة ، وسيدات أخريات يمثلن الأقارب ، ويعيش الأطفال معيشة شبيهة بالمعيشة العائلية ، فيذهبون الى المدارس العامة ويعودون الى بيوتهم كما يعود الأطفال الآخرون . وهكذا تحاول هذه الدول تربية هؤلاء الصغار فى أجواء تشـبه بقدر المستطاع الأجواء العائلية العامة .

---

(١) William Goldfarb, (a) « The Effects of Early Institutional care on Adolescent Personality », Journal of Experimental Education, Vol. 12, 1943 p. p. 106 — 129.
(b) Psychological Privation in Infancy & Subsequent Adjustment, American Journal of Orthopsychiatry, vol 15, 1945, p. 254.

(٢) J. Bowlby, Maternal care & Mental Health.

ان الاعتماد المتبادل أو التكافل الذى يحدث أثناء الاتصال الفسيولوجى بين الأم والجنين قبل ميلاد الطفل ، والذى تكون حياة كل منهما معتمدة فيه على حياة الآخر — هذا التكافل الفسيولوجى يترجم فى حياة الفرد الى تكافل بين الفرد والمجتمع يبدأ بتكافل بين الجنين والأم فى السنوات الأولى لحياته ، وأن الانسان يجد فى هذا التكافل معنى لحياته ولعلاقاته مع الآخرين ، فاذا أهمل الطفل الوليد ولم يعن أحد بأمره فانه يذبل ويموت ، واذا أهمل الفرد ولم يعن أحد فى المجتمع بأمره فان شعوره نحو الناس يفتر وتموت فيه ميوله الاجتماعية كما تمرض نفسه وقد ينتهى به الأمر الى الموت ، وقد قال « اريك فروم » [1] Eric From « انه اذا لم يشعر الشخص بأنه ينتمى الى جماعة ، واذا لم يشعر بأن لحياته معنى وهدفا فانه سوف يشعر كأنه ذرة من تراب ، ولسوف يقضى عليه شعوره بعدم جدواه . ان مثل هذا الشخص لا يمكنه أن يتمشى مع أى نظام اجتماعى يبرز معنى واتجاها لحياته ، وسوف تنتابه الشكوك التى تصيب قدرته على النشاط بالشلل ، ولسوف يفنى فى النهاية » .

ويقول أ.أدلر [2] A. Adler فى هذا الصدد أيضا ، «ان النمو الطبيعى للفرد لا يمكن أن يحدث الا اذا عاش الفرد وكافح كجزء من كل (يعنى المجتمع) ... ويمكننى أن أذهب الى أبعد من هذا لأبين أن جميع وظائفنا الحيوية مهيأة بشكل يربط الفرد والمجتمع ... فعملية الابصار عملية استقبال العين لكل ما يسقط من صور على شبكتها حتم تتم الرؤية ، ثم ترجمة هذه الصور الى أشياء يدركها العقل ويفيد منها ، هذه العملية ليست عملية فسيولوجية محضة ، بل انها عملية تبين أن الفرد جزء من الكل وأنه يأخذ ويعطى ... والابصار والسمع والكلام عمليات كلها تتطلب الربط بين الأفراد . ان جميع وظائفنا الجسمية والعقلية لا تتم ولا تنمو نموا سليما وصحيحا الا اذا كان ذلك فى جو اجتماعى مبنى على التعاون ... واننا اذا تكلمنا عن الفضيلة فاننا نعنى أن الفرد يؤدى ما عليه للمجتمع ، واذا تكلمنا عن الرذيلة فاننا نعنى أن الفرد لا يؤدى ما عليه للمجتمع وأنه يعارض التعاون مع أفراده . ان ميلاد الانسانية لم يكن ممكنا الا بفضل

---

(١) Eric From, Escape From Freedom, p.p. 21 — 22.

(٢) A. Adler, Social Interest.

الطبيعة الاجتماعية للجنس البشرى . وكما وضح العالم « و . جولت »[١] W. Galt فى كتاباته أن الوحدة الأساسية للسلوك الاجتماعى ليست للفرد بل للجماعة ؛ فان الطفل يولد بمجموعة من الاستعدادات الفطرية والحاجات ، أما الذات الشعورية « الـ Ego » فانها تكون نفسها من احتكاك الصغير بالعالم الواقعى الخارجى والذوات الشعورية الأخرى للأفراد حوله ، التى تكيف استعداداته وحاجاته . ان السلوك التعاونى عند الطفل الحديث الولادة — كما سبق أن تبين — سلوك طبيعى ، وأن لهذا السلوك التعاونى أهمية أكبر وأعمق أثرا فى حياة الطفل من السلوك التنافسى . ان السلوك التنافسى — كما تقول « شارلوت بوهلر » G. Buhler[٢] — لا يظهر فى الطفل الا ابتداء من السنة الثالثة من عمره ؛ وان هذا السلوك الذى يتسم بالعداء يزداد كلما كبر الطفل . وهذا السلوك العدائى — فى رأى كثير من الباحثين فى ميدان علم نفس الطفولة — هو عقدة نفسية تكونت للطفل نتيجة للحرمان أو الاخفاق اللذين قد يتعرض لهما الطفل فيسببان التناقض فى بناء شخصيته[٣] .

ان الطفل يتعلم بالتدريج أنه اذا أراد أن تجاب رغباته وتشبع حاجاته فلابد أن يحرص على اجابة رغبات الآخرين وتلبية طلباتهم . واذا أراد أن يكون محبوبا وأن تجاب مطالبه فعليه أن يحب من حوله ويتعاون معهم ، وهكذا بالتدريج يبنى الطفل علاقته مع من حوله ، تلك العلاقات التى تبدأ بالمحبة بينه وبين أمه والتى تشعره بأنه فى مأمن وأنه ينتمى الى أمه ، وعن طريق المحبة والتعاطف أيضا بينه وبين أفراد أسرته يشعر باطمئنان أوسع لأنه ينتمى الى أسرة لها عليه حقوق وله عليها حقوق ، يجب أن يقوم بأدائها كل منهما حتى تظل العلاقات الطيبة قائمة بينه وبينها ، فاذا ما بدأ يخرج عن نطاق الأسرة الى نطاق المجتمع فانه يحصل على حب أفراده وتقديرهم اذا تمشى مع تقاليدهم وتعاون معهم ، وتمشيا مع تقاليد المجتمع يتحتم عليه القيام بواجباته نحو هذا المجتمع نظير انتمائه اليه . ولابد من أن يمر الفرد بعدة صعوبات أثناء عملية التكيف هذه ، اذ أنه سوف يقابل

---

(١) W. Galt, « The Principle of Cooperation in Behaviour », Quarterly Review of Biology », Vol. 15, 1940, p.p. 406 — 410.

(٢) C. Buhler, « Spontaneous Reactions of Children in the First Two Years », Proceedings & Papers of the 9th International Congress of Psychology, 1929, p.p. 99 — 100.

(٣) L. Bender, « Genesis of Hostility in Children, American Journal of Psychology. Vol, 105, 1948, p.p. 241 — 245.

مواقف تضطره للصراع مع رغباته ونزعاته لحفظ حقوق الآخرين ، وانه اذا اعتدى على أحد فسوف يعتدى عليه ، واذا أخذ فانه لابد أن يعطى ، وبالاختصار فانه سوف يجد أن حياته كلها جزء من حياة الآخرين ، وأن كل فرد فى المجتمع مسئول عن الأفراد الآخرين حتى لقد قال « دستويفسكى » Dostoevski « ان كلا منا مسئول عن كل شىء لكل فرد فى المجتمع » .

لقد بينت لنا التجارب والأبحاث العلمية والسيكلوجية أن التعاون صفة أصلية فى الأحياء وانه بدونه لا يحدث توالد ولا تستمر الحياة ، فالتعاون والمحبة — اذن — ضرورتان للحياة لا تقلان فى قيمتهما عن التنفس والغذاء ، وهنا يجىء دور التربية ، ان الفرد وهو فى سن التكوين — يمضى الغالبية الكبرى من ساعات أيامه فى المدرسة لسنوات عدة ، وان هذه الفترات الطويلة من عمر الصغير يجب ألا تستخدم للتعليم فقط ، بل يجب أن تستخدم فى توجيه وتنمية العلاقات الانسانية بين التلميذ وبين أفراد المجتمع فى المدرسة ، فان تم هذا على وجه سليم فان التلميذ سوف يكون قيما يمكنه — بناء على هديها — أن يكون علاقاته مع الناس خارج المدرسة .

يقول الأستاذ « آشلى مونتاجيو » [1] A. Montagu ان أهم واجبات المدرسة تنحصر فى تعليم القراءة والكتابة والحساب أو كما يسميها الغربيون الـ Three R, s وهى « Reading, Writing & Arithmetic » ويرى أن تضاف R رابعة تمثل العلاقات الانسانية Human Relations فتصبح وظيفة المدرسة الأولى توجيه وتنمية العلاقات الانسانية بالاضافة الى تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وهذا لا يعنى أن الأطفال فى المدرسة لا يتعلمون الآن شيئا عن السلوك الاجتماعى أو بمعنى آخر لا تكون قيمهم عن العلاقات الانسانية فى المدرسة . ان الطفل يتعلم فى المدرسة كيف يتعامل مع الآخرين ولكن هذا التعلم يحدث بطريقة غير منظمة أو مدروسة . وذلك لأن الصغار يتعلمون كيف يسلكون مع الغير من الطريقة التى يتعامل بها الأفراد فى مجتمعهم المدرسى ابتداء من ناظر المدرسة الى بوابها ، وانه دون أن نجحف بدور المجتمع المنزلى فى تشكيل انماط العلاقات الانسانية للنشء ، فان المدرسة تعتبر أهم مكان لتشكيل هذه العلاقات

---

(1) Ashley Montagu, on Being Human, p. 106.

لذلك ينبغى أن توضع هذه العملية — أى عملية تشكيل العلاقات الانسانية للنشء — فى المرتبة الأولى من الأهمية فى وظائف المدرسة ، اذ لابد من تدريب النشء تدريبا يكفل أن تخرج المدرسة أفرادا آدميين قبل كل شىء ، يتصفون بأنبل الصفات الانسانية وهى المحبة والتعاطف والتعاون ، ذلك لأنه لايكفى أن تقنع المدرسة بتزويد النشء بالعلم مهما بلغت قيمته ، فما لم يكن هذا العلم مقترنا بالانسانية الرفيعة ، وما لم يستعمل هذا العلم لخدمة الانسانية فى أنبل صورها فانه لا فائدة ترجى منه ، بل انه يصبح خطرا داهما على المجتمع .

ان التعلم عن طريق المثل الذى يحتذى به أسرع وأجدى من التعلم النظرى، اذ أن التقليد العملى طريقة تعليمية أكثر مباشرة من ترجمة الكلمات المسموعة أو المقروءة الى معان عملية ، فانه من السهل على المدرس أن يقول للتلميذ يجب أن تحب زملاءك وتتعاون معهم ، أو أن يعطيه درسا مكتوبا عن المحبة والتعاون ، الا أنه لن يكون للارشادات أو الدروس أثر مجد الا اذا كان سلوك المدرس مع من حوله يمثل المحبة والتعاون ، أما اذا كان سلوكه منافيا لما يدعو اليه فلا فائدة ترجى من وعظه وتعليماته . مما سبق يتضح أن قيمة المعلم — من حيث أثره على تشكيل أنماط السلوك الاجتماعى للنشء — كبيرة جدا . ان التلميذ يمضى أكثر النهار لأكثر أيام السنة فى صحبة المعلم ، وعلى ذلك فان المعلم يشغل أخطر وظيفة فى المجتمع ، فهو الذى يشكل عقول الصغار ويمدهم بالمواد الثقافية ويزودهم بالقيم والاتجاهات التى تشكل على هديها أنماط سلوكهم الاجتماعى . وبالاختصار فان المعلم هو الذى يعد مواطنى المستقبل .

ولما كانت للمعلم هذه الأهمية فان من واجبنا — كمجتمع عربى ناهض راغب فى المحافظة على السلام العالمى ، يدين بتقوية روابط المود والتعاون بينه وبين مختلف الشعوب للمحافظة على هذا السلام — من واجبنا أن ندقق فى اختيار المعلمين الصالحين للقيام بأخطر مهمة فى الدولة ، وهى تشكيل شخصيات النشء وهم فى مراحل حياتهم المرنة القابلة للتشكيل والتكيف . انه لا يكفى أن يكون معلم النشء مثقفا ومتمكنا من مادته ومن طرق تدريسها ، ولا يكفى أن يكون ملما بالنظريات التربوية قديمها وحديثها ، ولا يكفى أن يكون نشيطا ومحبا للعمل، ولا يكفى أن يكون دارسا لظروف الوطن العربى الاجتماعية والاقتصادية ولمشاكله فى شتى نواحى الحياة ، الى آخر ذلك من الصفات المرغوب فيها فى المعلم

فى عالمنا العربى ، ذلك لأنه — قبل كل هذا — لابد وأن يكون انسانا متسما بالصفات الانسانية الرفيعة التى يتوجها الحب والتعاطف والتعاون .

فبالاضافة الى قيامه بتقديم العلم والمحبة للصغار وتثقيف عقولهم فانه سوف يكون المثل الذى يحتذى به فى الطريقة التى يتعامل بها مع أفراد المجتمع المدرسى، تلك الطريقة التى لا بد أن تكون مبنية على الحب والتعاون ؛ فاذا ظهر للصغار أن مدرسهم الذى يعاملهم بحب وعطف والذى يتعاون معهم فى ايجاد الطرق والوسائل التى تجعل الدراسة مجدية ومحبوبة ، والذى يساعد التلميذ المتأخر حتى يتقدم ويعاون التلميذ المتقدم فيزداد تقدما ، والذى يتعاون مع زملائه المدرسين بروح طيبة تبغى الصالح العام ، ومع رؤسائه لنفس الغرض — اذا ظهر للصغار ذلك فانه بالتدريج وعن طريق الاعجاب سوف يكون هذا المعلم هو المثل الأعلى لديهم فيقلدونه ، وهـكذا سوف يتسم سـلوكهم الاجتماعى بظاهرتى الحب والتعاون .

لقد ألقى البحث التربوى خلال الأعوام العديدة الماضية الكثير من الأضواء الكاشفة على السلوك الانسانى وعمليات التعليم . ففى السنوات الأخيرة أجريت عدة تجارب لتقييم المعلم كان ضمنها استفتاءات عديدة عملت فى الولايات المتحدة على آلاف التلامية بالمدارس تبحث عن أسباب اعجاب التلاميذ بالمدرسين وأسباب نفورهم منهم . وقد دلت هذه الاستفتاءات على أن أكبر عدد من التلاميذ أبدى الأسباب الآتية للاعجاب بالمدرس بالترتيب كالآتى :

١ — يتعاون فى العمل المدرسى ويشرح الدروس بوضوح .

٢ — مبتهج ــ سعيد ــ طيب ــ طروب .

٣ — انسان ــ صديق رفيق ــ « واحد منا » الخ ..

أما استفتاءات أسباب النفور فجاءت كما يأتى بالترتيب كذلك .

١ — مثبط ــ كثير التأنيب ــ ساخر ــ سريع الغضب ــ غير متعاون فى العمل المدرسى .

٢ — متعال — متكبر — لا يعرفك خارج الفصل .

٣ — قاس جدا — يجعل الحياة تعسة .. الخ .

وبالنظر الى الصفات التى يستحسنها التلاميذ فى مدرسيهم نجد أنها كلها صفات للسمات الشخصية للمدرس ، وأن هذه السمات تتميز بالانسانية الرفيعة كالعطف والصداقة والطيبة والبشاشة وغيرها ، وكلها أوجه مختلفة للمحبة والتعاون الانسانى . هذا بينما نجد أن التلاميذ ينفرون من المدرس السريع الغضب الساخر المتعالى القاسى ، وكلها صفات لا تمت للانسانية الرفيعة بصلة . وهكذا يتضح أن السمات الانسانية للمدرس هى التى تقربه لقلوب النشء ، ومتى وصل المدرس الى قلوب التلاميذ فمن السهل عليه أن يصل الى عقولهم وتصبح مهمة التعليم والتعلم مهمة سهلة محببة .

ولم تفت هذه الحقيقة كتابنا وفلاسفتنا ومربينا المسلمين والعرب ، فقد خصوها بالاهتمام منذ أقدم العصور ، وان كتاباتهم تؤكد ضرورة اقامة أواصر الود والتعاطف والتعاون والاحترام المتبادل بين المعلم وتلاميذه وبين الأستاذ ومريديه ، بل وبين الفرد ومن حوله من الناس سواء فى بيته أو فى المجتمع ، ولقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب الى بيان ما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات بالتفصيل ، فنجد مثلا أن عددا من كتب الغزالى — الامام الدينى المتصوف — تشمل أبوابا طويلة عن العلاقات التى يجب أن تقوم بين المعلم ومريديه وبين الأفراد بعضهم وبعض ، وقد وضح أن كل هذه العلاقات لابد وأن تبنى على المحبة والاخلاص والأمانة والتعاون .

فان كان كتابنا القدامى قد بدأوا — منذ قرون مضت — يخصون هذا الموضوع بالاهتمام ، فحرى بنا — وقد هبت الشعوب العربية مناضلة من أجل قوميتها والدفاع عن حقوقها — أن نتبع خطوات من سبقونا من الحكماء والفلاسفة العرب والمسلمين ونؤكد ضرورة اعتبار العلاقات الانسانية من أهم الأمور التى يجب أن تولى عناية كبيرة فى تربية النشء ، وذلك لما لهذه العلاقات

من خطورة فى جميع الميـــادين الاجتماعية والدوليـــة ، ونحن ان أكدنا اليوم ضرورة غرس روح التعاون فى الصغار أثناء تربيتهم فانما نؤكد ضرورة العناية بعامل أساسى فى بناء مجتمعنا الاشتراكى الديموقراطى التعاونى . فان شب النشء وقد آمن بأن المحبة والتعاون هما أساس العلاقات الانسانية السليمة بين الأفراد فسوف يتكون فى وطننا جيل مؤمن بهذه الظاهرة الاجتماعية التى هى أساس السلم وأساس النجاح والدعامة التى يمكن أن تقوم عليها العلاقات بيننا وبين اخواننا فى مجتمعنا الصغير ثم بيننا وبين اخواننا فى الوطن العربى بل بيننا وبين دول العالم جمعاء .

مجالات الصحة النفسية بالمدرسة (١)

للدكتورة سميرة أحمد فهمى
أستاذة علم النفس المساعدة

مفهوم الصحة النفسية :

الصحة النفسية فرع من فروع علم النفس التطبيقى.فبينما يدرس علم النفس سلوك الكائنات الحية فى تفاعلها مع البيئة ، ومصادر هذا السلوك وعواقبه ، تهتم الصحة النفسية بتقييم عواقب السلوك من حيث كونها مرضية أو غير مرضية للشخص . وتكون عواقب السلوك مرضية أو غير مرضية للشخص وفقا لنوع الأهداف التى يحققها أو يقصر عن تحقيقها .

واذا كان من المسلم به أن الناس يختلفون فيما بينهم ، فمن المسلم به أيضا أن البشر يشتركون فى بعض المميزات النفسية العامة.يترتب على ذلك أن على الرغم من أنه قد يكون لكل شخص أهداف خاصة فى الحياة ، الا أن الباحثين تمكنوا من اكتشاف أهداف عامة أساسية للحياة البشرية — أهداف ذات قيمة فى حد ذاتها ، يجلب تحقيقها الرضا والسعادة للبشر .

فما هى هذه الأهداف العامة التى اكتشفها علماء الصحة النفسية ؟ الغرض الأساسى من الحياة من وجهة نظر الصحة النفسية هو أن يصبح الفرد شخصية ناضجة . وبناء شخصية ناضجة عملية تطور خلاق يقتضى تعبئة جميع امكانيات الانسان ، ولا بد من أن تختلف من شخص لآخر ، لأن كل واحد منا شخصية فريدة لها تاريخ خاص بها . ومع ذلك فهناك مبادىء أساسية يمكن أن يهتدى بها الشخص الذى يسعى الى النضج النفسى ، ونلخصها فيما يلى :

الشخصية الناضجة :

١ — تحقق الاستقلال النسبى والاعتماد على النفس .

(١) بحث قدم الى الحلقة الدراسية لأسس التربية فى العالم العربى — يونيو سنة ١٩٦١

٢ — تكون علاقات اجتماعية طيبة وتستمتع بها .

٣ — تعرف نفسها بأمانة وتقدرها حق قدرها .

٤ — مستعدة لمواجهة الحقائق الواقعية .

٥ — تعنى عناية متزنة بكل ناحية من نواحى طبيعتها فتهتم بالعمل واللعب والحب والعبادة وغيرها .

٦ — تنظم اتجاهاتها المتنوعة المتضاربة فى وحدة متكاملة متسقة .

٧ — تبنى لنفسها مقياسا من القيم والمثل العليا وتترجمه الى خطة عملية تعينها على مواجهة مشاكلها ، والتمييز بين السبل المختلفة لحلها ، والتبصر فى عواقب الأمور ، وتقييم النتائج .

هذه هى الأهداف الأساسية التى يرى علماء الصحة النفسية أنها ترضى الانسان وتسعده ، اذا سعى الى تحقيقها فى حدود النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه . وهذا ما نسميه فى علم الصحة النفسية بالتكيف أو الملاءمة .

توضيح معنى التكيف :

يتضمن التكيف تفاعلا مستمرا بين الشخص وبيئته ، فللشخص حاجات وللبيئة مطالب ، وكل منهما يفرض مطالبه على الآخر . ويتم التكيف أحيانا عندما يرضخ الشخص ويتقبل الظروف البيئية التى لا يقوى على تغييرها . ويتحقق التكيف أحيانا أخرى عندما يعبىء الشخص امكانياته البناءة فيعدل الظروف البيئية التى تقف فى سبيل أهدافه . وفى أغلب الأحيان يكون التكيف حلا وسطا بين هذين الطرفين . وينشأ سوء التكيف عند ما يفشل الشخص فى تحقيق مثل هذا الحل الوسط فتسوء صحته النفسية .

فالصحة النفسية السوية اذن تمثل القدرة على التكيف ، قدرة الشخص على التوفيق بين رغباته وأهدافه من جهة ، وبين الحقائق المادية والاجتماعية التى يعيش فى وسطها من جهة أخرى . فاما أن يلائم بينه وبين المطالب التى يفرضها عليه الواقع ، واما أن يهتدى الى طرق يعدل بها هذه الوقائع بحيث تصبح مستساغة اليه .

فاذا أردنا أن نعنى بصحتنا النفسية علينا أن نستوضح أولا رغباتنا وأهدافنا فى الحياة ، وثانيا المطالب التى يفرضها علينا الواقع . أما أهدافنا العامة فلقد أوجزتها فى النقاط السبع السابقة . واما بخصوص الشروط التى يفرضها علينا الواقع فيمكن تلخيصها كالآتى :

الحياة الواقعية تتطلب منا أولا التغير والتطور . فالتكيف لا ينتهى أبدا ، بل يجب أن يستمر من يوم لآخر ومن مرحلة نمو الى أخرى فى حياة الشخص . فكل خطوة فى النمو تتطلب تكيفا جديدا ، ولا يمكن التشبث بأساليب التكيف القديمة دون تغييرها وتطويرها الا على حساب صحتنا النفسية .

ثانيا : تفرض علينا الحياة الواقعية مطلبا آخر مضادا للمطلب الأول ، ألا وهو الثبات والمثابرة ، ومواصلة الكد والجهد فى أعمالنا لكى نحقق النجاح فيها . والتكيف يتطلب تزاوجا سعيدا بين التطور والمثابرة . ولعل أحسن تعبير عن هذا التزاوج السعيد هو وصف التكيف بأنه القوة المرنة . فالأشخاص الجامدون هم الذين يفتقرون الى عنصر المرونة . أما الذين لا يحتملون الأعمال الكادحة ولا يتجلدون أمام الصعاب فهم الضعفاء . والشخص الذى يتمتع بصحة نفسية سوية هو الذى يستطيع أن يسلك بمرونة أو بقوة وفقا للظروف . ومواجهة التطور بالنسبة للأطفال لا تقل صعوبة عن تعلم المثابرة .

المطالب التى تفرضها المدرسة على الطفل :

ينتقل طفل السادسة من مجتمع الأسرة الى مجتمع المدرسة ، ولا شك فى أن الاختلاف الكبير بين المجتمعين يتطلب من الطفل أشكالا جديدة من التكيف . فلنتبصر اذن فيما تتطلبه الحياة المدرسية من الطفل :

١ — التكيف الدراسى : تتطلب المدرسة أن يتعلم الطفل القراءة والكتابة والحساب والعلوم وغيرها من فروع الفنون والمعرفة ، وأن يؤدى الواجبات التى يعطيها المدرس ، وأن يصل الى مستوى معين من التقدم فى نهاية كل عام ، وأن ينجح فى الامتحان ، ألخ .

٢ — التكيف الاجتماعى : الحياة المدرسية تتطلب من الطفل أن يندمج فى مجموعة أكبر من مجموعة الأسرة ، مجموعة منظمة تنظيما يخالف تنظيم الأسرة . عليه أن يكون الأصدقاء ، وأن يستعد لهجمات المعتدين ، وأن يقيم لنفسه مركزا

اجتماعيا مرضيا بين زملائه.لم يعد الطفل محور الانتباه والرعاية كما كان فى أسرته، بل عليه أن يشارك زملاءه انتباه المدرس ورعايته ، وأن يتعاون معهم فى العمل واللعب . سوف يتعرض لحكم الزملاء والمدرسين عليه مما يؤثر على تقديره لذاته تأثيرا عميقا .

٣ — التكيف الخلقى : سوف يكتشف الطفل بعض التعارض بين قيم المنزل وقيم المدرسة ، مما يحتم عليه التوفيق بينهما اذا أراد أن ينعم براحة البال . فقد ينظر الوالدان اليه نظرة اعجاب وتقدير ، وقد يعتبره المدرس غبيا طائشا . أو قد يتحير فى أمره لأن بعض التلاميذ يمارسون أفعالا هى من المحرمات فى أسرته ، أو لأن بعضهم يحتالون للتنصل من مسئولياتهم ، دون أن يكشف أمرهم أحد ، فيتساءل عن قيمة الأمانة . ولا شك فى أن التلميذ يواجه تعقيدات خلقية كثيرة فى الحياة المدرسية ، تعقيدات تفرض عليه وطأة الموازنة والاختيار ، وضرورة التكيف لعواقب كل قرار يتخذه .

وهـكذا نلاحظ — لو دققنا النظر — أن ما يتطلبه المجتمع المدرسى من التلميذ لا يخرج عن المطلبين اللذين سبق أن أوجزناهما فى : التطور من جهة والمثابرة من جهة ثانية . فالمجتمع المدرسى يتطلب من التلميذ أن ينمو ويتطور ، كما يتطلب منه تعلم الثبات والمثابرة .

مطالب التلميذ من المجتمع المدرسى :

يجدر بنا أن نتذكر دائما أن التكيف فى المدرسة يتضمن طرفين : المجتمع المدرسى من جهة وشخصية الطفل النامية من جهة أخرى . واذا كان للمجتمع المدرسى مطالبه فان لشخصية الطفل طبيعتها ومميزاتها . وكما يجب مراعاة نظام المجتمع المدرسى ، يجب كذلك مراعاة قوانين نمو شخصية الطفل ، وطبيعة حاجاته ودوافعه وقدراته ، ونوع الخبرات التى تأثر بها قبل دخوله المدرسة . ولا ينعم التلميذ بصحة نفسية سوية الا اذا أرضيت مقومات شخصيته وتحققت فى نفس الوقت مطالب المجتمع المدرسى . وينشأ سوء التكيف عند ما تتعارض نظم المدرسة مع طبيعة قوانين النمو النفسى ، فيعجز الطفل عن مواجهة هذه النظم بطريقة تتلاءم مع طبيعة نمو شخصيته .

فاذا أردنا بناء المجتمع المدرسى بناء يكفل تحقيق مبادىء الصحة النفسية السوية للتلاميذ ، وجب علينا أولا أن نتعرف على طبيعة النمو النفسى ، وأن نفهم

كيف تتكون شخصية الطفل وكيف تتكامل وتنضج . ثم تتجه بعد ذلك ، ونحن مزودين بالمعرفة والفهم ، الى بناء المدرسة التى ترعى ولا تخنق ، توجه ولا ترغم ، تسعد ولا تشقى .

ولا يتسع المجال هنا لوصف نمو شخصية الطفل منذ الولادة حتى مرحله دخوله المدرسة . وسأكتفى بالقاء الضـــوء على أهم العوامل التى تشكل نمو شخصية الطفل وكيف يظهر أثرها فى تكيفه المدرسى .

العوامل التى تشكل نمو شخصية الطفل :

سوف أتناول بالدراسة النواحى الآتية :

١ — موقف الوالدين وخبرات الطفل فى البيئة المنزلية قبل دخوله المدرسة .

٢ — خواص الطفل الشخصية عند دخوله المدرسة : بنيته ، سماته المزاجية ، قدراته العقلية ، استعداداته الخاصة الخ .

٣ — دور العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى فى نمو الشخصية .

٤ — تكوين الضمير والمثل العليا التى توجه السلوك وتضبطه .

أما منهجى فى العرض فيتلخص فى وصف النمو الطبيعى فى كل ناحية ، ثم كيف يحدث التكيف السليم ، وكيف ينشأ سوء التكيف ، وكيف يؤثر هذا وذاك على تكيف التلميذ فى المدرسة .

١ ــ موقف الوالدين وخبرات الطفولة قبل دخول المدرسة :

ان طفل السادسة الذى يواجه المدرسة لأول مرة ، يحمل معه تاريخا خاصا حافلا بالأحداث . ولا نبالغ اذا قلنا ان الاتجاهات الأساسية لشخصية الطفل تكون قد وضعت خلال السنوات الست التى عاشها بين أسرته . ولعل المدرسة النابهة الحنون تستطيع أن تتفهم بعض هذه الاتجاهات ، اذا هى لاحظت سلوك الطفل ملاحظة دقيقة خلال الأسابيع الأولى من حياته المدرسية .

يولد الطفل مزودا بذخيرة من الحاجات والدوافع الفطرية التى تحفزه الى النشاط من أجل اشباعها . كذلك هو مزود بقدرة واسعة على التعلم . هذان العاملان — الدوافع والقدرة على التعلم — وتفاعلهما مع البيئة المحيطة ، تشكل نقطة البداية فى نموه النفسى . ويحتل الوالدان مركزا رئيسيا فى بيئة الطفل ،

فمعاملتهما له وموقفهما منه من أهم العوامل التى تؤثر فى تكوين شخصيته . ويتجلى ذلك بالنسبة لبعض الميول الفطرية أكثر من غيرها ، نظرا لأنها بطبيعتها تتصادم بالضغوط الاجتماعية التى يتعرض لها الطفل فى الأسرة، من هذه الميول : (١) ميل الطفل الى الاعتماد على الغير . (٢) وميله الى الفردية المطلقة والتحرر من القيود ، (٣) وميوله العدوانية . وسوف نتناول كلا منها ونتبصر فى مشاكل التكيف التى قد تنشأ من عدم نموها نموا صحيحا ، وعدم انسجامها فى وحدة الشخصية المتكاملة .

اعتماد الطفل : يعتمد الرضيع اعتمادا يكاد يكون تاما على الآخرين لتفريج متاعبه وارضاء حاجاته . وباطراد نموه يصبح أقل عجزا ، ويتطلب منه المجتمع ممثلا فى شخص الأم ، أن يضطلع بنصيب أكبر من النشاط لاشباع احتياجاته . وكلما تفتحت قدراته بالتدريج نلاحظ أن اتجاهه نحو خدمة نفسه يحل محل اعتماده على الآخرين .

وبينما توجد دوافع كثيرة تحث الفرد على التحول عن اعتماده الطفلى ، فان العملية مع ذلك ليست يسيرة التنفيذ . ذلك أنها تعنى الانتقال من طريقة سهلة فى اشباع الرغبات الى طريقة أكثر صعوبة . ولكى يتعلم الطفل الطريق الأصعب لا بد أن يكون مجزيا ، بل من الضرورى أن يكون الجزاء الذى يحصل عليه الطفل من الاستقلال النسبى أكبر من ذلك الذى يحصل عليه لو بقى معتمدا على الآخرين. ومن حسن الحظ بالنسبة لنمو الطفل ، فان خدمة الذات مجزية ومرضية فى حد ذاتها . فالطفل يفرح بقدرته اذا استطاع أن يقضى بعض حاجاته . ولكن الاستقلال يتضمن بعض الأعمال الصعبة التى يقتضى تعلمها حافزا اضافيا مثل مدح الوالدين الحنونين للطفل وتشجيعهما له .

وينشأ سوء التكيف المدرسى عندما لا يكون الطفل قد نجح بدرجة معقولة فى التطور من الاعتماد الى الاستقلال النسبى عند دخوله المدرسة . ويمكن أن نصف مثل هذا الطفل بأنه متشبث أو متعلق بميوله التوكلية الطفلية . وقد يرجع ذلك فى بعض الحالات الى عوامل فطرية فى تكوين الطفل تساعد على تثبيت الاعتماد على الغير . الا أن موقف الوالدين واتجاههما يلعب دورا هاما . فهناك اتجاهان متعارضان يمكن أن يسببا تثبيت الميول التوكلية : الأول هو

الافراط فى تدليل الطفل والمبالغة فى حمايته . والثانى هو اهمال الطفل والاعراض عنه والاحباط المستمر لرغباته .

الطفل الذى يذهب الى المدرسة دون أن يكون قد تخلى بدرجة معقولة عن اعتماده الطفلى سوف يواجه صعوبات متعددة فى تكيفه للمجتمع المدرسى . ففى لعبه يتوقع أن يسلبه الآخرون ، وفى عمله يريد أن يساعده المدرس فى كل صغيرة وكبيرة ، وفى علاقاته الاجتماعية يتميز بالسلبية دون المشاركة والتبادل . كل هذا سوف يعرضه لخيبة الأمل والاحباط المستمر لأنه لا يعقل أن يستجيب الزملاء لميوله التواكلية ، كما أن التلميذ الذى يكون عالة على زملائه لا يحوز احترامهم وتقديرهم .

النزوع الى الفردية : بجانب الاعتماد المتناهى على الآخرين ، يكون الطفل فى نفس الوقت ذاتيا الى أقصى الحدود ، متحررا من جميع القيود والأنظمة التى يضاع لها البالغون . الا أن تقدمه فى النمو يحتم عليه أن يتخلى تدريجيا عن انطلاقه وتلقائيته . فبدلا من أن يعمل مايروقه ، فى الوقت الذى يروقه ، وبالكيفية التى تروقه ، عليه أن يتعلم مراعاة الآخرين ، وأن يعمل وفقا لبرنامج معين بحيث تتسق أفعاله مع أفعال باقى أعضاء الأسرة . هذه هى عملية التكيف الاجتماعى ، ومعناها بالنسبة للطفل التخلى تدريجيا عن امتيازات الطفولة والتلقائية الفردية .

وتبدأ عملية التطبع الاجتماعى خلال السنة الثانية والثالثة من عمر الطفل ، فيبذل الوالدان الجهود المتواصلة لحملة على ذلك . ويستجيب الطفل للضغوط الواقعة عليه ، فيتعلم أن يغسل يديه وأسنانه ، وأن يرتب ممتلكاته ، وأن يشارك الأطفال الآخرين فى لعبه ، وأن يتحكم فى عمليات التبول والتبرز ، الخ .

ولكى يتطور الطفل تطورا سليما نحو التطبع الاجتماعى ، يجب أن يراعى الوالدان توقيت مطالبهم توقيتا دقيقا بالنسبة لنمو الطفل ، بحيث يكون فى وسعه القيام بما يطلب منه . فمن الحمق أن نتوقع نجاح التدريب على الاخراج المعوى قبل أن ينضج الجهاز العصبى والعضلى النضج الكافى الذى يؤدى الى التحكم فى العضلات الشرجية العاصرة . كذلك اذا تذكر الوالدان أن تعلم القواعد الاجتماعية عملية بطيئة ، لما ضجرا لأخطاء الطفل أو اتكاسه فى أثناء تعلمه . الا أن العامل الجوهرى فى اقبال الطفل على تعلم التطبع الاجتماعى هو موقف

الوالدين منه . عندما يكافئان نجاحه بالاستحسان والاحترام الصادق ، ويغدقان عليه المحبة والحنان عن طيب خاطر فى جميع الأوقات ، سوف يشعر الطفل أن الامتثال لرغباتهما صفقة رابحة ، فيتقبل القيود حبا فى والديه . ومن هذه المرحلة الأولية فى التكيف الاجتماعى سوف يتقدم فى يسر الى المرحلة التالية حيث يدرك المنافع الحقيقية التى تعود عليه من ملاءمة سلوكه مع سلوك الآخرين، ومن تعاونه معهم فى شتى أنواع النشاط . فمثلا قد يرضى الطفل أن يشاركه الأطفال لعبه استجابة لنصيحة والديه ومن أجل حبه لهما ، ولكنه سوف يكتشف عاجلا أو آجلا أن استمتاعه باللعب الجماعى يفوق استمتاعه باللعب الفردى .

وينشأ سوء التكيف عندما يتشبث الطفل بميوله الفردية المطلقة . وينتج ذلك من اتباع الوالدين لأحد اتجاهين : الأول هو الايغال فى التسامح واللين حيث يفتقر الوالدان الى الحزم فى طلب الانتظام من الطفل . وعواقب هذا التهاون هو تأجيل مسألة التطبع الاجتماعى ، ومضاعفة أعباء المدرسة ، حيث لا يمكن أن نتوقع من المدرسين والزملاء أن يتصفوا بالصبر الجميل ازاء طفل فى السادسة أو السابعة يسلك سلوك طفل فى الثالثة ، فيرفض التقيد بالقواعد الأولية للحياة المدرسية ، ويستهتر بحقوق الآخرين .

أما الاتجاه الثانى الذى يؤدى الى تثبيت الميول الذاتية المطلقة فهو تدريب الطفل على التطبع الاجتماعى فى الأسرة بالاكراه والاجبار ، والتهديد والتنكيل والاذلال . ان استخدام هذه الوسائل قد يضطر الطفل الى الانصياع لأوامر والديه ، ولكن طاعته مشوبة بالنقمة والحقد ، وكلما سنحت له الفرصة ارتد الى عمل مايروقه بعيدا عن الأنظار . واذا تسممت منابع السلوك الاجتماعى والمشاركة بهذه الكيفية فى مراحل النمو الأولى ، تعذر على الطفل أن يتقدم الى المرحلة التى يكتشف فيها فائدة التعاون الاجتماعى وما فيه من خير للجميع .

مما تقدم يمكن أن نتصور المشاكل التى سوف يقع فيها التلميذ الذى لم يتدرب فى أسرته تدريبا سليما على الالتزام بقواعد الحياة الاجتماعية . مثل هذا التلميذ قد يرفض الذهاب الى المدرسة لأتفه العلل ، أو يتراخى فى تأدية واجباته المدرسية ، أو يتحدى نظام المدرسة . سوف يصعب عليه الاندماج مع الجماعة ، ويعجز عن الأخذ والعطاء فى نشاطه الاجتماعى ، ولا يستمتع بحقوق الزمالة والتزاماتها .

الميول العدوانية : توصلت الأبحاث العلمية المستفيضة الى أن العدوان هو استجابة للاحباط ، أى أن الاحباط هو الذى يستثير العدوان . ويتولد الاحباط من احداث خارجية تعوق الشخص من اشباع حاجاته ، أو تقيد حريته ونشاطه ، او تؤذى جسمه أو تجرح اعتباره لذاته . اذا أحبط الشخص لأى سبب من هذه الأسباب استولى عليه الغضب واندفع الى تدمير العوائق المحبطة . وان لم يستطع التعبير عن عدوانه وكراهيته بصورتها الطبيعية الصريحة ، فان هذه الميول تمتاز بقدرتها على تغيير أشكالها وأهدافها ، كما يمكن تأجيلها أو كبتها ، ثم لا تلبث أن تظهر من جديد فى صور مقنعة متعددة . فقد يتكرر احباط الطفل فى الأسرة مثلا ، ثم يذهب الى المدرسة فيصب غضبه هناك : يكسر الأشياء ويتلف الأدوات ويمزق الملابس ويهاجم الزملاء ويضربهم ، لا لشىء حدث فى المدرسة وانما بسبب الاحباط المزمن فى المنزل .

وسواء فى الأسرة أو فى المدرسة أو فى المجتمع الأكبر ، فان الميول العدوانية تزعجنا ، وآثارها المدمرة تحملنا على بذل جهود جبارة لتقييدها وقمعها وحماية المجتمع من اخطارها . الا أن مبادىء الصحة النفسية ترشدنا الى ضرورة تصريفها وتوجيهها . وذلك أولا بفهم طبيعتها فهما صحيحا . فكما سبق أن أشرت ، أن الطفل لا يغضب حبا فى الغضب ، ولا يدمر حبا فى التدمير ، بل هو يدمر لازالة العوائق المحبطة . وثانى ما ينبغى أن نفهمه هو أنه مادام الاحباط فى حياتنا محتم الوقوع ، فلا مناص اذن من استثارة العدوان والغضب . ولتوضيح ذلك نتبصر فى حياة الطفل فى الأسرة حيث تتعقد العلاقات الانسانية باختلاط الحب بالكره . فالطفل يعتمد على والديه ويحبهم ، والوالدان يشبعان حاجاته ويغدقان عليه المحبة ، ولكنهما فى نفس الوقت يفرضان عليه مطالب تستثير غضبه وحفيظته . فالأم تمنح الطعام والحب والعناية ، ولكنها مسئولة أيضا عن الفطام والتدريب على عمليات الاخراج وعلى التطبع الاجتماعى ، فضلا عن أنها تحب باقى أعضاء الأسرة وتعنى بهم مما يستثير غيرته وحقده . أخوته هم حلفاؤه وزملاء لعبه ، ولكنهم فى نفس الوقت منافسوه فى علاقته بوالديه . على الطفل أن يجاهد للتغلب على هذه الانفعالات العدوانية التى تجتاحه . عليه أن يتعلم مهادنة منافسيه ، وأن يكتشف المزايا التى يمكن أن يجنيها من التضامن معهم فى سلام ،

كيف اذن يحقق الطفل ذلك ؟ يتطلب التوجيه السليم للميول العدوانية التدرب على التنفيس المعتدل والضبط المرن . ونقصد بالتنفيس مواجهة الغضب والكراهية والتسليم بوجودها واخراجها الى النور . أما الضبط فمعناه التحكم فى الثورة والهيجان بحيث يتسنى للشخص التفرغ لازالة أسباب الغضب بكفاية لا يمكن توفرها فى حالة الهياج. هذا النظام المرن من عادات التنفيس والضبط يمكن أن يكتسبه الطفل اذا نشأ فى جو عائلى يتسم بالتسامح والحزم فى نفس الوقت . أما التسامح فمعناه التسليم بالاحباط المحتوم الذى ينتاب الطفل ، وتقبل مظاهر الغضب والكراهية التى يبديها أحيانا ومواجهتها بصراحة . وأما الحزم فيعنى الأخذ بيد الطفل لتدريبه على ضبط ثورته ، ومعاونته على تعلم الوسائل التى يزيل بها أسباب احباطه . فمثلا قد يشعر الطفل بالغيرة من أخيه الرضيع وقد يعبر عن عدائه بشتى الطرق . وللوالدين الحق فى حماية الرضيع من الأذى ، ولكن لا يجوز لهما تأنيب الطفل لغيرته ، واشعاره بالذنب ، وتهديده بحرمانه من الحب اذا هو عبر عن غيرته . فقد يكبت الغيرة لينال رضى الوالدين ، ولكن الكبت يؤدى الى ظهور العداء فى صور أخرى ملتوية مقنعة ؛ ويسبب للطفل مشاكل متنوعة مثل الفزع الليلى والعناد والتبول الليلى .. الخ .. ويمكن معاونة الطفل على التغلب على الغيرة بأن يقدر الوالدان موقف الطفل ، وأن يؤكدا له بالقول والعمل ودون ملل أنهما لا يزالان يحبانه ، وأن يهيئا له الفرص لكى يقوم بدور الأخ الأكبر فى خدمة الرضيع ، وأن يمتدحاه على معاونته . وبالتدريج سوف يشعر الطفل أنه أقوى من الرضيع وأنه يستمتع باللعب معه .

ويرجع الفشل فى تكييف الميول العدوانية اما الى تهاون الوالدين فى ضبطها أو الى التشدد الصارم فى قمعها . أما التهاون فى وضع الحدود والضوابط فيؤدى الى تمادى الطفل فى الغضب والتهور والاعتداء على الآخرين بلا حساب . ولا شك فى أن مثل هذا الطفل يعجز عن الاندماج فى المجتمع المدرسى . اما القمع المتناهى الذى يمنع الطفل من التعبير عن غيظه ، والذى يرغمه على الادعاء بأنه لا يشعر بانفعالات الكراهية وان الحب فقط هو الذى يسود فى الأسرة — ان مثل هذا الكبت يقضى على الطفل بالتوتر والقلق والصراع وكلها تحول دون تكيفه . ذلك أن كبت الغضب يعنى عدم تصفية المضايقات كلما هبت ، يعنى تراكم الحقد والحفيظة وتثبيت الغيرة والتشكك ، وهذه جميعها سوف تسمم علاقات الطفل

الوجدانية فيما بعد فى المدرسة ، وتقف حائلا فى سبيل المحبة والصداقة والتضامن بين الزملاء ، وتضع التلميذ فى موقف المغلوب على أمره الذى لا يستطيع الدفاع عن حقوقه اذا انتهكت . وفضلا عن ذلك فان غليان الغضب المضمر قد يصل فجأة الى درجة الانفجار ، فتصدر عن التلميذ أعمال عدوانية فجائية عنيفة دون سبب ظاهر معقول . فان العدوان اذا لجم عنوة اما أن يحطم توازن الشخص نفسه ، أو أن ينطلق فى أشكال خطيرة على الأشخاص والأشياء الخارجية .

٢ ـ خواص الطفل الشخصية واثرها فى تكيفه المدرسى

ان صفات الطفل الشخصية ، بنيته، سماته المزاجية، قدرته العقلية،استعداداته الخاصة ، هذه جميعها تؤثر تأثيرا عميقا على تكيفه فى المدرسة . هى تؤثر على تقدير الآخرين له ، وبالتالى على تقديره لنفسه . وفى مستهل هذا البحث ذكرنا أن معرفة الشخص لنفسه معرفة صحيحة وتقديرها حق قدرها من الأهداف الأساسية للصحة النفسية السوية .

أهمية الزملاء : اذا كان التشجيع أو التثبيط الذى يمنحه الوالدان والأخوة لمجهودات الطفل ، يلعب دورا حيويا فى تكوين اعتباره لذاته ، فان المجال الحاسم لاثبات الجدارة الشخصية هو مجال الزملاء فى المدرسة . ينتقل الطفل من جو المنزل المتهافت الى المجتمع المدرسى المشبع بالتنافس ، ويتعين عليه عندئذ أن يخضع لمعايير جد مختلفة عن معايير الأسرة،وان هذا لجهاد قاس بالنسبة لكثير من الأطفال. عليهم أن يكونوا جديرين بالاحترام، عليهم أن يظهروا ما لديهم من أقدام وشجاعة ومهارة وتودد ، وأن يقارنوا أنفسهم مقارنة مباشرة بأطفال آخرين من نفس سنهم ، واذا فشلوا فجزاؤهم التحقير والسخرية والنبذ من المجموعة .

يتطلب المجتمع المدرسى من التلميذ اذن أن يثبت جدارته الشخصية ، والا فعليه أن يعانى آلام الشعور بالنقص . وهذا يثير مسألة الفروق الفردية فى الجدارة .

الفروق الفردية فى البنية الجسمية : تلعب الصفات الجسمية دورا مزدوجا فى نمو الشخصية فهى أساس الجدارة المبنية على القوة والحيوية والجرأة الرياضية من جهة ، كما أنها موضوع الأحكام الاجتماعية المتعلقة بالجمال والجاذبية الشخصية من جهة أخرى . ولا شك فى أن هناك فروقا كبيرة بين الأفراد فى الخواص

التركيبية للجسم ، ولا شك فى أن الجسم ، سواء من جهة القوة والمهارة أو من ناحية الجمال والجاذبية ، يحتل مركزا هاما فى نمو اعتبار الذات ولا سيما بين السنة الخامسة والسنة العشرين من العمر . وأى انحراف عن الشكل الطبيعى قد يولد شعورا حادا بالنقص ، اللهم الا اذا كان الى جانب الامتياز من حيث القدرة الرياضية عند البنين أو من حيث الجمال عند البنات .

ومن المشاكل التى تؤثر — ولو بطريقة مختلفة — على كلا البنين والبنات ، مسألة تقدم موعد النضوج الجنسى أو تأخره عن المتوسط . فالبنات اللاتى يسبقن زميلاتهن فى النضوج الجنسى ، والأولاد الذين يتأخرون فى النضج الجنسى عن زملائهم المراهقين ، قد يصعب عليهم التكيف والاندماج فى المجموعة ، فيتألمون لعدم تقبل الجماعة لهم .

الفروق الفردية فى الصفات المزاجية : المقصود بالمزاج فى علم النفس . (١) المميزات الوجدانية للفرد مثل قوة خبراته الانفعالية وعمقها وسرعة استثارتها وسرعة تغيرها . (٢) الأسس الفسيولوجية المفترضة لمثل هذه الخبرات مثل الفروق الفردية فى افراز الغدد الصماء . (٣) الخواص الحركية للفرد مثل طاقة استجاباته الحركية وضبطها وحركاته التعبيرية .

والصفات المزاجية تبدو بوضوح بين تلاميذ المدارس فهناك الطفل النشيط المتدفق الحيوية الذى يقدم على القيادة فى جميع المشاريع . وهناك الطفل الودود الذى يقبل فى يسر على الزمالة والصداقة . وهناك الطفل الخجول المشدود الحذر الحساس الذى يبقى على هامش الأحداث .

ومن المعروف أن هذه الميول المزاجية تتأثر الى حد بعيد بالخبرة الشخصية وموقف الوالدين بالنسبة للطفل ، ولكن العوامل الوراثية قد يكون لها وزنها أيضا فى تكوينها . والأمر الذى يهمنا فى مجال الصحة النفسية هو أن تكيف الطفل فى المدرسة سوف يتحقق بأسلوب يختلف باختلاف صفاته المزاجية . كما أن سوء التكيف سوف يحدث اذا أرغم التلميذ على اتباع أسلوب لا يتلاءم مع تكوينه المزاجى . كأن يجبر الطفل النشيط المتدفق الحيوية على الجلوس الساعات الطوال منكبا على القراءة . أو أن يدفع الطفل الهادىء الحذر المتأمل الى أن يكون

بطلا فى الألعاب الرياضية . ان الأعمال التى لا تستند الى بعض الميول الفطرية تجلب السـأم والصراع . ومن حسن الحظ أن معظم الأمزجة تكون متوازنة التكوين مما يسهل مهمة التوجيه التربوى الى حد ما .

الفروق الفردية فى القدرات العقلية : معظم تعاريف الذكاء العام تؤكد الصلة بينه وبين مفهوم التكيف الذى أوضحناه فى مستهل هذا البحث . فالذكاء متصل بالقدرة على التعلم وحل المشكلات والحكم والتفكير . واذا تصورنا أن عملية التكيف تتضمن ناحيتين : احداهما معرفية والأخرى دافعية وجدانية ، فيمكن اعتبار الذكاء الناحية المعرفية من عملية التكيف الشخصى .

من الواضح أن الذكاء العالى يساعد على التكيف ، وأن الذكاء المنخفض يعوقه . فاذا ثبت أن نسبة ذكاء طفل دون ٥٠ ، فالمرجح أنه يعجز عن التكيف للعالم المحيط به . ولا يستطيع مسايرة المدارس العادية ، ويحتاج الى الوصاية فى مؤسسات خاصة مناسبة . أما الأطفال الذين تتراوح نسبة ذكائهم بين ٥٠،٩٠ فانهم يقسمون عادة الى ثلاث فئات وفقا لدرجة نقصهم العقلى . ومشاكل التكيف المدرسى بالنسبة لهؤلاء أكثر تعقيدا . ذلك أن نقصهم العقلى قد يفوت على الملاحظة السطحية ، وقد يتوقع المدرس منهم أن ينجزوا أعمالا هى فى الواقع أعلى من مستوى قدرتهم العقلية ..واذا تبين للمسئولين فى آخر الأمر ان طاقتهم العقلية محدودة ، فانهم يبقون مع ذلك فى الفصول العادية ، ويعيدون السنوات الدراسة ، ويوصمون بالبلادة وبأنهم ميئوس منهم . وهذا بالطبع يدعم شعورهم بالنقص ويعرقل تكيفهم ، فاما أن يجنحوا الى أعمال غير مشروعة، واما أن ينعزلوا ويغرقوا فى أحلام اليقظة . ويمكن علاج هـذا الموقف بانشاء فصـول خاصة أو مدارس خاصة ، يراعى فيها أن تكون طريقة التدريس والمناهج ملائمة لعقليتهم المحدودة . كما ينبغى تدريبهم على أعمال بسيطة نافعة يكسبون بها عيشهم .

أما الذكاء العالى فهو بوجه عام يعين صاحبه على التكيف السوى ، ولكنه بالطبع لا يمنع سوء التكيف . ذلك أن النجاح فى التكيف المدرسى لا يتطلب قدرا معقولا من الذكاء فحسب ، بل يتوقف أيضا على نوع الدوافع التى تحفز التلميذ نحو التعلم وموقفه من المجتمع المدرسى . الا أن اتجاه الأبحاث السائدة لا يزال يرجح النتائج التى وصل اليها ترمان من أبحاثه المستفيضه عام ١٩٢٥ ، وهى أن الأطفال الموهوبين (نسبة ذكاء أعلى من ١٤٠) يتفوقون على المتوسطين

من نفس العمر الزمنى ، فى صحتهم وبنيتهم وسعة اهتماماتهم وتكيفهم الاجتماعى واتزانهم الوجدانى ، وانهم يحتفظون بهذه المميزات بتقدم عمرهم .

الا أنه قد تنشأ مشاكل خاصة بهؤلاء القلة النابغين الذين يبلغ تفوقهم العقلى درجة قصوى يستحيل معها اتصالهم بمن حولهم من الزملاء والمدرسين ، فيؤدى ذلك الى العزلة الاجتماعية كما بينت ليتا هلنجورث فى دراستها الواسعة لأطفال بلغت نسبة ذكائهم ١٨٠ فأكثر .

وبجانب الفروق التى وصفناها فى الذكاء العام ، فان الفروق الفردية فى الاستعدادات الخاصة والمواهب تحتل أهمية عملية كبيرة فى تكامل الشخصية بوجه عام ، والتكيف التربوى والمهنى بوجه خاص .

قد يتفوق التلميذ فى الألعاب الرياضية،أو فى الفنون التطبيقية،أو فى التحصيل المدرسى ، أو فى الموسيقى ، أو فى الفنون الجميلة ، أو فى سياسة الجماعات ، أو فى الفكاهة والتسلية أو فى غيرها . وأى نوع من أنواع القدرات الخاصة العالية يعتبر عونا كبيرا على التكيف السوى ، ويمكن استخدامه محورا لبناء اعتبار الذات وتنظيم ميول الشخصية وتوحيدها . ذلك أن الأعمال التى يجيدها التلميذ يؤديها وهو مغتبط سعيد بصرف النظر عما تجلبه من التقدير الاجتماعى . لاشك فى أن السخرية قد تخمد الاستعداد الجيد وأن المدح قد ينمى الاستعداد المتوسط . ولكن السلوك الذى يستند الى موهبة يكون سلوكا مرضيا فى حد ذاته .

وليس ضروريا أن يملك التلميذ استعدادا خارقا لكى ينمى على أساسه اهتماما معينا . يكفى أن تكون لديه قدرة متوسطة لكى يكون على أساسها اهتماما خاصا . وقد ينشأ الاهتمام بطرق لا تتصل بالقدرة ، كأن يقلد صديقا يعجب به ، أو يلتقط الفكرة من كتاب أو من أحد أفراد الأسرة . ومهما كان مصدر الاهتمام الأصلى فانه ينمو ويتشعب ويؤدى الى مجموعة من المهارات والكفايات التى تلعب دورا حيويا فى توحيد الشخصية وتكاملها . خذ مثلا ولدا يشرع فى الاهتمام بالراديو ، فيشترى أجهزة ويصنعها ويتبادلها ، ويقضى وقته فى فكها وتركيبها والتجريب عليها . ويحصل بذلك على معلومات كثيرة ومهارات متصلة بموضوع اهتمامه ، وينتهى الأمر باكتسابه كفاية حقيقية لا يمكن أن نفرق بينها وبين الاهتمام والميل . ومتى اكتشف التلميذ ان ممارسة هذا العمل يجلب

له الرضى النفسى والتقدير الاجتماعى ، أخذ يوجه شخصيته على هذا الأساس . وينتقى الجماعات والاصدقاء التى تشاركه اهتمامه والتى يعتز برأيها وتقديرها .

مركب النقص :

ان مفهوم مركب النقص الذى اهتدى اليه آدلر مفهوم قيم ، ينبغى الا تتلفه باستعماله دون تمييز كما يحدث فى بعض الصحف اليومية . كل شخص ناقص فى نواح كثيرة ، ومعظم الناس لا يعبأون بذلك ، فاعتبارهم لذاتهم يتوقف على قدر محدود فقط من الكفايات . ولا ضير من العجز فى مجالات متعددة اذا كنا نعوض ذلك بالنجاح فى مجال واحد محدد . ذلك أن الصحة النفسية السعيدة تتحقق بالحصول على بعض النجاح فى أى مجال من مجالات الحياة . والشخصية المتكاملة التى تستمتع بقدر معقول من التقدير والاعتبار فى أية ناحية لا تصاب بالشعور بالنقص .

أما اذا كان الشخص لا يترك مناسبة تمر دون أن يقارن نفسه بالآخرين ، ودون أن يتحسر على عجزه عن القيام بما يتقنونه ، عندئذ فقط يوجد مبرر للقول بأنه مصاب بمركب نقص . ان مايقلق راحة هذا الشخص فى الواقع ، هو أنه لايجد فى نفسه قدرة كافية من أى نوع لكى يكون منهـا نواة لاعتبار ذاته ويرضى نفسه . ويتكون مركب النقص عندما تعوق الصعوبات الذاتية أو الخارجية نمو نمط من الجدارة والكفاية يكفل مساندة اعتبار الذات . ومن العوائق الخارجية عدم تقدير المجتمع لنوع القدرات التى يتفوق فيها الشخص . أما العوائق الذاتية فأهمها افتقار الشخص الى القدرة حقا . وبجانب هـذه العوائق العامة توجد مواقف خاصة قد تسد الطريق أمام نمو الكفاية واعتبار الذات على الرغم من توفر القدرات الجيدة فى الطفل . ومن أمثلة ذلك أن يتنافس أخوان متقاربان فى السن على التفوق فى نفس الميدان الذى يقدره الوالدان دون سواه .

وتستطيع المدرسة أن تساعد على منع تكوين مركب النقص عند التلاميذ أو التخفيف منه ، باتخاذ جميع التدابير المناسبة لتشجيع نمو الاهتمامات والكفايات والهوايات ، بحيث يتذوق كل تلميذ معنى النجاح فى ناحية من نواحى الأعمال ، ويحظى بالتقدير الاجتماعى . كما ينبغى التقليل من أهمية المنافسة ، وأن تنظم المنافسة بحيث يتنافس كل تلميذ مع نفسه ، وألا يكون الحافز لبذل المجهود هو الرغبة فى هزيمة شخص آخر .

٣ ـ التفاعل الاجتماعى ودوره فى نمو الشخصية

لا ينتهى أثر التفاعل مع الزملاء عند الأحكام التى يصدرونها والتقدير الذى يمنحونه بل ان عضوية الجماعات تؤثر تأثيرا أعمق فى تشكيل الشخصية وفى تنمية الوعى الاجتماعى كما سنبين فيما يلى :

تأثير عضوية الجماعة على الفرد :

بانتقال طفل السادسة من الأسرة الى المدرسة ، ينضم الى مجموعة من الزملاء الذين يتوقعون منه أن يظهر كفاءته ، وأن يبرهن على أنه جدير بالاحترام . ويسعى الطفل مع أقرانه الى ابتكار ألعاب أكثر جاذبية ، ومغامرات أكثر اثارة من تلك التى اعتاد عليها فى المنزل . كذلك هو يحاول أن يكتشف مكانته بين زملائه ، والأدوار التى يتعين عليه أن يقوم بها فى الجماعة . وبحلول مرحلة المراهقة (١٢ — ١٨ سنة) تصبح وظائف المجموعة التى ينتمى اليها المراهق أكثر تعقيدا وأعظم أهمية . اذ تقوم مجموعة الرفاق بمهمة التأييد والتعضيد التى كانت تنفرد بها الأسرة حتى الآن . وتحل عضوية الجماعة محل الارتباطات العائلية . وهذا هو سر اعتماد المراهق اعتمادا بالغا على تقدير أنداده واستحسانهم .

وسواء أكان الناشىء طفلا أو مراهقا ، فان حياته تغنى وتزدهر عندما يصبح عضوا فى مجموعة الفصل أو الشلة أو فرقة الكشافة أو غيرها . فقوته تزداد : لأن المجموعة تستطيع انجاز أعمال كثيرة ومقاومة ضغوط عديدة يعجز هو وحده عن مواجهتها . وشجاعته تزداد : لأنه يشارك الجماعة فى مسئولياتها ويحظى بتعضيدها . تصبح أهدافه مجسمة وشعوره بقيمته الشخصية مدعما فى اطار أهداف المجموعة وقيمها . يتبادل المودة والمساندة مع أعضاء مجموعته عن طيب خاطر ، وفى أوقات الشدة يتلهف الى مساعدتهم وتقبل العون منهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان عضوية الجماعات تفرض على الناشىء قيودا معينة . لم يعد فى امكانه أن ينطلق كما يروق له . فقد تغمر تلقائيته لأن المجموعة تتفق على عمل شىء آخر بطريقة أخرى . فالمجموعة تحدد له عددا من الأدوار الممكنة . وتساعد على اختيار تلك التى تلائمه أكثر من غيرها . كما تزوده بمقياس من المعايير الخلقية ، وتوضح له عن طريق استحسانها أو استنكارها أنواع السلوك التى تعتبرها الجماعة صوابا أو خطأ ، خيرا أو شرا ، مخلصة

أو خائنة . هذه المعايير وتلك الأدوار هى بمثابة نظام اجتماعى أو دستور يجد الناشىء مكانه فيه كعضو من أعضاء الجماعة . فاذا جلبت له العضوية ما يرتضيه من سعادة وازدهار ، اندمج فى الجماعة وتقبل قيود دستورها عن طيب خاطر وتعلم أن يأخذ ويعطى ، واستيقظ فيه الوعى الاجتماعى .

ولا تقتصر أهمية الجماعات على أثرها التربوى الذى شرحناه آنفا ، بل ان مشاركة الجماعة جزء جوهرى من عملية التكيف ، ووسيلة ضرورية لمواصلة التكيف واستمراره ، ذلك انها تظل مصدرا دائما للصداقة والتقدير والمساندة . وكما أن الشخص الصحيح المعافى يحتاج الى تناول الطعام يوميا وبانتظام ، فكذلك الشخصية السوية تحتاج الى مواصلة الاشتراك فى عضوية الجماعات لكى تظل مستمتعة بمزاياها .

سوء التكيف وعضوية الجماعات : يمكن التمييز بين نوعين من احتمالات سوء التكيف . أولا : عدم الاندماج فى الجماعات ، أو اندماج ضعيف يحرم الشخص من مزاياها ومن ازدهار شخصيته . ثانيا : المبالغة فى الاندماج فى الجماعات بحيث يتلون الشخص بلون كل جماعة يشترك فى عضويتها على حساب كيانه الشخصى ونمطه الخاص .

عدم الاندماج فى الجماعة : تتضافر قوى عديدة لمنع الناشئين من تكوين علاقات اجتماعية سليمة . فقد تعوقهم بعض الصفات المزاجية الأساسية فى شخصيتهم : كأن يكون التلميذ خجولا مشدودا يرهب كدمات الزملاء . أو كأن يحول عنفه الطبيعى المتدفق دون تقبله بسهولة فى المجموعة . وقد يكون افراط الوالدين فى حمايته بالمنزل عائقا دون اندماجه فى الجماعة المدرسية . فالناشىء الذى اعتاد الصياح أو العدوان لينال رغباته قد يتعذر عليه الأخذ والعطاء مع أعضاء المجموعة الذين سوف ينبذونه بدورهم . وربما نشأت الصعوبات من المجموعة ذاتها ، فيلقى التلميذ منها الأعراض لأنه من طبقة اجتماعية مختلفة أو من دين مختلف عن أغلبية الجماعة . وقد ترجع العراقيل الى ظروف خارجية كأن ينتقل التلميذ كثيرا من مدرسة الى أخرى مما يجعله يشعر أنه غريب على الجماعة ويصعب عليه أن يشق طريقه اليها .

كيف يمكن أن يواجه التلميذ هذه الصعوبات ؟ قد يحل المشكلة باحدى الطرق الآتية :

(أ) ان يسعى الى تكوين جماعة صغيرة خاصة ، متجانسة من حيث اتجاهاتها واهتماماتها . وهذه محاولة سليمة .

(ب) أن يظل منفردا منعزلا ، يكتفى بالأعمال التى يستطيع أن يقوم بهـا وحده ، محروما من أنس الزمالة وتعاونها ، يعوض فى الأحلام افتقاره الى تقدير الذات وازدهارها ، مترددا فى فهم دوره ومكانته فى الهيئة الاجتماعية . مثل هذا الناشىء يتعذر عليه الاستقلال من سند الأسرة عند المراهقة ما دام لا يحظى بتعضيد جماعة الانداد . واذا لم يسعفه الحظ خلال هـذه الفترة بتنمية مواهب خارقة تعيده الى الاتصال بالزملاء من جديد ، فسوف يتزايد شعوره بالعزلة والتفاهة .

(جـ) اما الاتجاه الثـالث فيصطبغ بالثورة والتمرد . بدلا من أن يعترف الناشىء بأن ميوله الاجتماعية محبطة، يتخذ من الجماعة موقف الازدراء، وينكر فكرة العضوية فيها ويصمها بالغباء ، ويضفى على نفسه أهمية الشخص الذى يستطيع تحقيق عظائم الأمور اذا سلم منعرقلة الغوغاء. واذا كان من ذوى المواهب الخارقة فعلا ، فقد يستطيع أن يحقق شيئا . والا فمصيره فى أغلب الأحيان هو الاغراق فى العزلة والتبرم المرير ،

الافراط فى الاندماج : على الرغم من أن عضوية الجماعة تضفى على الشخص منافع عديدة الا أن المغالاة فى الاندماج قد تؤدى الى مشاكل فى التكيف النفسى. فالشخص الأنيس الودود الذى يلتحق بشتى الجماعات دون تمييز، لا يلبث أن يجد نفسه فى مأزق بسبب تناقض مبادئها وتصارع قيمها . عليه أن يلبى مطالب كل جماعة وهو معها . وهذا تكيف ، ولكنه تكيف على حساب تكامل شخصيته وتماسكها . وقد تتفاقم الأزمة عندما تصر كل جماعة على الانفراد بولائه لها دون سواها ، فيشعر الشخص بالحيرة والضياع ، وينتابه التذمر والاستياء . ويستطيع أن يستعيد اطمئنانه وصحته النفسية بأن يعيد النظر فى علاقاته الاجتماعية ، وأن يفحص بأمانة اتجاهاته ودوافعه وقدراته،وان يستعرض مطالب الجماعات المتعددة،

وأن يزن القيم التى تستهدفها ، وأن يختار من بينها الجماعة التى تتلاءم أهدافها مع شخصيته الحقيقية . وبذلك يعود الى اكتشاف معالم نفسه التى كانت قد انطمست من جراء المغالاة فى الاندماج الاجتماعى ، ويسعى الى استخدام شخصيته لتطوير الجماعة وتقدمها ، مع المحافظة على التوازن الدقيق بين تأثيره على الجماعة وتأثره بها . وهذه عملية دقيقة حاذقة يحتاج فيها الناشئون الى توجيه حصيف من المدرسين والمدرسات المؤهلين فى الارشاد النفسى .

٤ ـ الضمير والمثل العليا واثرها فى توجيه السلوك

من المعروف أن الدوافع التى تحفزنا لانجاز معظم أعمالنا هى تطلعنا الى الحصول على المكافأة المباشرة أو المنفعة الشخصية أو التوافق مع أعضاء المجموعة التى ننتمى اليها . ولكن من الملاحظ أيضا ، أننا ، فى كثير من المواقف ، نطرح هذه الاعتبارات جانبا فى صالح مبادىء نعتقد أنها تخدم المصلحة الانسانية العامة. فبعض الأعمال الجليلة التى ينجزها الانسان ، يدفعه اليها ضميره ومثله العليا .

الا أن مفهوم الضمير قد تعرض فى السنوات الأخيرة لهجوم شديد من قبل بعض العلماء . اذ اكتشفوا أن الضمير أحد أسباب الاضطرابات النفسية وانحرافات الشخصية . ومما يدعو الى الارتباك والبلبلة أن يكون الضمير أحد أسباب اضطرابات الشخصية ، وأن يكون فى نفس الوقت الدافع الى الأعمال الانسانية النبيلة . ولا ضير من أن نبدأ من هذا التناقض ما دام ينبهنا الى تحديد المعانى المختلفة التى نربطها بمفهوم الضمير . وأول ما ينبغى توضيحه أن للضمير والمثل العليا تاريخا فى حياة الفرد . فالضمير ينمو ويتطور — شأنه فى ذلك شأن أية ناحية من النواحى الشخصية . وقد ينحرف الضمير فى نموه فيدخل فى تكوين الاضطرابات النفسية ، كتجارة الحروب ، والاستبداد والقسوة المقنعة بقناع البر والتقوى . كما يمكن أن ينمو الضمير بطرق تجعل الأشخاص يكرسون مجهوداتهم لتقدم الحياة الانسانية . وتنشأ معظم المتاعب من أن الضمير ينبت فى الطفولة ويبدأ تكوينه قبل أن يتمكن الطفل من فهم مغزاه .

مفهوم الذات العليا : يرى فرويد أن الطفل لا يولد بما يسمى الضمير . فالأطفال الصغار مخلوقات لا خلقية ، أى لا يملكون قوى نفسية تصدهم عن ارضاء نزعاتهم الفطرية.وتقوم قوى خارجية — هى سلطة الوالدين — بدور الصد والمنع

فى بداية حيـاة الطفل . ويـسيطر الوالدان على الطفل عن طريق بذل المحبة أو التهديد بالعقاب ، والعقاب عند الطفل هو حرمانه من المحبة والرعاية . هذه هى المرحلة الأولى فى نمو الطفل الخلقى . ثم تأتى مرحلة ثانية حيث تبدأ الذات العليا تتكون ، وذلك بأن يتمثل الطفل القيود الخارجية ، ويستبطن قواعد التحريم والحظر التى يوجهها الوالدان اليه . وعملية الاستبطان هذه هى فى الواقع عملية تعلم ، يتعلم الطفل أن يقمع السلوك الذى ارتبط بالعقاب ، وأن يقوى السلوك الذى ارتبط بالمكافأة . والذات العليـا لا تشتمل على التحريمـات والنواهى فحسب ، ولكنها تتضمن أيضا مثلا عليـا مثل النظافة والاعتمـاد على النفس والكمال .. الخ . ثم يتقدم تكوينها فيستوعب الاتجاهات والميول التى يتخذها الطفل بالجملة من والديه خلال سنوات طفولته . وهذه الذات العليا تظل النسخة الطفلية للضمير الذى يعتنقه الفرد فيما بعد كلما تقدم نضجه .

الا أن الذات العليا لا تكون دائما نسخة طبق الأصل لاتجاهات الوالدين . ففى بعض الظروف يختلط الأمر على الطفل بسبب طغيان وجداناته والحاحها فيستبطن صورة مشوهة لدستور الوالدين ، كما أنه يسىء فهم المعايير الخلقية . وهنا يجدر بنا أن نتمهل ، كما يجدر بالمربين أن يتبصروا معنا فى الاسئلة الآتية : كيف يفهم الطفل القواعد الخلقية والمثل العليا ؟ كيف تدرك عقلية لم تنضج بعد مفهوم الأخلاق وتحيط به ؟ .

دراسات «پياچية» للحكم الخلقى عند الطفل : للاجابة على هذه الأسئلة نلجأ الى الأبحاث العلمية التى أجراها «پياچية» عن تطور الحكم الخلقى عند الأطفال من خمسة سنوات الى سن المراهقة . وجد پياچية أن للقاعدة الخلقية وجودا مطلقا فى نظر الطفل الصغير ، فقواعد الألعاب مثلا شىء موجود فعلا وكان موجودا منذ الأزل ، ولا سبيل لتغييره حتى ولو اتفق جميع الأفراد على ذلك . كذلك الحال بالنسبة للمعصية أو الذنب . فالمعصية فى نظر الأطفال الصغار ثابتة مطلقة لا تتغير ، وتتفاوت شدتها بنسبة الضرر الذى أحدثته فعلا ، بغض النظر عما اذا كان الشخص قد أذنب عن قصد أو عن غير قصد . فالقصد لا يلعب دورا فى حكم الطفل الخلقى — ويلقب پياچية هذه المرحلة من النمو الخلقى بالواقعية الخلقية Moral realism .

— ثم وجد پياچية أن الحكم الخلقى يتطور بتقدم الأطفال فى السن ، الى وجهة النظر التى اسماها النسبية الخلقية Moral relativism حيث يدركون أن القواعد

مسألة اتفاق متبادل للمنفعة المتبادلة ، وأنه يمكن تعديلها بالاتفاق الجماعى . كما أنهم يفهمون أن القصد الذى يكمن وراء المعصية يجب أخذه بعين الاعتبار عند الحكم على خطورة الذنب المقترف .

على ضوء هذه المعلومات يتضح لنا أن الذات العليا التى تكونت خلال الطفولة الأولى سوف تتضمن النظرة الخلقية الواقعية . أى سوف تكون لا منطقية ومطلقة فى أحكامها ، وغالبا ما تظل الضمير اللاشعورى المترسب من الطفولة . وكأى وظيفة طفلية أخرى ، ينبغى أن تتطور الذات العليا وأن تساير النضج الذى يطرأ على باقى نواحى الشخصية . الا أنه فى كثير من الحالات لا يتحقق هذا التطور ، وتكون النتيجة أن يستمر مفعول الذات العليا بأحكامها المطلقة غير المعقولة .

نمو البصيرة الخلقية : مما يساعد الطفل على التخلى عن الواقعية الخلقية ، نمو قدرته على رؤية الأمور من وجهة نظر شخص آخر . أى قدرته على أن يدرك أن الأحداث تؤثر تأثيرا مختلفا على الأشخاص المختلفين . ان ما يسعده هو وصديقه مثلا قد يسيىء طفلا ثالثا . وهذا يتوقف من جهة على النضوج العقلى ، ومن جهة أخرى على معاناة الطفل لنفس الخبرات التى نطلب اليه أن يقدرها بالنسبة للآخرين . ومن أهم المواقف التى تساعد على تقدير القواعد الخلقية ، تلك المواقف التى ينتهك فيها الآخرون القواعد فيصاب الطفل بضرر أو اجحاف . أن يخطىء الغير فى حقنا من الخبرات الحاسمة التى تبصرنا بطبيعة الخطأ .

ينبغى اذن أن يميز المربون بين الذات العليا والضمير الناضج . فالذات العليا ضمير طفلى مطلق لامنطقى ، يستمده الطفل مباشرة من قواعد والديه واتجاهاتهم ، دون تأمل أو تبصر ومع بعض التمويه . أما الضمير الناضج فيبدأ تكوينه عندما تنشط المشاركة الوجدانية والاستبصار بحيث يدرك الطفل أن القيود والمثل العليا تنطوى على غاية أبعد وأسمى من مجرد ارضاء الوالدين . ويستمر الضمير فى التطور والنضوج عند ما يتعلم الناشىء أن يميز آثار أعماله على الأشخاص الذين يتأثرون بها ، ويحكم عليها تبعا لذلك ، ويتحرر من مجرد الطاعة العمياء للقاعدة . ويصف العلماء هذه العملية بأنها تكامل الذات العليا والذات المدركة المفكرة ، وكلما تحقق هذا التكامل ضعف مفعول الذات العليا وتحكمها فى الشخصية .

تثبيت الذات العليا : أما اذا لم يتم هذ االتكامل ، فان الضمير الطفلى — أى الذات العليا يتثبت ، ويظل متسلطا على الشخصية ، ويسبب لها الاضطراب . والسبب فى تثبيت الضمير الطفلى يرجع الى تزايد قلق الطفل من فقدان حب والديه . فلا يجرؤ على مناقشة معايير الوالدين ، ويتولاه الفزع من الاقدام على أى سلوك يحتمل أن يفقد المحبة والرعاية . ولا شك فى أن هذا الرعب يعوق ازدهار المشاركة الوجدانية التى تجعله يحس باحساس الآخرين وينفعل لانفعالاتهم . كما يعوق ازدهار الاستبصار الذى يدفعه الى استخدام خبراته الشخصية وتفكيره لكى يفهم وجهة نظر الآخرين . وهكذا يتثبت الطفل القلق بالمعايير الطفلية الغاشمة لأن التخلى عنها يعنى المجازفة بمحبة الوالدين ومساندتها .

ومما يشجع الايغال فى تثبيت الضمير الطفلى تردد المجتمع بوجه عام ، والمجتمع المدرسى بوجه خاص ، فى السماح للتلاميذ والتلميذات بأن يفكروا تفكيرا منطقيا مستقلا ولا سيما فى المسائل الخلقية . فتصور الفوضى الخلقية المزعومة التى قد تنجم من الحرية فى التفكير يجعل المربين يترددون فى تشجيع النضج الخلقى . قد يكون حفظ التلاميذ على نمط واحد أسهل ولكنه لا يساعد على تكوين شخصيات ناضجة سوية .

تطبيق مبادىء الصحة النفسية فى المدرسة

أوضحنا فى مستهل هذا البحث مبادىء الصحة النفسية بوجه عام ، ثم تناولنا بشىء من التفصيل أهم العوامل التى تؤثر على الصحة النفسية لشخصية الطفل ، ونختتم البحث باستعراض كيفية الاستفادة من هذه المعلومات فى المدرسة .

تستخدم مبادىء الصحة النفسية أصلا فى ميدان العلاج النفسى . الا أن فى السنوات الأخيرة أدرك المهتمون بالعلاقات الانسانية أنه يمكن أيضا الانتفاع بمبادىء الصحة النفسية للوقاية والارشاد فى ميادين التربية والزواج والصناعة والاجرام وغيرها ، والذى يعنينا هنا هو كيفية تطبيق مبادىء الصحة النفسية فى ميدان التربية عامة والتربية المدرسية خاصة .

كانت الفكرة السائدة أن مهمة المدرسة الوحيدة هى تدريب عقل الطفل ، أى تنمية تفكيره ، وتعليمه القراءة والكتابة والحساب ، وتلقينه المعارف . أما المفهوم الحديث لأهداف التربية ، فقد انبثق من مبادىء الصحة النفسية،ويتلخص

فى أن مهمة المدرسة هى تنمية شخصية التلميذ من جميع نواحيها ، لاتقتصر على تدريب تفكيره ولكنها تعينه أيضا على ارضاء حاجاته الوجدانية بأساليب أكثر نضجا ، وتعده بوصفه كائن اجتماعى على الاضطلاع بدوره الكامل كمواطن . فهدف التربية من الناحية الايجابية هو تكوين شخصية سوية ، ومن الناحية السلبية هو وقاية الناشئين من اضطرابات الشخصية .

هذا عن الأهداف العامة للتربية . واتناول الآن بعض نواحى التربية المدرسية وأبين الأساليب العملية التى يمكن تطبيقها تحقيقا لهذه الأهداف .

التوجيه الاجتماعى فى الفصل :

ينقسم الفصل عادة الى مناطق نفوذ ، ففى النواحى العلمية يدير المدرس أو المدرسة دفة الأمور ، أما فى المسائل الاجتماعية فالتلاميذ هم غالبا الذين يحددون الاتجاهات . هذا التقسيم مؤسف ، لأنه يحرم الأطفال والمراهقين من حقهم فى حكمة البالغين وخبرتهم وارشادهم فى الناحية الاجتماعية .

ان التدريب الاجتماعى الذى يتبادله التلاميذ ، يميل الى تأكيد انحرافات شخصياتهم أكثر مما يعمل على تقويمها ، فالطفل المنزوى تتجاهله المجموعة فيغرق فى انزوائه . والطفل العدوانى يواجه مقاومة تدعم ميله الى الاعتداء . ويندر أن يستحث الزملاء كلا من القائد والتابع على تبادل ادوارهما ، وبذلك يدعم التدريب سيطرة القائد وخضوع التابع . وقليلا ما يكشف الطفل المنبوذ السبب فى نبذه بحيث يكيف سلوكه للمجموعة . هذه هى المواقف التى يجد فيها المدرسون مجالا لتطبيق بعض مبادىء الصحة النفسية . فهل ينتهز المدرسون فى مدارسنا الفرص لممارسة التوجيه السليم ؟ .

لعل السبب فى انصراف المدرسين والمدرسات عن هذا المجال من التوجيه ، هو افتقارهم الى الوسائل العملية الملائمة للتعرف على العلاقات الاجتماعية فى فصولهم ، ولاكتشاف التلاميذ المنعزلين أو المنبوذين.فقد أسفرت الابحاث العلمية فى هذا الموضوع ، أن الآراء الذاتية للمدرسين لا تتفق الا بدرجة ضعيفة مع تقديرات التلاميذ أنفسهم لعلاقاتهم الاجتماعية . وأقدم فيما يلى بعض الاقتراحات العملية ، يستطيع بها المدرسون والمدرسات أن يدرسوا التركيب الاجتماعى

للفصل الواحد ، وان يفهموا نظرة التلاميذ بعضهم الى البعض كما يراها التلاميذ أنفسهم .

الوسيلة الأولى مستقاة من مورينو Moreno . الغرض منها تعيين الصداقات الوثيقة الموجودة فى المجموعة ، وتخطيط النتائج تخطيطا بيانيا يوضح العلاقات بين أعضاء المجموعة . ويمكن الحصول على البيانات بطرق مختلفة فمثلا يمكن أن نطلب من الأطفال أن يكتبوا قائمة لأحب أصدقائهم فى الفصل. ويستحسن تحديد العدد المقدم من كل طفل الى ثلاثة أو أربعة أسماء على الأكثر . ويمكن اتباع طريقة أخرى ، وهى أن نطلب من التلاميذ أن يكتبوا اسم الزميل الذى يفضلون الاستذكار معه ، أو الذهاب معه الى السينما ، أو دعوته لتناول الطعام معه فى المنزل .

ان تخطيط النتائج سوف يبرز أنماطا متعددة من التنظيم الاجتماعى فقد يظهر أن طفلا معينا محبوبا هو النواة التى يتجمع حولها الفصل ، وقد تظهر فى الفصل تجمعات داخلية متعددة يختلف عدد الأفراد فى كل منها ، وقد يوجد اتصال بين هذه المجموعات المتعددة ، وقد لا يظهر أى تنظيم محدد . وفى أغلب الفصول سوف يلاحظ المدرس ان بعض التلاميذ ذكروا أسماء الآخرين كأصدقاء ولكن لم يخترهم أحد كأصدقاء . هؤلاء التلاميذ المنعزلون هم الذين يحتاجون الى دراسة واهتمام من جانب المدرس . ففى بعض الحالات يؤدى الاستماع والملاحظة بالاضافة الى بعض الأسئلة الرصينة الى الكشف عن سبب العزلة ويكون الطفل المنبوذ أحيانا من مستوى نضوج مختلف عن بقية الفصل ، أو تكون ملابسه مختلفة ، أو يكون من طبقة اجتماعية مختلفة . وأحيانا أخرى قد يستغل قوته لايذاء الضعفاء ، أو يستجدى الانتباه ، أو يبالغ فى الاعجاب بنفسه ، أو يفتقر الى الكياسة واللياقة .. الخ . الخ . كل هذه وكثير غيرها قد تكون مصدرا من مصادر عرقلة الاندماج الاجتماعى ، ويمكن تلخيصها فى عبارة ، أن التلميذ مختلف بشكل ملحوظ .

من وجهة نظر المدرس أو المدرسة قد يكون اختلاف التلميذ المنعزل فى صالح التلميذ . الا أن هذا يدل دلالة واضحة على عجز البالغين عن فهم الصفات التى يعجب بها الناشئون فى كل مرحلة من مراحل نموهم . ويستطيع المدرسون والمدرسات أن يحصلوا على معلومات عن التقاليد السائدة فى فصولهم عن طريق

اختبار « التخمين » . فيطلب من التلاميذ أن يخمنوا من زملائهم تنطبق عليه بعض الأوصاف ، مثل : من يحب القتال ويتعارك كثيرا ؟ من يرتدى دائما ملابس نظيفة منسقة ؟ وغيرها . ثم يعطى لهم الاختبار الذى سبق ذكره آنفا عن أحب الزملاء اليهم . وبالمقارنة بين الاجابات فى الاختبارين ، يستطيع المدرس أن يتعرف على السمات التى تجعل التلميذ محبوبا من جماعته .

بعد التعرف على أسباب عزلة التلميذ ينبغى على المدرس أو المدرسة أن يفحص امكانية تعديلها أو تخفيفهـا . اذا وجد ان الاختلافات بين التلميذ وزملائه اختلافات حقيقية يتعذر ازالتها ، فيمكن تضييق الفجوات بينهم أو تدريبهم على التسامح . أما اذا كان الاختلاف مصطنعا أكثر منه حقيقيا ، فيمكن التخفيف منه باتاحة فرص أكثر للتعارف بين التلاميذ . فى بعض الحالات يمكن تعويض النقص فى طفل خجول مثلا بتعليمه مهارة معينة لا يجيدها الآخرون ، فيدعوهم ذلك الى التعرف عليه والاعجاب به بدلا من تجاهله . اذا كان الاختلاف فى مستوى النضوج ، فقد يحتاج الأمر الى نقل التلميذ الى مجموعة من الزملاء المقاربين له فى النمو . كذلك يمكن ابتكار وسائل عديدة لتهيئة الفرص أمام التلميذ المنعزل لكى يحصل على انتباه زملائه كأن يعاد نظام الجلوس فى الفصل ، ونظام توزيع الخدمات الخاصة بالصف ، وتنظيم لجانه المختلفة الخ . وعلى المدرس والمدرسة بوجه عام أن يستعمل الحكمة والكياسة لأن الصداقة لا يمكن غرسها بالقوة ولا بالأمر . أما اذا اشتد عدم تكيف التلميذ الاجتماعى فيستحسن احالته الى العيادة النفسية التى تسدى خدماتها للمدرسة .

التوجيه العلمى فى الفصل :

التوجيه التربوى مجال واسع مترامى لا يمكن استيفاؤه فى بضعة صفحات . ونقتصر على توضيح المعالم الرئيسية فى النقط التالية :

١ — عملية توجيه الناشئين عملية قديمة تمتد جذورها الى الأسرة والقبيلة والمدرسة . وكل تنشئة للأطفال وكل تربية سواء أكانت حكيمة أو حمقاء تمثل محاولات البالغين لمساعدة الأطفال فى نموهم يصبحوا بالغين أصحاء ، متكيفين مع النظام الاجتماعى ، قادرين على أن يحتلوا مكانة شخصية ترضيهم .

٢ — ان أسمى وظيفة لكل من المنزل والمدرسة أن يزودا الطفل بتوجيه مستنير فى جميع مراحل نموه ومن مختلف نواحى النمو .

٣ — الوظيفة الأولى للمدرس والمدرسة هى الارشاد الحكيم لتلاميذه ، والصداقة المنبهة ، أكثر مما هى تلقين المعرفة والتدريب . وتتلخص وظيفة المدرس فى تهيئة جو الفصل ومواقف التعلم بحيث تضمن النمو الصحيح للطفل ، وتوقظ مبادأته وتلقائيته ، وتغذى قدرته على الابتكار ، وتنمى استعداداته الكامنة ، وتمنع نمو اضطرابات الشخصية ، وتتغلب على العوائق الدراسية والاجتماعية .

٤ — لا يستطيع المدرس أو المدرسة أن يؤدى وظيفته بكفاية دون أن يفهم شخصية كل تلميذ ككائن حى متكامل . المدرس الموجه يتعامل مع كائن حى مركب فكيف يستطيع توجيهه دون أن يعرف قدرته العقلية العامة ، وقدراته الخاصة ، ونقائصه الخاصة وميوله واتجاهاته ، ومميزاته الجسمية والمزاجية ، وصراعاته الوجدانية ، والأساليب التى يتبعها لمواجهة مشاكله ؟ ان التوجيه الذى لا يبنى على تشخيص شامل أسوأ من عدم التوجيه ، بل أنه ضرب من الدجل . فكيف اذن يحصل المدرس على مثل هذا التشخيص العلمى الشامل للطفل ؟ يمكن معاونة المدرس بعدة وسائل متكاملة أذكر منها أولا : اعداد المدرس نفسه اعدادا فنيا لعملية التوجيه ، وسوف أتعرض لهذه النقطة فى الفقرة التالية . ثانيا : تعيين اخصائى نفسى أكلينيكى مدرب على شتى أنواع القياس النفسى فى كل مدرسة ، بحيث يأخذ على عاتقه قياس النواحى التى يمكن قياسها من شخصية تلاميذ المدرسة ، وتخصيص سجلات فردية لكل تلميذ ، يستطيع المدرس الرجوع اليها لاستكمال معرفته بتلاميذه . ثالثا : يمكن انشاء عيادة نفسية لعدد من المدارس المتجاورة بحيث تستفيد كل مدرسة من خدمات العيادة سواء منها التشخيصية أو العلاجية .

٥ — ان ارشاد الأطفال والشباب عملية أصعب من مجرد التدريس . ولايمكن أن نتوقع من المعلمين والمعلمات أن يعملوا على مستوى عال فى مجال التوجيه التربوى ، الا اذا أعدوا لذلك اعدادا فنيا أساسيا — سواء فى ذلك من يوجهون الناشئين من ٦ — ١٢ سنة ، أو من ١٢ — ١٨ سنة . ونلاحظ هنا بأسف عميق ان مدرسى الأطفال من ٦ — ١١ سنة أقل المدرسين اعدادا لمهمتهم الشاقة الأساسية .

وينبغى أن يتضمن هذا الاعداد الفنى أولا :دراسة نظرية لعلم النفس العام ، وعلم النفس التربوى وعلم النمو النفسى ، وقياس الفروق الفردية المتعددة ، وهذه تدرس حاليا فى كليات اعداد المعلمين للمرحلتين الاعدادية والثانوية ويجب أن تدرس أيضا فى معاهد اعداد المدرسين للمرحلة الابتدائية التى لا تقل أهمية عن المراحل الأخرى بل تعتبر المرحلة الأساسية . ثانيا : تدريبا عمليا على القياس النفسى ، والتدريس العلاجى التشخيصى ، والتربية الخاصة لذوى العاهات ، ومشاكل التوجيه التربوى والمهنى ، وتحليل الأعمال والمهن والحرف المختلفة ، وتقدير حاجة المجتمع اليها ، ووسائل التوظيف والمتابعة . ثالثا : تدريب المدرسين على تشخيص الحالات العادية ، وتبصيرهم بالحالات المعقدة التى يجب أن تحال الى الاخصائيين النفسانيين فى العيادات النفسية المختصة .

ان التوجيه التربوى الصحيح يحتاج الى بصيرة والى مهارات فنية خاصة لا يمكن أن يكتسبها المدرس الا عن طريق التأهيل والاعداد النظرى والعملى والا أصبح التوجيه عملية تهريج .

٦ — اذا كان التوجيه التربوى هاما بالنسبة لنمو الأطفال العاديين وتكيفهم، فانه لا يقل أهمية بالنسبة للأطفال ذوى العوائق المتنوعة ، وبالنسبة للأطفال الموهوبين .

توجيه الأطفال ذوى العوائق :

ان مشاكل توجيه التلاميذ الذين يعرقل نموهم الطبيعى عائق ما ، سوف يختلف باختلاف طبيعة العائق الذى يقيد تكيفهم . من هذه العوائق : الضعف العقلى ، والعمى ، والصمم والشلل وغيرها . ولكن الأهداف الرئيسية لتربية معظم المعوقين قد تكون متشابهة وهى تربيتهم بحيث :

(أ) يصبحون قادرين على اعالة أنفسهم بالقيام بعمل مناسب .

(ب) يكونون مندمجين مع مجتمعهم ومتعاونين ونافعين .

(جـ) يصبحون متحررين من العادات المقلقة وانحرافات الشخصية التى تكون قد تولدت اما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من نقائصهم ، والتى قد تكون حاجزا دون تكيفهم الاقتصادى والاجتماعى .

(د) يكونون شخصيات راضية سوية متكاملة .

(هـ) يقدرون التزاماتهم تجاه المجتمع الذى وفر لهم تربية خاصة .

ماهى الاجراءات التى ينبغى اتباعها لتحقيق هذه الأهداف العريضة ؟ سوف نؤكد هنا ثلاث توصيات :

الأولى هى كما سبق أن ذكرنا التشخيص العلمى الشامل لكل نوع من أنواع العوائق بحيث يستطيع المدرس فهم احتياجات الطفل المعوق ودوافعه ، وقدرته العقلية العامة ، واستعداداته المهنية ، وطبيعة نقائصه ، والوسائل التى يستخدمها لحل المشاكل التى يخلقها له نقصه .

التوصية الثانية هى أن نزود ذوى العوائق فى مرحلة مبكرة بالتوجيه التربوى الحاذق والتعليم المثمر . فنضع لهم برامج خاصة غنية بالفنون الصناعية، والتدريب المهنى ، والتعليم الثقافى الملائم لاحتياجات كل مجموعة ، والاهتمام بتكيفهم الاجتماعى وامدادهم بالفرص الترفيهية .

اما التوصية الثالثة فهى أن تنظم للمعوقين خطة لتوظيفهم ومتابعتهم فى عملهم ، لكى نلاحظ من الواقع مقدار نجاح توجيهنا لهم .

توجيه الموهوبين :

ليس التعرف على التلاميذ الموهوبين فى سهولة التعرف على التلاميذ المتأخرين. فالمتفوقون يتقدمون بطريقة منتظمة مرضية ولا يعرقلون سير الروتين المدرسى . ويترتب على ذلك أننا لا نهتم بهم بينما يجذب انتباهنا التلاميذ المختلفون . الا أن اختبارات الذكاء قد بينت أن هناك من الأفراد من هم فوق المتوسط بقدر ماهنالك من أفراد هم دون المتوسط وتتضمن مجموعة من هم فوق المتوسط درجات متفاوتة متصلة من الذكاء . ولا تطلق عبارة « متفوق » الا على العشرين أو العشرة فى المائة العليا من التوزيع . وهم الذين يحصلون على نسبة ذكاء أعلى من ١٢٠

وينبغى تحديد درجة التفوق باختبارات الذكاء المقننة . الا أن هناك أدلة أخرى يستطيع المدرس والمدرسة استخدامها محكا للتفوق فى تلاميذه . منها أن الموهوبين يشغفون باكتساب المعرفة عن طريق الأسئلة والقراءة وأنواع كثيرة من الاستقصاء والمشاريع . كان الرأى السائد ان المتفوقين أضعف جسما وأقل

اقبالا على النشاط الاجتماعى ، الا أن الدراسات العلمية المستفيضة ، كما سبق أن ذكرت ، برهنت على خطأ هذا الرأى ، وبينت ان الموهوبين يبزون اقرانهم لا فى الصحة والنشاط فحسب ، بل فى جميع سمات الشخصية الأخرى ، وفى المميزات التى تؤدى الى النجاح فى العمل المدرسى وفى تكوين المواطن الصالح . كذلك بينت هذه الأبحاث أنه لا توجد فروق تذكر بين الجنسين فى هذه الناحية .

لم يستيقظ الوعى بعد فى بلادنا الى ضرورة بذل توجيه خاص مبكر للتلاميذ الموهوبين . حقا ان الدولة أخذت تشجعهم بالهبات المالية ، ولكن التشجيع المالى شىء ، والتوجيه التربوى المبكر شىء آخر . ان البنات والبنين الموهوبين هم أمل المستقبل — هم ثروة قومية يتوقف عليها رقى الأمة وتقدمها . لذا يجب التبكير فى العناية بهم ، وتوجيههم توجيها تربويا خاصا ، بحيث تتاح لهم الفرص للانتاج بما يتلاءم مع طاقاتهم الغنية . والقصور فى ذلك يعنى خسارة اجتماعية واقتصادية فادحة . وتوجد عدة طرق لمواجهة مسألة التلاميذ الموهوبين أذكر منها ما يلى :

(أ) افساح السبيل أمام الطفل الموهوب لكى ينتقل بسرعة من صف دراسى الى آخر دون التقيد بالسن . ومن مزايا هـذا الاجراء أن يدرس التلميذ مع مجموعة من نفس مستواه العقلى ، فيتوفر له التنبيه العقلى الملائم . ومن نقائصه أن ينتقل التلميذ الصغير الموهوب الى مجموعة تكبره سنا وتختلف عنه فى النمو الجسمى والميول الاجتماعية ، كما يحدث لو كان هو غلاما فى العاشرة وفصله فى بداية مرحلة المراهقة ؟ وقد يؤدى هـذا الموقف الى انسحابه من الحياة الاجتماعية وعرقلة تكيفه الوجدانى .

(ب) الخطة الثانية التى ابتكرت بعد استخدام اختبارات الذكاء هى انشاء فصول خاصة للتلاميذ الموهوبين تكون متجانسة من حيث المستوى العقلى والنضوج العام . وتمتاز هذه الخطة بامكان تقديم مناهج غنية واستخدام طرق خاصة تتلاءم مع ميول المجموعة واستعداداتها كما أن المنافسة بينهم تكون مناسبة . ومن أوجه النقد الموجهة الى هذا الاجراء ان باقى المدرسين والتلاميذ فى المدرسة يفتقدون الحماس والتنشيط الذى يضفيه الموهوبون على الفصل .

(ج) الطريقة الثالثة هى استبقاء الموهوبين فى الفصول المناسبة لعمرهم الزمنى مع تخطيط برامج خاصة متنوعة لهم بالاضافة الى البرامج العادية . وتتضمن هذه البرامج الاضافية رحلات تربوية ونوادى علمية وحلقات مناقشة الخ ، تنفذ فى أوقات العمل المدرسى ، أو تحدد لها مواعيد أخرى تلائم ظروف التلاميذ الموهوبين والمدرسة .

ولقد وجد الذين مارسوا هذه الخطة انها خطة مرضية وعملية . ويمكن تنظيمها على أساس فردى أو بتكوين مجموعات من الموهوبين من الفصول المختلفة . ولما كان معظم التلاميذ الموهوبين يحتاجون الى وقت أقل لاستذكار دروس فرقتهم ، يمكن أن يستخدموا الوقت المتوفر لتنفيذ مشروعات شخصية مثل دراسة مرحلة من مراحل الحضارة الانسانية ، أو سير العظماء من مختلف ميادين الابتكار ، أو لغة أجنبية حديثة ، أو تنمية موهبة خاصة علمية كانت أو فنية .

وأخيرا اذا تذكرنا أن أطفالنا الموهوبين هم أنفس مواردنا القومية ، وأنهم قادة المستقبل فى العلوم والفنون والآداب والاختراع ، لما ضننا عليهم بالتوجيه التربوى الذى يوفر لهم الصحة النفسية السوية . فبجانب تزويدهم بجميع مواردنا العقلية ، وتشجيعهم على اكتساب جميع أنواع المهارات الفنية والعقلية على حد سواء،ينبغى أن نغرس فيهم ان الابتكار والانتاج الحقيقى أهم من الشهرة، وأن نتجنب استغلالهم أو تشجيع الزهو والمباهاة فيهم ، وأن نتفادى تعريضهم للمواقف التنافسية ولا سيما تلك التى تخلق هوة بينهم وبين زملائهم من نفس السن ، وأن نشجع مجهوداتهم التلقائية للخدمة الاجتماعية وأن نحترمهم ونثق بأن الطفل الموهوب المتمتع بالصحة النفسية السوية سوف يكون البالغ الموهوب الذى يعتمد المستقبل على حكمته .

شخصية المدرس :

المعلم والمعلمة هما العمود الفقرى للمدرسة . واذا كان الهدف الأساسى من التربية المدرسية هو تكوين شخصيات سوية ، فلا مناص من أن تتطلب ان تكون شخصيات المدرسين والمدرسات شخصيات صحيحة . فالمدرس الذى تكون صحته النفسية مضطربة يضر تلاميذه ضررا بالغا . ذلك انه فى أثناء تعامله مع التلاميذ ينقل اليهم دون وعى منه قلقه النفسى وتوتره . ومن مظاهر عدم

التكيف الانفعالى فى المدرس : تقلب مزاجه ، وعدم تحكمه فى غضبه ، والتحيز لبعض التلاميذ ، وعدم التسامح ، والسخرية ، والتعبير عن وجهة نظر معوجه فى الحياة بملاحظاته العامة وعباراته .

ومن الانصاف أن نتساءل عن الأسباب التى تؤدى الى الاضطراب الوجدانى فى المدرسين والمدرسات . ويجدر بنا أن يكون بحثنا عن هذه الأسباب مبنيا على استقصاء موضوعى لأحوالهم فى بلادنا . ما الذى يحبطهم ويقلقهم ؟ أهى مرتباتهم الزهيدة غير المناسبة ؟ أم هو عدم توفيقهم فى الزواج ؟ أهو تدخل الادارة فى حياتهم الخاصة والضغط عليهم ؟ أم شعورهم بأن مكانتهم فى الهيئة الاجتماعية لا تتناسب مع أهمية مهمتهم ؟ أن الشخص المحبط المخيب الآمال غالبا ما ينضح مرارة ويشع نقمة على المحيطين به سواء أكان والدا أو مدرسا أو رئيسا . ويتفاقم الأمر اذا كان المحيطون به أصغر سنا وأقل خبرة وأضعف قوة . والضحية فى أغلب الأحوال تكون الأطفال .

الا أنه بجانب الصحة النفسية السوية ينبغى أن يتوفر فى المعلمين والمعلمات بعض الخواص اذا أرادوا أن ينجحوا فى توجيه الناشئين . ومن هذه الخواص أن يكون المدرس محبا للأطفال والشباب وأن يهتم بشئونهم الخاصة كما يهتم بدرجاتهم ، وأن يتفهم مشاكلهم ، ويحترم الفروق الفردية بينهم ، وأن يساندهم فى أزماتهم ويشاركهم أفراحهم فى يسر . فالمدرس الصديق أكبر عون لحسن تكيف الناشئين فى الحياة المدرسية . وأعود فأتساءل : هل من الانصاف أن نطلب من المدرس أن يكون صديقا مستنيرا لفصل مزدحم بخمسين شخصية متطلعة الى التوجيه ؟ .

المنهج المدرسى :

يمكن أن يكون المنهج مجالا حيويا من مجالات الصحة النفسية لو كانت مواده تجسيمالقيم الصحة النفسية ومبادئها . فاذا كانت الصحة النفسية السوية هى التكيف السليم للحياة عن طريق ارضاء احتياجات الفرد فى اطار النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه ، ينبغى على المنهج الذى يساعد الناشئين على هذا التكيف أن يتضمن :

(أ) الاعداد للزواج ولحياة الأسرة .

(ب) التدريب على حقوق المواطن ومسئولياته فى مجتمع ديمقراطى اشتراكى .

(جـ) اعداد المستهلك على استعمال دخله للحصـول على لوازمه بأحسن الوسائل بحيث لا يتعرض للاستغلال أو التضليل أو التبذير .

(د) تنمية عادات مجدية فى التعلم ، والتدرب على التعاون مع الآخرين .

(هـ) الحصول على خبرات فى استخدام أوقات الفراغ بطريقة خلاقة ابتكارية.

تنظيم برامج التوجيه وتنميتها فى المدرسة :

فى ضوء المبادىء التى أجملناها فى الصفحات السابقة يمكن مناقشة هذا الموضوع فى الحلقة . وأقتصر هنا على اقتراح نقط تتفتح فى المناقشة .

لا يمكن تنظيم برنامج للتوجيه فى مدرسة ما الا بمعرفة هيئة التدريس واشتراكها وتعاونها . ينبغى ألا يكون البرنامج شيئا مفروضا على المدرسة برسوم ادارى بل يجب أن ينبع من احتياجات المدرسة ومواردها، كما أنه سوف يختلف فى المدرسة الابتدائية عنه فى المدرسة الثانوية . وأهم ضمان لنجاح البرنامج هو أن يفهم المدرسون المبادىء الأساسية للتوجيه وأن يتقبلوا فلسفته وأن ينتفعوا بجميع الوسائل والخدمات التى ابتكرت فى هذا الميدان .

ويمكن أن يتضمن تنظيم برنامج التوجيه الأمور الآتية :

١ — اكتشاف الحاجات الحقيقية للتلاميذ ومشـاكلهم . ونوع الوسائل المستخدمة لتحقيق ذلك .

٢ — استخدام المعلومات المتجمعة عن التلاميذ لملاءمة التعليم للحاجات الفردية .

٣ — الوسائل التى تنمى تفهم المدرسين لسلوك تلاميذهم وتعمق هذا التفهم.

٤ — انشاء بعض الخدمات التوجيهية الخاصة مثل :

(أ) تنظيم سجل خاص بكل تلميذ تتجمع فيه جميع المعلومات عن شخصيته .

(ب) تنظيم الارشاد النفسى الفردى لمن يحتاج اليه من التلاميذ .

(جـ) تنظيم التوجيه المهنى والتوظيف والمتابعة .

(د) تنظيم العمل الجماعى والافادة من الخبرة الجماعية .

(هـ) تنظيم الخدمات الصحية العضوية .

المراجع

REFERENCES

1. Cowell, C. C. A Suggested Index of Social Adjustment in High School. Educational Research Bulletin, XVII, Jan. 1938, pp. 10 — 19.

2. Dollard, J., Doob, L. W., Miller, N. E., Mowrer, O. H., and Sears, R. R., Frustration and Aggression. New Haren, Yale University Press, 1939.

3. Freud, S. New Introductory Lectures in Psychoanalysis. New York. W. W. Norton Co. 1933.

4. Hollingworth, L. S. Children Above 180 I. Q. Yonkers, world Book Co., 1942.

5. Mackinnon, D. W. The Structure of Personality. Chap. 1. in Hunt, J. Mc. V. (ed.) Personality and the Behavior Disorders. Vol. I.

6. Moreno, J. L. who Shall Surrive ? Nervous and Mental Disease Publishing Co., 1934.

7. Piaget, J., The Maral Judgement of the child, New York, Harcourt, Brace and Co., 1932.

8. Symonds, P. M. The Dynamies of Human Adjustment. New York, D Appleton Century Co., 1946.

9. Terman, L. M. et al. Genetic Studies of Genius. Vol. I. Mental & Physical Traits of a Thousand Gifted children. Stand ford University Press, 1925.

مفهوم النشاط فى التربية الحديثة

للدكتور محمد جمال صقر

الأستاذ المساعد بقسم التربية وعلم النفس

ليس هناك مفهوم أثار الجدل والنقاش بين أنصار الحديث والقديم فى التربية بل وبين أنصار الحديث أنفسهم مثل ما فعل مفهوم النشاط فى التربية . ولقد تصدى لتفسير هذا المفهوم وتوضيح معناه وتحديد الغرض منه عدد غير قليل من فلاسفة التربية والمربين بقصد تصحيح الأخطاء التى وقع فيها البعض أو التى نسبها غيرهم الى بعض المربين أو عملوا على نشرها فى ميدان التربية والتعليم دون ادراك عميق أو فهم حقيقى لمدلول هذا المفهوم .

والنشاط يعتبر بحق احدى الدعائم الأساسية بل وحجر الزاوية فى العملية التربوية بمفهومها الحديث . فالتربية الحديثة ، أو ما اصطلح على تسميته بالتربية الحديثة وما يتفرع عنها من أساليب وطرق ، قامت على أساس فهم خاص للنشاط ومضمونه ومظاهره حتى أن المدرسة الحديثة أصبحت تعرف « بمدرسة النشاط » وطرق التربية الحديثة بطرق النشاط Méthodes actives والتربية الحديثة « بالتربية عن طريق النشاط » .

ولعل من المستحسن — لأجل تحديد مدلول النشاط كما تحاول طرق التربية الحديثة تطبيقه فى مختلف البيئات التربوية — فى البيت وفى المدرسة وفى المجتمع — أن نبدأ باستبعاد ما لا يصلح أن نسميه أو نطلق عليه نشاطا بالمفهوم الجديد لهذا المصطلح . فقد يعتقد كثير من الناس أن « النشاط » صفة نضفيها على الشخص الذى يكثر من الحركة والتنقل أو الذى يقوم بأداء عمل من الأعمال كالكتابة والقراءة مثلا — بدلا من أن ينصت أو يصغى — بل قد يتخيل المرء أحيانا أن الشخص الذى يبدى نشاطا هو الذى يأتى فعلا مرئيا يستطيع الغير أن يشاهده وأن يسجل مظاهره — ولكن الحركة الظاهرية ذات المظهر الخارجى لا تتضمن بالضرورة نشاطا تربويا بالمعنى الذى تقصده التربية الحديثة —

فالفصل الذى يسمع لتلاميذه صوت عن بعد ويدل ظاهره على حركة لا تنقطع قد يوهم بأنه فصل يتصف تلاميذه بمزيد من النشاط ، بينما قد تكون الحقيقة خلاف ذلك ، اذ أن كثرة الحركة والتنقل بين الأدراج بل وحركة الأيدى وأعضاء الجسم ليست دائما دليلا على النشاط الحقيقى لأن النشاط الحقيقى هو أولا وقبل كل شىء ذاتى وحركة داخلية أكثر منها خارجية ، بل وهناك من الجهود الفكرية ما قد تعوقها الحركة الظاهرية أكثر من أن تكون لها عونا . ثم ان كثيرا ما يكون السكون أو الهدوء دليلا على نشاط قوى وعميق . والفرد الذى يفكر فى مقعده دون أن يتحرك قد يكون أكثر نشاطا من الفرد الذى يقوم بترجمة نص من لغة أجنبية مثلا . والنشاط لا يكون تعليميا ولا يحقق الغاية التربوية المرجوة منه الا اذا قصد الى اخصاب الذات والعقل والى توجيه سلوك الفرد نحو هدف يسعى الى تحقيقه — كما أنه لا يكون ذا أثر فعال فى حياة الفرد وسلوكه الا اذا كان نشاط مرغوبا فيه ، وأدرك الفرد الغاية التى يسعى الى تحقيقها عن طريقه .

وقد يخلط البعض بين نوعين من النشاط — الأول هو النشاط الذى يصحبه التعبير بعمل أو أثر خارجى ، والذى يمكن أن نسميه « نشاط الانجاز » أو « نشاط التنفيذ » ، والثانى النشاط الذى يتولد عن الشعور بحاجة يراد اشباعها والذى يثيره أحد الدوافع التلقائية أو الطبيعية لدى الفرد ، والذى يطلق عليه « النشاط الوظيفى » .

ولأجل توضيح الفرق بين النشاط بمعناه الوظيفى وبين النشاط بمعناه التنفيذى نقول أن الانسان اذا سطر خطابا بدافع من نفسه وبرغبة منها فانه يبدى نشاطا بالمعنى الوظيفى وبالمعنى الانجازى معا ، أما اذا أجبر على أن يسطر خطابا لا يهمه فان نشاطه ينطوى على المعنى الانجازى فقط . والانسان اذا انتظر اجابة عن سؤال له أو حلا لمشكلة تعترضه فنشاطه من النوع الوظيفى . أما اذا قاده شخص الى سماع محاضرة ليس لديه ميل لسماعها فنشاطه سلبى ، والفائدة التى تعود عليه من سماعها قد تكون ضئيلة ثم لا تلبث أن يزول أثرها بسرعة وبالتالى فان قيمتها التربوية لا تعد شيئا مذكورا .

أما النشاط الذى يحقق هدفا تربويا فهو الذى ينبعث من الطاقة الذاتية والقوى الحية الكامنة عند الطفل . وهذه الطاقة اذا ما انطلقت عن طريق أحد

الدوافع أو المثيرات سواء أكانت مشكلة تطلب حلا أم صعوبة يراد تخطيها أم حاجة تتطلب اشباعا — فانها تؤدى الى بذل المجهود والى الخلق والابداع ، ويكون من نتائجها الرغبة المتجددة فى متابعة العمل والغبطة التى تملأ النفس والشعور بالرضا والارتياح كلما انتقل الفرد من خطوة الى أخرى وأخذ يسلك الطريق ويذلل الصعوبات التى تعترضه حتى يصل الى الحل الأخير أو النتيجة التى يرجوها ويحقق الغاية التى يسعى اليها .

والتربية ليست فى الواقع سوى عملية نمو ينبغى أن يتم فى ظروف مواتية عن طريق تهيئة البيئة الصالحة التى تعمل على انطلاق القوى الكامنة فى الطفل وهى القوى التى تتطلع الى التفتح والازدهار عن طريق اشباع الميول والرغبات . والطفل لابد أن يمارس ألوان النشاط التى تساعده على تنمية ميوله واستعداداته وقدراته ، ولا بد له من أن يعمل لكى تتم عملية النمو ، لأن العمل نشاط ضرورى ولازم لنمو الكائن الحى . والتربية الحديثة بطرقها وأساليبها تقوم على أساس فهم النشاط بمعناه الوظيفى كما أوضحناه — ويمكننا أن نتصور النتائج التى تترتب على هذا الفهم فى عملية التربية . فلقد أصبح قانون الاهتمام أو قانون الحاجة هو المحور الذى تدور حوله عملية التربية فى « مدرسة النشاط » ، وهذا القانون هو أساس النشاط لدى جميع الكائنات الحية . فالحاجة تبعث دائما الى النشاط والفعل الذى لا يرتبط باحدى حاجات الفرد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يعتبر شيئا مخالفا للطبيعة ولا يأتيه الفرد الا مرغما أو كارها . وفى المدرسة التقليدية كان التلاميذ يطالبون بدراسة أشياء لا تشبع لديهم حاجة ما ، وكانوا يطالبون ببذل جهود لا تستجيب لقانون الحاجة . ومن ثم فكان لابد للمدرسة التقليدية من اللجوء الى وسائل الترغيب والتهديد ، وألوان الثواب والعقاب،وغير ذلك من وسائل اثارة الأفعال والجهود عن طريق الدوافع غير الطبيعية مما يجعل العمل نفسه غير طبيعى لأنه غير وظيفى لا يستند على مبدأ الحاجة . فالحاجة هى التى تحرك الأفراد وهى التى تشحذ الدوافع التى تثير النشاط وهذه ظاهرة واضحة فى كل لحظة من حياتنا اليومية .

أما مدرسة « النشاط » أو المدرسة الحديثة فانها تتخذ المبدأ الوظيفى أساسا ودليل هدى لكل نشاط يمارس فيها ، وفى ذلك يقول المربى السويسرى «كلاپارد»

Claparede « اذا أردت أن يعمل تلميذك فضعه فى ظروف من شأنها أن تشعره بالحاجة الى القيام بالعمل الذى تنتظره منه »[١] .

ان المبدأ الوظيفى فى التربية يذكرنا بأن وظيفة العمل هى اشباع الحاجات العضوية أو العقليــة لدى الكائن الحى ، كما أنه يوضح قيمة المعلومات التى نكتسبها أو نحاول اكتسابها ، فليس للمعرفة قيمة الا بالقدر الذى تستخدم فيه لتعديل سلوكنا ومساعدتنا على الوصول الى الغاية التى نسعى اليها ، واشباع الحاجة التى دفعتنا الى اتخاذ سلوك معين ، والمعرفة ليست غاية فى ذاتها ولا قيمة لها الا من الناحية الوظيفية . والتربيــة الوظيفية تقوم على أساس الحاجة الى المعرفة ، والحاجة الى البحث ، والحاجة الى المشاهــدة ، والحاجة الى العمل . فالحاجة والاهتمام الذى يتولد عنها هما العاملان اللذان يصبح الفعل بفضلهما فعلا حقيقيا وبالتالى ذا قيمة تربوية .

والسؤال الذى يتبــادر الى الذهن الآن هو : كيف يمكن تزويد التلاميذ بالبواعث التى تدفعهم الى العمل ؟ وكيف نجعل التلاميذ يرغبون بكل قواهم فى دراسة الحساب والتاريخ والجغرافيا وقواعد اللغة وغيرها ؟ والجواب على هذا السؤال يتلخص فى أننا لا نستطيع تزويد التلاميذ ببواعث على العمل ما دامت المدرسة بمناهجها وأساليبها وطرقها بعيدة كل البعد عن الحياة ، وما دام بين المدرسة والحياة جدار لا تستطيع الحياة أن تنفذ منه . فيجب أن تنظم المناهج الدراسية فى ضوء أن المعرفة ينبغى أن تكون دائما فى خدمة العمل ، وأن رسالة المدرسة هى اعداد التلميذ للحياة عن طريق الحياة لأجل الحياة .

ان الفهم الوظيفى للتربية يحتم اتخاذ ميول الأطفال وحاجاتهم مركزا تدور حوله المناهج وألوان النشاط التى تمارس فى المدرسة ، وكذلك طرق التدريس التى تستخدم فيها . كما ينبغى أن تفهم التربية على أنها عملية تكيف وتلاؤم دائم مع البيئة التى يعيش فيها التلميذ سواء أكانت بيئة طبيعية أم بيئة انسانية . وهذا التكيف يتم تدريجيا عن طريق العمليات الذهنية والعقلية . والعملية التربوية لابد أن تكون بدايتها نشاط التلاميذ الذهنى واليدوى وميولهم ورغباتهم الملحة

---

(١) التربية الوظيفية P. 170. L. Education Fonctionnelle

التى تظهر فى اتجاهاتهم ومحاولاتهم التعرف على الأحداث والظروف التى يعيشون فيها والتى تؤثر فيهم ويتأثرون بها ، أى يتفاعلون معها .

فالتربية ينبغى أن تبدأ من الواقع وبما هو موجود فعلا ، لكى تستطيع أن توجه وتقود نحو ما هو أفضل ونحو ما ينبغى أن يكون .

مدرسة النشاط :

لعل أهم عيب أخذه أصحاب « مدرسة النشاط » على المدرسة التقليدية هو أنها جعلت من التلميذ مجرد مستمع للدرس الذى يلقيه المعلم — ولعل الأثاث الذى زودت به المدرسة التقليدية وما يشمله من أدراج ومقاعد دليل له معناه فى هذا الصدد .

فيحكى أن الفيلسوف المربى الأمريكى « چون ديوى » ذهب ذات يوم الى محل لبيع الأثاث المدرسى للبحث عن مناضد تصلح لمختلف الأشغال والأعمال التى سوف يمارسها التلاميذ فى مدرسته التجريبية . ولما لم يجد ما يبحث عنه قال له تاجر الأثاث : أخشى ألا يكون لدينا ما يلزمك فأنت تريد أثاثا يسمح للتلاميذ بأن يقوموا ببعض الأعمال ولكن ما عندنا صنع ليمكنهم من الاستماع . ويقول « ديوى » ان هذا الجواب يمثل التربية التقليدية ، ويعطى فكرة عن طرق التعليم المتبعة فيها . حقا أن تلاميذ المدرسة التقليدية لا يكتفون دائما بالاستماع فهناك ساعات مخصصة للعمل الفردى ، بل يعترف أصحاب مدرسة النشاط بأن المدرسة التقليدية تتطلب من تلاميذها الكثير من الأعمال ، ولكن ليس من أتباع مدرسة النشاط هؤلاء الذين يفرضون على تلاميذهم دروسا يستظهرونها أو مجموعة من تمارين الترجمة والتعبير والانشاء — وليس من أتباع مدرسة النشاط هؤلاء الذين يعتمدون كثيرا على ما يحفظه التلاميذ عن ظهر قلب . ان المدرسة التقليدية لا تترك شيئا لاختيار التلميذ ، بينما العمل الجدير بالانسان والعمل المثمر حقا هو الذى يؤديه الفرد فى حرية تامة ، ولذلك يقول أنصار المدرسة الحديثة ان المدرسة التقليدية ليس فيها نشاط بالمعنى الحقيقى ، وخاصة فى مراحل التعليم الأولى حيث يكون تناول الأشياء وتداولها واختبارها من أهم وسائل تكوين عقلية الطفل فى هذه السن . كما أن الرغبة فى التعرف على الأشياء عن طريق الحل والتركيب تعتبر أحد ميول الطفل التلقائية والطبيعية . فالطفل يحب

الطبيعة ، ونحن نضعه فى غرف مقفلة . والطفل يحب اللعب ، ونحن تتطلب منه أن يعمل . والطفل يود أن يرى نشاطه يستخدم لغرض ، ونحن تتصرف بحيث يبدو نشاطه بلا هدف . والطفل يحب الحركة ، ونحن نفرض عليه أن يبقى ساكنا. والطفل يحب الاتصال بالأشياء ، ونحن نجعله يتصل بالأفكار فقط . والطفل يود أن يستخدم يديه ، ونحن نجعله يستخدم ذهنه فقط . والطفل يحب الكلام ونحن نفرض عليه السكوت ، وهو يريد أن يفكر ، ونحن نطلب منه أن يحفظ ، وهو يود أن يبحث عن العلم، ونحن نقدمه له « جاهزا » . وهو يود السير وراء رغباته ، ونحن نخضعه لرغبة الكبير . والطفل يود أن يتحمس لبعض الأعمال أو الأفعال ، ولكننا اخترعنا العقوبات ، والطفل يريد أن يقدم الخدمات فى حرية ، ونحن نعلمه الطاعة العمياء .

أما مدرسة النشاط فعلى العكس من ذلك تشجع قيام جميع الأجهزة بوظائفها ؛ يستوى فى ذلك الوظائف العقلية والعاطفية والعضوية . ففى مراحل التعليم الأولى يعمل التلميذ الصغير واقفا أو جالسا ، ولكنه حر يستطيع التحرك ليستفسر عن شىء ، أو يطلع على صورة أو كتاب . وفى مدرسة النشاط يتعلم الطفل القراءة والكتابة ومبادىء الحساب باستخدام يديه التى تساعد عينيه وعقله كما تساعده الأعمال التى يقوم بها والأشياء التى يتناولها والتى توضع أمامه وتحت تصرفه ، والنباتات التى يشاهد نموها والحيوانات التى يربيها ... الخ كل ذلك يساعد على تنمية الحواس وتقوية ملكة المشاهدة والملاحظة ، كما يعمل على تنمية المهارات اليدوية .

ثم أن التلميذ فى المرحلة التى تلى المرحلة الأولى يتعلم احدى الحرف التى تنمى لديه احدى المهارات . كما تلقى عليه بعض المسئوليات البسيطة التى تتصل بتنظيم سير العمل فى المدرسة من نظافة ونظام ومراقبة احترام الأنظمة وغير ذلك كما يتعلم فن قيادة الجماعة التى تقوم بأداء عمل مشترك يؤدى الى تحقيق هدف معين . وتشكيل عقلية التلميذ فى مدرسة النشاط لن يكون عن طريق الكتاب وحده كما فى المدرسة التقليدية ، ولكن يدخل فى هذا التكوين ناحية عملية وهى العمل المدرسى الذى يهدف الى اكتساب المعلومات والخبرات عن طريق المحاولات الفردية ، فتتخذ مدرسة النشاط من قول « جون ديوى » Learning by doing

« التعلم عن طريق العمل » . دليل هدى لها — [١] فالطفل فى المدرسة الحديثة ينبغى أن يتحسس وأن يحاول قبل أن يصل الى النتيجة وتتم عملية تعليمه عن طريق هذا التحسس وتلك المحاولات لذلك نجده لا يحب أن يقوم أحد بأداء عمله بدلا منه ، ولكنه يرغب دائما فى أن يقوم بالعمل بنفسه ولسان حاله يقول : « ساعدونى لأعمل وحدى » .

وظيفة المعلم فى مدرسة النشاط :

وفى ضوء هذا الفهم الجديد للتربية والنشاط تغيرت وظيفة المعلم تغيرا كاملا . فلم يصبح ذلك الفرد الذى يعرف كل شىء أو الذى يدعى معرفة كل شىء ، كما لم يعد ذلك الفرد المكلف بتشكيل ذكاء التلميذ وحشو ذهنه بمختلف المعارف والمعلومات ، وانما أصبحت وظيفته اثارة الميول وايقاظ الحاجات العقلية والأخلاقية والاجتماعية عند الطفل ، وأصبح بالنسبة لتلاميذه موجها ومساعدا ومعاونا أكثر منه ملقنا — وبدلا من أن يكتفى بنقل المعلومات والمعارف الى تلاميذه سوف يقوم بمساعدتهم على اكتسابها بأنفسهم عن طريق العمل والبحث الشخصى — ولن يكون الدافع للتعلم الخوف من العقاب أو الطمع فى الثواب وانما يوجد الدافع فى الميل العميق نحو الشىء المراد تمثله أو العمل المراد أداؤه — فالتلميذ لا يعمل عملا أو يسلك سلوكا معينا بقصد اطاعة أوامر الكبير أو ارضاء له وانما لأنه يشعر فى قرارة نفسه بالرغبة فى هذا العمل أو اتباع ذلك المسلك . وبالاختصار يحل « الدافع الذاتى » فى مدرسة النشاط محل الدافع الخارجى المفروض على التلميذ من المعلم أو من المناهج المقررة .

---

(١) كان الفيلسوف والمربى الامريكى جون ديوى أول من أوضح هذا الاتجاه التربوى وحاول تطبيقة منذ عام ١٨٩٦ فى مدرسته التجريبية الملحقة بجامعة شيكاغو حيث طبق فيها مبدأ التعلم عن طريق العمل — لأن التعلم كما يقول الفيلسوف « البراجماسى » : « يتم عن طريق ايجاد حل لمشكلة حقيقية » ، وقد سار فى نفس الاتجاه واستوحى من نفس المبادىء المربى النمسوى Kerchensteiner الذى بدأ منذ ١٩٠٨ بنشر فكرة مدرسة العملArbeitschule وفى سنة ١٩٠٩ أوضح الفرنسى Binet أهمية نشاط التلميذ فى عملية التعلم واكتساب المعلومات . ومنذ سنة ١٩١٧ استخدم Bovet السويسرى مصطلح مدرسة النشاط ، الذى انتشر منذ ذلك الوقت فى عالم التربية وميادين تطبيقاتها .

طرق النشاط فى التربية :

لقد نجحت التربية الحديثة فى ادخال طرق تربوية تهدف الى تربيـة الجسم والعقل وتكوين الخلق ، واعتمدت كلها أو أكثرها على حاجة الطفل الى بذل النشاط المحبب الى نفسه . وهذه الطرق بالرغم من تعدد صورها ومظاهرها فانها تتجه جميعها الى ميول التلاميـذ فى كل مرحلة من مراحل النمو ، وتعمل على تهيئة البيئة التربوية الصالحة التى تمكن التلميذ من الاتصال بمصادر المعرفة لكى يسهم بنفسه فى تنمية ذاتيته ، وتجعل اكتساب المعلومات وتكوين عادات التفكير السليم من عمل التلاميذ أنفسهم عن طريق ايقـاظ ميولهم وتشجيع اتجاهاتهم وتنمية رغبتهم فى الاستزادة من المعرفة — وهى بذلك تحارب كل ما من شأنه أن يجعل موقف التلميذ سلبيا يتلقى المعلومات من غيره أو عن طريق الكتب كما تفعل طرق التعليم التقليدية . وهذا التعريف بطرق النشاط فى التربية أو الطرق الفعالة يكفى لايضاح الخطأ الذى يقع فيه الكثيرون ممن يعتقدون أن تطبيق أو استخدام طرق النشاط فى الأعمال العقلية لابد أن يصاحبه نشاط يدوى أو حسى حركى . والحقيقة أن استخدام الطرق التى تقوم على أسـاس من ميول التلاميذ الذهنية والعقلية لابد أن تتخذ شكلا عمليا وبناء ما دامت عقلية الطفل فى مرحلة معينة وفى سن معينة تتجه نحو هذا اللون من النشاط ، وما دام الطفل لا يستطيع أن يصل الى فهم الحقيقة الا عن هـذا الطريق . ثم ان هذه الطرق تتطور وتصبح أكثر « عقلية » كلما اتجهت ميول التلميذ نحو الميول المجردة ، ثم الميول المنطقية ، وبذلك تتعدل طرق النشـاط فى تطبيقها تبعا لمراحل النمو العقلى ، وتبعا لمرحلة التعليم ابتدائية كانت أم ثانوية أم عالية .

ويرجع أهمية طرق النشاط فى التربية الى اعتبارات سيكولوجية واعتبارات انسانية بالاضافة الى الاعتبارات الاجتماعية مما جعلها وسائل فعالة فى تكوين عقلية التلميذ الأخلاقية والاجتماعية . وهذه الطرق يمكن استخدامها فى جميع المراحل الدراسية وفى مختلف المستويات — فينبغى أن يرى الطفل وأن يلمس ، وأن يتداول كل ما يريد أن يتعلمه . والمقصود هو الاتصال بالحياة ومشاهدتها مشاهدة مباشرة فى كل تعقيداتها الحقيقية لا بعض عناصرها المبسطة — فالتعلم يجب أن يبدأ بالاتصال المباشر بالحقائق وبالبيئة المحيطة بالطفل وبالحياة ، وفى ذلك

يقول«دكرولى»«من الواضح لكل من يعرف الطفل عند دخوله المدرسة الابتدائية أن العمل الذى يفيد منه الطفل والذى يتلاءم مع وسائله وطرق تفكيره هو الذى يتم عن طريق اتصاله بالأشياء وبالعالم الخارجى »[1].انموقف التلميذ يشبه موقف الباحث الذى اعتاد أن يتصل اتصالا مباشرا بمصادر المعرفة ويحاول النفوذ الى أسرارها وقواعدها عن طريق نشاطه وتعبيره الذاتى،وسوف يحتفظ بهذا الموقف حتى اذا أصبح العمل أكثر تجريدا ، فقد اكتسب الطفل عادة المشاهدة والملاحظة بنفسه والتعلم عن طريق عمله ومجهوده الشخصى ، وأصبح يعمل على توسيع دائرة معلوماته باللجوء الى مصادر أخرى غير الكتاب المدرسى مثل زيارة المتاحف والأماكن الأثرية والاتصال بالطبيعة ، حيث يستطيع أن يرى الأشياء فى بيئتها الطبيعية ، وأن يرجع الى المطبوعات المختلفة التى تلقى ضـوءا على موضوع الدراسة .

أما الحياة الاجتماعية فى المدرسة الحديثة فتقوم على أساس تنظيم الروابط والاتصالات التى تنشأ بين التلميذ وبين زملائه ، وبينه وبين المعلم ، ثم ان هذه الروابط من شأنها أن تثير حاجة الطفل الى العمل ، وبالتالى الى التعلم ، ولعل هذا من بين الأسباب التى جعلت للعب فى جميع مراحل النمو مزايا تربوية كثيرة وجعلت طرق النشاط تستغل اللعب فى العمل العقلى بجانب استغلاله فى تعلم أدب الأخلاق والخضوع لمقاييس آداب السلوك . وبذلك يتجنب المربى تقديم قواعد الخير والشر والحق والباطل وفقا لمفاهيم الكبار وبطريقة أساسها الوعظ والارشاد والأوامر والنواهى .

وفى مراحل النمو الأولى عند الطفل يكون اتخاذ الذات أساسا للحكم على الأشـياء égocentrisme — لذلك نجد الطفل يسير وراء ميوله الذاتيـة . وعلى ذلك ينبغى أن يحاول المربى تنظيم العلاقات بين الأطفال بشىء من الحرص وحسن التصرف حتى لا تتضاءل شخصية الطفل النامية أو يعمل على محو ذاتيته . وعند ما يكبر الطفل تلعب العلاقات بين التلاميذ دورا هاما فى حياتهم الاجتماعية ويصبح استخدامها مبدأ تربويا هاما حتى تصل به الى مستوى التعاون والتضامن

---

(١) (دكرولى — Decroly) المربى البلجيكى صاحب طريقة مراكز الاهتمام فى التربية .

وتنمية الحساسية الاجتماعية والانتماء الى جماعة واحدة . وفى هذه المرحلة من مراحل النمو أى حوالى سن الثامنة تقريبا يحاول الطفل التخلص تدريجيا من الضغط الخارجى ، فأفكاره وسلوكه يبدآن فى أخذ شكل اجتماعى أو جماعى بالمعنى الموضوعى للكلمة . فهو يفهم الأشياء فى ذاتها ويتقبل وجهة نظر الغير ويصبح قادرا على أن يتعاون مع غيره لتحقيق هدف مشترك ، وبعبارة أخرى يرتفع الى مستوى تفهم وتبادل وجهات النظر التى تتحقق بين الأقران والزملاء . وتكوين الصلات الحرة وتوثيق الروابط بينهم فى هذه السن أثناء العمل أو اللعب له أهمية كبرى فى تنمية حياة التلميذ الاجتماعية ، والانتقال به من مرحلة « الذاتية » الى مرحلة « الاجتماعية » أو من « الأنية » الى « الغيرية » ، فيتدرج نحو الحكم على الأشياء حكما موضوعيا ، ويشعر بالتقدير والاحترام للقوانين والأنظمة التى يجب اتباعها ، ولا يتحين الفرص للخروج عليها لأنها أصبحت جزءا من حياته ومن تكوينه .

وتعتبر « طرق النشاط فى التربية » الطفل وحدة متكاملة وتهدف الى تكوين شخصيات متزنة ومتناسقة بعيدة عن الأثرة والأنانية وتشجع بذل المجهود والمثابرة على العمل لأن بذل الجهد المفروض لا يلبث أن يتحول الى « سخرة » والى عمل ليس له هدف واضح . وهذا تعريف سريع لبعض طرق التربية القائمة على نشاط الأطفال .

١ — طريقة دولتن Dalton Plan — استخدمتها Miss Helen Parkhurst فى أمريكا منذ أكثر من ثلاثين سنة وفيها يطلب الى كل تلميذ أن يتم عملا أو جزءا من العمل فى تاريخ محدد ويسمى هذا الجزء من المنهج « بالتعيين » ويحال التلاميذ بطريقة منظمة الى مراجع مصنفة بدقة — ويختار كل تلميذ عمله فى حرية ، ويقوم باتمامه وفقا لقدراته الخاصة وامكانياته ووسائله ، ويرجع الى المعلم يطلب منه المعونة والمساعدة لتذليل بعض الصعوبات التى تقابله ، أو للوصول الى حلول للمشكلات التى تعترضه بعد أن يكون قد استنفد وسائله وتهيأت نفسه وعقله لتقبل ما يشير به المعلم — ويقوم المعلم من وقت الى آخر بتنظيم دروس جماعية لشرح بعض القواعد أو الصعوبات التى اعترضت الفصل بأجمعه ، أو مجموعة من المجموعات التى يتكون منها الفصل . وبهذه الطريقة

يمكن التوفيق بين ما يتطلب المنهج استيعابه من معلومات وبين الحرية التى تتركها للتلميذ ، وتنمية نشاطه الذاتى ، وتعويده الاعتماد على النفس ، واكتساب المعلومات عن طريق اسهامه فى عملية التعلم .

٢ — طريقة المشروع : طريقة المشروع هى بلا شك أكثر طرق التربية الحديثة انتشارا وتقوم على اعتبارات سيكولوجية واجتماعية معا . فالمبدأ الأساسى فيها هو أن الحياة قائمة على الأفعال الحقيقية ، لا على الأعمال التى تفرض على الفرد ، ولقد كان جون ديوى هو الذى أوحى بالطريقة وقام بتطبيقها ونشرها W. Kilpatrick سنة ١٩١٨ ، والطريقة توجه نشاط التلاميذ وأفكارهم نحو تنفيذ مشروع يختارونه فى حرية تامة . وهذا النشاط يكون فى الغالب نشاطا عمليا أى له هدف عملى Purposeful activity ، يوجه التلميذ ويحدد الأهداف التى يعمل من أجلها . فهو اذن نشاط غائى أى له غاية واضحة ، فاذا اختار التلاميذ مثلا دراسة مشروع « بناء حظيرة فى المدرسة » فانهم يعملون بأيديهم وأفكارهم من أجل تنفيذ المشروع ويتعاونون ويتعلمون الحساب والرسم واللغة ... الخ أثناء تنفيذ المشروع ، وتصبح مواد المنهج وسيلة لتحقيق المشروع وليست غاية فى ذاتها ، ومزايا الطريقة وفوائدها الاجتماعية والعملية تعادل المعلومات الذهنية والعقلية التى يكتسبها التلاميذ وتكون معلومات وظيفية لأن اكتسابها كان عن طريق النشاط الوظيفى .

٣ — الدراسة بطريقة الجماعات : بدأ المربى الفرنسى R. Cousinet تطبيق الطريقة منذ سنة ١٩٢٠ وأساسها انطلاق النشاط الحر عند التلاميذ عند ما يسهمون فى عمل جماعى فيختار التلاميذ موضوعا ويكونون جماعات لدراسته تتكون من خمسة أو ستة ، ويختار كل واحد منهم نقطة معينة يتعهد بدراستها وعرضها على زملائه — ويستمر التعاون بينهم كل حسب امكانياته ، وينمو التضامن بينهم . وهذه الطريقة وسيلة للتربية عن طريق الحرية .

٤ — طريقة دكرولى أو طريقة مراكز الاهتمام : وتشبه الى حد كبير طريقة المشروع وأساسها تنظيم المعلومات التى نود أن يكتسبها التلميذ حول اهتمامه بما يدور حوله من أحداث ، وما يشبع حاجاته ورغباته — الأمر الذى يساعد على تعبئة قواه ونشاطه الذهنى والعقلى ، ويدفعه الى بذل المجهود المحبب الى

نفسه — والطريقة تحاول التوفيق بين استيعاب المنهج والنشاط الحر للتلميذ ، كما تحاول التوفيق بين الحرية والنظام فى العمل المدرسى .

٥ — التعاونيات المدرسية : وهـدفها تنمية الناحية العمليـة عند التلاميذ وتنظيم الأعمال والمساهمة الفعلية فى ادارة عمل جماعى ، وفيها يتولى التلاميذ جمع وادارة مبلغ من المال لتزويد المدرسة بمعدات وأدوات ، أو بتنظيم الرحلات واصلاح الأماكن وادخال التحسين عليها ... الخ . وهى وسيلة الى دراسة فروع المواد الدراسية عن طريق مجموعة من الأعمال التى تهدف الى تحقيق هدف تسعى الجماعة الى تحقيقه .

وهكذا نجد أن طرق النشاط هى أسـاليب تربوية تقوم على أسس من معطيات علم النفس وعلم الاجتماع وسائر العلوم الانسانية الأخرى . وطرق النشاط تأخذ بدايتها دائما من الطفل كما هو ، وتقدم له الغذاء الروحى الذى هو فى حاجة اليه لكى ينمى مواهبه واسـتعداداته وتعمل على تفتح وازدهار قدراته . وأخيرا فهى تتجه نحو الميول والدوافع التلقـائية لكى تستخدمها فى عملية النمو عن طريق النشاط الفردى والجماعى . وهى باحترامها للفرد وكرامة الفرد تعمل للبناء ونشر التضامن والتعاون بين الأفراد فى المجتمعات وفى العالم .

المراجع

1. L. Education Fonctionnelle — E. Claparède.
2. Traité de Pédagogie — R. Hubert.
3. La Pédagogie Scolaire contemparaine — E. Planchard.
4. L,Education Nouvelle — Maria Médecis.
5. Les Méthodes en Pédagogie — Guy Palmade.
6. Philosophie de l'Education Nouvelle — M. Bolch.
7. L'Ecole active — A. Ferriére.
8. Les idées modernes sur les enfants. — Binet.
9. Pour ou contre l'Education Nouvelle — S. Durand.
10. L'enfance Méconnue — Dr Allendy.

القسم الثالث :

الدراسات التاريخية

١ — علاقة الصين بديار الإسلام .

٢ — الجمهوريات الإفريقية المنتمية للمجموعة الفرنسية .

٣ — المسجد فى فجر الإسلام .

علاقة الصين بدار الإسلام

للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ المساعدة

يرجع الاتصال بين الصين والعالم الاسلامى الى عهد « أسرة تانغ » التى حكمت الصين بين عامى ٦١٨ — ٩٠٥ م . وتروى المراجع الصينية أن محمدا عليه الصلاة والسلام بعث خطابا الى ملك الصين « تايتسونج » من ملوك أسرة تانغ فى سنة ٦٢٨ م ليهديه الى الاسلام ، بل ان بعض الروايات الصينية تذكر أن الملك « تايتسونج » هو الذى أرسل وفدا الى النبى عليه الصلاة والسلام ليطلب منه أن يبعث اليهم من ينشر الاسلام وتعاليمه فى الصين فأجابه عليه السلام الى طلبه ، وبعث مع الوفد ثلاثة من صحابته ، وهم قيس ووقاص وقاسم ، فتوفى الأولان منهم فى الطريق ، أما الثالث فقد أكرمه ملك الصين وأحسن ضيافته ، وأرسل الملك ثلاثة آلاف من جنود الصين مقابل ثلاثة آلاف من العساكر العرب ، وبنى لهم مسجدا فى العاصمة لنشر الاسلام ، كان نواة هذا الدين فى تلك البقاع [1].

ويفسر الرواة والمؤرخون الصينيون سبب اهتمام ملك الصين تايتسونج بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ، أن هذا الملك رأى فى منامه فى السنة الثانية لحكمه الموافقة ٦٢٨ م حيوانا مفترسا يهاجمه ، وبينما هو لا يجد مخرجا من مأزقه هذا اذ برجل وقور يرتدى طيلسانا ويلبس عمامة بيضاء ، وبيده مسبحة قد أخذ يدافع عنه . ولما أصبح الصبح جمع الملك جميع وزرائه وأمرائه وقص عليهم رؤياه ، فقال قائل منهم : ان الحيوان المفترس رمز لثائر سيثور فى البلاد ، وأما

(١) الأستاذ الصينى المسلم « محمد تواضع » : الصين والاسلام (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ص ٦١

الرجل الوقور فهو نبى من الأنبياء ، وقد ولد فى جزيرة العرب . ومعنى الرؤيا أن بلاد الصين لا يدوم أمنها وصلاحها بدون بركة هذا النبى العظيم [١] .

وقد أشار المؤرخون الصينيون [٢] الى الدين الجديد فى « مملكة المدينة » وذكروا مبادىء الاسلام قائلين : انها تختلف عن مبادىء بوذا ، وأن أتباعها لا تماثيل فى معابدهم ولا أصنام ولا صور . وأضافوا الى ذلك أن فريقا من المسلمين قدموا الى « كنتون » فى فاتحة أسرة تانج وحصلوا من امبراطور الصين على الاذن بالبقاء فيها ، واتخذوا لأنفسهم بيوتا جميلة تختلف فى طرازها عن البيوت الصينية ، وكانوا يطيعون رئيسا ينتخبونه من بينهم [٣] .

وفى بعض الأساطير عند المسلمين من أهل الصين أن الملك الأول من ملوك أسرة « صى » (٥٨٩ — ٦١٧ م) والملقب « وين تى » رأى فى ليلة من الليالى نجما باهرا فأمر رئيس الكهنة أن يتكهن له فوجد ذلك دليلا على ظهور رجل عظيم الشأن فى بلاد العرب . فأرسل الملك رسولا للتحقق من هذا الأمر . فوصل الرسول الصينى بعد سنة كاملة الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وطلب منه أن يسافر بنفسه الى الصين ، فاعتذر اليه وبعث معه أربعة من صحابته منهم خاله سعد بن أبى وقاص . وروى أن رسول ملك الصين رسم صورة رسول الله سرا ، ولما رأى ملك الصين صورته عليه الصلاة والسلام سر بها كثيرا وعلقها على حائط بلاطه ليسجد له ، فمنعه سعد بن أبى وقاص ، ولما سأله الملك عن السبب أجاب : ان رسول الله يمنعنا من عبادة الصور والتماثيل ، وانه لا عبادة الا لله وحده .

---

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦١

(٢) المرجع السابق ص ٨ و ٦١ — ٦٢ ، E. Bretschneider : On the knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies (لندن ١٨٧١) ص ٦ ، Th. Arnold : The Preaching of Islam (الطبعة الثالثة لندن ١٩٣٥ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٣) انظر : P. Dabry de Thiersant : Le Mahométisme en Chine باريس ١٨٧٨ ، ج ١ ص ١٩ — ٢٠ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام (القاهرة ١٩٤١) ص ٨

وقد أعجب الملك بهذا المبدأ وأمر ببناء جامع فى كانتون وسماه « خواى شينغ » أى « الشوق الى النبى » . وهذا الجامع موجود الى الآن ، ويقال ان سعد بن أبى وقاص كان أول من بشر بالاسلام فى الصين ، ويقال انه توفى فيها ودفن فى ظاهر مدينة كانتون بقبر لا يزال ينسب اليه [١] .

ونحن نعرف من المصادر العربية أن سعد بن أبى وقاص لم يذهب الى الصين أبدا ، والمعروف فى التاريخ الاسلامى أن سعدا حضر غزوة بدر والحديبية ، وكان بطل موقعة القادسية ، وحين ظهر النزاع بين على ومعاوية بقى محايدا . وتوفى بالعقيق على عشرة أميال من المدينة المنورة فى سنة ٥٤ هـ ، ويذكر الرواة أن مروان بن الحكم صلى عليه وأنه دفن بالبقيع .

أما سعد بن أبى وقاص أو « وقاص » الذى ذكرت المراجع الصينية أنه بشر بالاسلام فى الصين فتذكر المراجع الصينية أنه عاد الى بلاد العرب عن طريق البحر ثلاث مرات ، فى المرة الأولى للكتب الدينيـــة ، وفى الثانية لنسخة من القرآن الكريم ولاستشارة النبى عليه الصلاة والسلام فى مسألة الدعوى والارشاد فى الصين ، فقال له الرسول خذ معك ما نزل من الآيات ، وسأبعث اليك الآيات التى سأتلقاها من الوحى ، وذهب فى المرة الثالثة لعيادة الرسول حين سمع بمرضه ثم رجع الى الصين بنسخة كاملة من القرآن .. وقد توفى بكانتون ، وله مقبرة هناك باقية الى الآن .

وقيل أيضا أن سعد بن أبى وقاص بنى جامعا فى عاصمة الصين حينئذ وهى جانغ آن ، ثم أنشأ مسجدين آخرين أحدهما فى كيانغ نينغ (نانكين) والآخر فى كانتون ، واشتهر جامع كانتون باسم « واى شن تزى » ، أى «جامع الذكرى للنبى عليه الصلاة والسلام » ، وطبيعى أن صاحب الضريح لا يزال مجهولا عند المؤرخين ، وقد يكون اسمه مشابها لاسم سعد بن أبى وقاص [٢] .

---

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦١ ــ ٦٢ دكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٩ ، الأستاذ الصينى المسلم « محمد مكين » نظرة جامعة الى تاريخ الاســلام فى الصين وأحوال المسلمين فيها (المطبعة الســلفية بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ) ص ٦ ــ ٩

(٢) انظر الأستاذ الصينى المسلم « بدر الدين حى الصينى » : العلاقات بين العرب والصين (مكتبة النهضة المصرية ــ الطبعة الأولى ١٩٥٠) ص ١٥٤ ــ ١٥٨

ولم يتفق كتاب الصين القدماء على سنة وصول الاسلام الى الصين ، كما أنهم لم يتفقوا على أول من جاء بالاسلام الى الصين .

والظاهر من الروايات التى ذكرها المؤرخون الصينيون أنها لا تقوم على أساس علمى صحيح . فالبعض يزعم أن الاسلام دخل الصين منذ عهد أسرة « صى » أو « صوى » ، أى بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، ويمكننا الرد على هذا بأن النبى عليه الصلاة والسلام كلف بالرسالة بعد سنة ٦٠٥ م ، أما السنوات التى بين ٦١٨ و ٦١٦ م فقد شغل الرسول فيها بالدعوة الى الاسلام ومناهضة كفار قريش . ولم يوجه الرسول عليه الصلاة والسلام الدعوة خارج شبه الجزيرة الا فى أواخر السنة السادسة للهجرة ، وهى توافق ٦٢٧ م ، ونلاحظ أن ابن هشام لم يذكر فى سيرته أى شىء عن ارسال النبى عليه الصلاة والسلام كتابا الى الصين يدعو الى الاسلام ، وان كان هـذا لا ينفى نفيا مؤكدا وجود أى اتصال بين المسلمين والصين فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام [١] .

وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » . واذا كنا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الحديث ونسبته الى الرسول عليه الصلاة والسلام فاننا نستدل منه على أن العرب كانوا يعرفون الصين كما كانوا يدركون بعدها عنهم .

***

لم تكن علاقة الصين بالعرب وليدة العصر الاسلامى ، بل بدأت قبل الاسلام بقرون . وكانت علاقة غير مباشرة أولا ثم تطورت الى علاقة مباشرة قبل ظهور الاسلام ، وقد توثقت تلك العلاقة فى العصر الاسلامى . والمعروف أن أسرة « تسين » التى حكمت من ٢٤٦ — ٢٠٧ ق.م وحدت البلدان الصينية وجعلت منها أمة واحدة . واتصلت الصين بالممالك المجاورة مثل بلاد الترك والهند وايران وغيرها . فظهر اسمها فى العالم ، وعرفت بلاد الصين من ذلك الحين باسم «الصين» عند العرب و « جين » عند الهنود والفرس والأتراك و China فى اللغات الأفرنجية ، وكلها محرفة عن كلمة « تسين » [٢] .

---

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٢ — ١٥٣

(٢) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٥

ومن الثابت أنه منذ القرن الثانى قبل الميلاد اتصلت الصين بطريق القوافل بالبلاد التى تقع غربها ، وكانت كلمة (البلاد الغربية) فى تاريخ الصين القديم تعنى البلاد التى تقع فيما وراء حدود الصين الغربية من التركستان الى البحر الأسود . وكانت قوافل الصين تتقابل مع قوافل ايران والعراق وبلاد آسيا الغربية فى بلاد ما وراء النهر مثل بخارى ، وقد يتصل تجار غرب آسيا بالصين مباشرة ولا يكتفوا بمقابلة تجار الصين فى بلاد ما وراء النهر . وكانت آخر محطة يصل اليها التجار شرقا هى مدينة « سى آن » عاصمة الصين القديمة وغربا مدينة « خيوا » عاصمة ايران .

أى أن الصينيين اتصلوا بايران مباشرة بطريق البر عن طريق بلاد التتار أو تركستان ، كما اتصلت العراق وأرمينيا والقسطنطينية بالصين بواسطة ايران . ومن المحتمل أتجار العراق أو الشام ومصر زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التى كانت تتردد الى « سى آن » بين حين وآخر [١] .

والمعروف أن تجارة الحرير بين الصين وروما وبيزنطة كانت تمر بايران وبلاد الجزيرة آتية من وسط آسيا . وظلت هذه التجارة فى يد الايرانيين عدة قرون . وكان الصينيون والايرانيون قبل الاسلام بمدة طويلة يعجب كل منهم بالموضوعات الزخرفية على المنسوجات فى البلد الآخر ويعمل على محاكاتها ، فتخرج مصانع النسج أقمشة صينية نفيسة ذات زخارف ساسانية ، وأقمشة ايرانية ذات زخارف صينية ، بل ان فى القصص والأساطير الايرانية ما يدل على أن صناعا من الصين كانوا يعملون لبعض ملوك الدولة الساسانية فى صنع التحف والتماثيل ، ولم يضعف اتصال ايران بالصين حين نقصت تجارة المنسوجات الحريرية بسبب تربية دودة القز فى بيزنطة منذ منتصف القرن السادس الميلادى [٢] .

وقد جاء فى عدة مواضع من الشاهنامة للشاعر الايرانى الفردوسى ذكر التحف الواردة من الصين . من ذلك اشارة الى جارح أسود ، كان أكرم الجوارح على

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٨ — ١٣

(٢) راجع الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ، ص ٧ ؛
E. Diez : Die Kunst der islamischen Völker, XVII ص

الملك بهرام ، وكان الخاقان ملك الصين قد أهـداه اليه « مع جملة من الهدايا والتحف وسائر ما يجلب من أرض الصين »[١] .

والراجح أنه حتى القرن الثـانى بعد الميلاد كانت الصـين تتصل مباشرة وبواسطة البر بالبلاد التى فى غربى آسيا ، خصوصا ايران وكانت علاقتها بروما وبيزنطة علاقة غير مباشرة . ولكن التجار الرومان والبيزنطيين جهدوا بعد ذلك فى انشاء رابطة مباشرة مع تجار الصين بحرا فى القرن الثانى الميلادى .

وكانت موانىء الشام ومصر هى طريق الاتصال بين الرومان والبيزنطيين من جهة ، وبين الصين من جهة أخرى . وذلك عن طريق البحر الأحمر وخليج فارس ومالابار وسرنديب وسومطرة وملقا وتونكين ، ومن ثم الى أقرب المرافىء بجنوبى الصين . وتعرف مصر فى المراجع الصينية باسم بلاد « هاى سى » أى بلاد غرب البحر ، وكان نهر النيل معروفا عند الصـينيين كذلك ، وكانت الاسكندرية معروفة لديهم باسم « كسند »[٢] .

ومما يبين اتصال مصر بآسيا الوسطى والأقاليم الغربية من الصين الزخارف القبطية التى ترى على قطعة من جلد كتاب عثرت عليه فى مدينة خوتشو ، البعثة العلمية الألمانية التى قامت بالحفائر فى طرفان وغيرها من المراكز الفنية فى بلاد التركستان الصينية ، كذلك لوحظ أن بعض الرسوم والتزاويق البوذية فى طرفان عليها مسحة مصرية قديمة ، مما يمكن تفسيره بأن أولئك الفنانين فى غربى الصين وصلهم شىء عن الفن المصرى القديم[٣] .

وتشهد الكتابات الأثرية والوثائق التـاريخية بازدهار التجارة بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة ، وتعددت السلع التى كانت تنقل من أسواق الصين

---

(١) انظر كتاب الشاهنامة (طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام) ج ٢ ص ٨٨ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢١ — ٢٢

(٢) انظر :

Hirth (F.) and Rockhill (W.) : Chau Ju-Kua
(St. Petersburg, 1911) p. 5
Hirth (F.) : China and the Roman Empire
pp. 175, 180—181 (Leipzig 1885)

وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢ — ١٤

(٣) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٧ — ٨ وما ذكره من مراجع وما أشار اليه من أشكال .

والهنـد وبلاد العرب والحبشـة وافريقية الشرقية الى بلاد الشـام ومصر والامبراطورية الرومانية . والمعروف أن الطرق التجارية الأساسـية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة والعصور الوسطى كانت ثلاثة ، فكان هناك الطريق البرى الذى كان يأتى من الصين الى نهر أكسوس (جيحون) ويلتقى بالطريق البرى الذى يسير فى الجبال من الهند الى نهر جيحون ، ويتفرع بعد ذلك عند بخارى أوسمرقند ، ويؤدى فرع منه الى شمالى بحر قزوين ثم نهر الڤلجا ، ويسير الثانى الى جنوبى بحر قزوين فالبحر الأسود عند طرابيزون والقسطنطينية ، وكان هذا الطريق يعبر الجبال العالية والمسافات الطويلة ، فلم يكن يصلح الا لنقل السلع الصغيرة الحجم والغالية الثمن .

أما الطريق الثانى فكان بحريا فى جزء كبير فكانت السفن تأتى من الصين والهند الى اليمن مباشرة أو الى عمـان حيث تنقل السلع بالقوافل الى اليمن ، وكان من عيوب هذا الطريق المسافة الطويلة التى كان على السفن أن تجتازها فى عرض المحيط الهندى من ساحل الهند الى البحر الأحمر . وقد أمكن التغلب على هذا العيب حين كشف الملاحون امكان الافادة من الرياح الموسـمية ، وكانت السفن التى لا تفرغ السلع فى اليمن بل تتقدم فى البحر الأحمر تلاقى صعوبة كبيرة فى الملاحة فى هذا البحر ، وكان علاج هذا أن تتجنب السفن الملاحة فى القسم الشمالى من هذا البحر ، وأن تتجه الى بعض الموانىء المصرية الواقعة فى غربى البحر الأحمر مثل برنيقة Berenice مقابل مدينة أسوان ، وذلك فى العصور القديمة ومثل عيذاب فى العصر الاسلامى . أما أقدم هذه الطرق وأعظمها شأنا فكان الطريق الأوسط بين الطريقين السابقين ، وكان الجزء البرى فيه يبدأ عند الخليج الفارسى (أو خليج البصرة أو الخليج العربى) أو من احدى المدن على دجلة أو الفرات ثم تنقل البضائع بطريق الصحراء الى دمشق ، ومنها الى موانىء الشام على البحر المتوسط أو الى مصر .

***

ونحن نعرف أنه بعد وفاة الأسكندر الأكبر المقدونى سنة ٣٢٣ ق.م ، قام النزاع بين خلفائه ودامت الحروب الأهلية بينهم نحو أربعين عاما ثم تمخضت عن استقرار الحكم لثلاثة من قواده هم : بطليموس الذى أسس دولة البطالمة فى

خريطة تبين الطريق البحرى إلى الصين من الأبلة وسيراف إلى كانتون

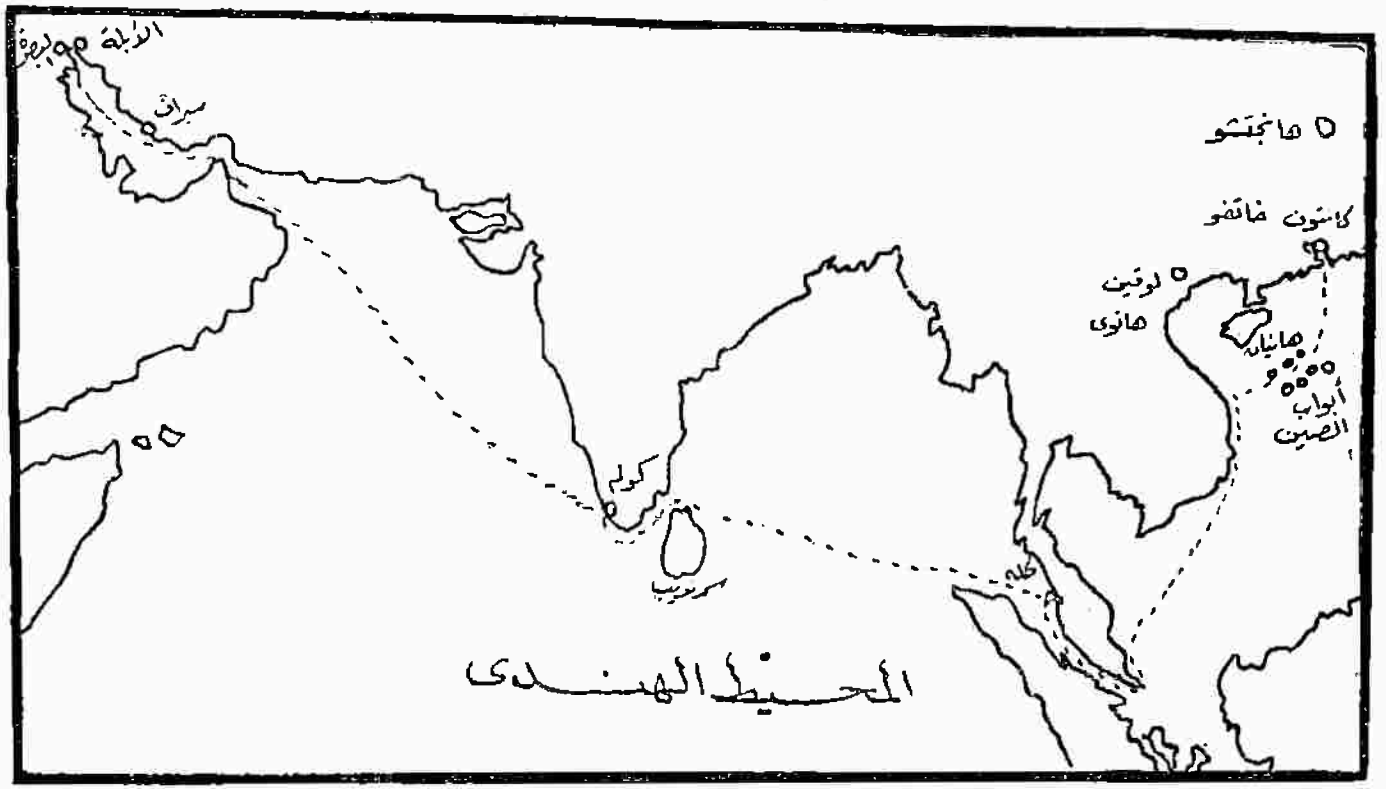

مصر وأنتيجونوس Antigonus الذى حكم فى مقدونية وبلاد اليونان ، وسلوقس Seleucus الذى أسس دولة السلوقيين فى الشام وبلاد الرافدين وايران ، ولكن نفوذ السلوقيين لم يلبث أن زال عن ايران وضعف اهتمامهم بالجزء الشرقى من امبراطوريتهم ، ثم انتهى نفوذهم فى العراق نحو سنة ١٣٥ق.م وأصبح مقصورا على الشام ، وكان ذلك بسبب قيام دولة ايرانية نحو سنة ٢٥٠ ق . م تسمى دولة البارثيين أو الفرثيين Parthians قامت فى هضبة ايران ، ثم مدت نفوذها الى العراق وظلت تحكم الى أن خلفتها الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ بعد الميلاد . كما أن الحاميات اليونانية فى وادى سيحون وجيحون فى بلاد التركستان لمست ضعف العناية التى يوجهها السلوقيون الى هذا الاقليم ، فاستقلت نحو سنة ٢٦٠ ق.م وأسست دولة صغيرة هى دولة بكتريا Bactrea (أو دولة البخت) ومدت سلطانها الى الأقاليم الشمالية الغربية من الهند واستطاعت أن تعيش على احتكار التجارة الواردة من الصين وآسيا الوسطى ولكنها لم تستطع الصمود أمام ضغط البارثيين فسقطت فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وعمل ملوك البارثيين فى ايران والعراق على تحويل جزء كبير من تجارة الهند والصين الى الطرق البرية والى طريق الخليج الفارسى ، ولكن التجار اليونان فى مصر والشام عملوا على تنشيط التجارة مع الشرق بطريق البحر الأحمر ، وعنى البطالمة فى مصر بتشجيع التجارة بين الموانىء المصرية على البحر الأحمر والبحار الجنوبية وأصلحوا الطرق بين وادى النيل والموانىء المصرية على البحر الأحمر ، كما أصلحوا القناة التى كانت تصل الفرع البلوزى[1] من فروع النيل فى الدلتا بالبحيرات المرة وخليج السويس ، وشيدوا السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر الى خليج عدن حيث تلتقى بالملاحين والتجار من العرب الجنوبيين والهنود . ولما تم استيلاء الرومان على الشرق الأدنى نحو سنة ٣٠ ق.م زادت العناية بتجارة الشرق وظل التنافس قويا بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الايرانية فى السيطرة على التجارة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط .

---

(١) نسبة الى مدينة بلوزيوم Pelusium القديمة أو الفرما على البحر المتوسط شرقى بور سعيد الحالية .

وفى بداية العصر الرومانى كانت سيطرة العرب الجنوبيين على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر من القوة بحيث استطاعوا الاحتفاظ باحتكار الوساطة بين التجار القادمين من مصر أو موانىء البحر المتوسط ، والتجار القادمين من الشرق ، فكانوا يمنعون كل فريق من أن يجاوز خليج عدن للاتصال رأسا بالفريق الآخر ، فكانت البضائع تخزن فى الموانىء العربية ، ثم يتولى التجار العرب نقلها ، ولكن الرومان لم يصبروا طويلا على هذه الوساطة فسيروا السفن يحرسها الجنود .

ويبدو أن البحارة العرب كانوا يستخدمون الرياح الموسمية فى الملاحة من خليج عدن الى الساحل الهندى ، ولكن الاستعانة بهذه الرياح لم تكن معروفة للملاحين الرومان قبل منتصف القرن الأول الميلادى ، فلما فطنوا اليها قضى ذلك على سيطرة العرب الجنوبيين على التجارة بين الشرق والغرب ، ونمت التجارة بين مصر (التابعة للرومان) والهند رأسا . والظاهر أيضا أن الملاحة البحرية لم تكن منظمة قبل عهد الساسانيين [١] .

ومنذ القرن الخامس الميلادى تقدمت الملاحة بين غربى آسيا وشرقيها على يد ملاحين من الهنود والعرب والفرس والصينيين ، وأدى ذلك الى الملاحة فى عرض المحيط من جزيرة سرنديب الى ملقا (الملايو) وجاوة والموانىء الجنوبية فى الصين وكانت النتيجة لزوال احتكار العرب لتجارة الشرق ان ضعف شأن الموانىء التجارية فى شبه الجزيرة مثل عدن وجرة (الجرعاء) ثم دب الاضمحلال الى بلاد اليمن .

وقد اتسعت التجارة بين الصين والهند ، وبين موانىء البحر المتوسط فى القرن السادس الميلادى بطريق سرنديب (سيلان) وزاد اتساعها فى القرن السابع الميلادى ، وأصبح ثغر سيراف على الخليج الفارسى مركزا لتوزيع البضائع الصينية فى ايران وبلاد العرب ، وقد ذكر المسعودى أن سفن الصين والهند كانت ترد فى نهر الفرات الى ملوك الحيرة [٢] . ويروى البلاذرى [٣] أن عتبة بن غزوان

---

(١) Hadi Hassan : A History of Persian Navigation (London, 1928) p. 54

(٢) المسعودى : مروج الذهب (طبع مصر سنة ١٣٤٦ هـ) ج ١ ص ٦٢ ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام . ص ٧

(٣) فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٩ هـ و ١٩٠١ م) ص ٣٤٩

حين فتح الأبلة[١] كتب الى عمر بن الخطاب يعلمه ذلك ويخبره أن الأبلة فرضة البحرين وعمان والهند والصين .

وقد ذكر المسعودى [٢] أن خالد بن الوليد حين فتح الحيرة زمن أبى بكر ، خاطب عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغسانى وقال له : ماتذكر ؟! قال : «أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون » .

***

وكان أقدم اتصال سياسى بين الصين والشرق الاسلامى بطريق البر ، اذ أن يزدجرد كسرى فارس فر بعد انتصار العرب فى موقعة نهاوند الى الصين ، وكان فراره نذيرا للامبراطور الصينى « تانغ تائى جونغ » بتقدم القوة الجديدة الناهضة من بلاد العرب نحو الشرق الأقصى ، ويظهر من المراجع الصينية أن امبراطور الصين كان يعطف على آخر الورثة لعرش الأكاسرة ، فوعده بأن يمده باعانات عسكرية ولوازم حربية ، وكان لهذا الوعد أثر بالغ فى نفس يزدجرد ، اذ رجع مع جماعة من عساكر التتار الذين كانوا يعترفون بسلطة امبراطور الصين آملا بذلك أن يستعيد سلطانه وأملاكه التى استولى عليها العرب[٣] غير أن يزدجرد لم يتح له فرصة الاشتباك ثانية مع العرب ، اذ غدر به أهل مرو ، وقتل فى سنة ٣١ هـ (٦٥١ م)[٤] .

وتذكر المصادر العربية أن فيروز بن يزدجرد كتب الى امبراطور الصين

---

(١) الابلة ، بضم اوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة ، وهى اقدم من البصرة ، لان البصرة مصرت أيام عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ـ الطبعة الأولى ـ طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ ـ ج ١ ص ٨٩ ـ ٩٠

ويقول جلازر ان Apologus ابو لوجوس هى الابلة عند العرب و Ubulum فى النقوش الاكادية ، ولم تكن بعيدة عن مدينة المحمرة وهذه تبعد نحو ٧٥ ك . م عن شاطىء الخليج الفارسى . انظر Glaser (E.) : Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens (Berlin 1890) vol. 2 pp. 188—189

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٦٢

(٣) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٣ ـ ٢٤

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤

يسأله المساعدة فى صد غارة العرب الذين فتحوا بلاده ، ولكن امبراطور الصين أبى أن يقدم اليه المدد العسكرى المطلوب محتجا ببعد الشقة [١] .

أما المصادر الصينية فتذكر أن امبراطور الصين « تانغ كاوجونغ » (تانج كاوتشونج) الذى ارتقى عرش الصين بعد أبيه « تانغ تائى جونغ » رحب بفيروز ابن يزدجرد وأسكنه فى عاصمته . وكان لفيروز ابن باسم جده أى يزدجرد ، وكان فى نية « تانغ كاوجونغ » أن ينصبه ملكا على ايران بعد وفاة فيروز ، لكنه فشل فى محاولته لأن العرب كانوا قد تقدموا فى آسيا الوسطى وتمكن حكمهم فيها ، فضلا عن بعد المسافة وعدم انتظام المواصلات ، فاكتفى امبراطور الصين بالانعام عليه بلقب « ملك ايران » وولاه ولاية من ولايات تركستان التى كانت جزءا من مملكة جده [٢] .

وقد قيل فى هذه المناسبة ان امبراطور الصين من أسرة « تانج » أرسل الى المدينة مندوبا من قبله للدفاع عن قضية فيروز ، وليتبين قوة الجماعة الاسلامية الفتية ، وقيل أيضا أن الخليفة عثمان بن عفان أرسل أحد قواد العرب لمرافقة السفير الصينى فى عودته سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) وان امبراطور الصين أكرم وفادة هذا القائد ، ويعتقد بعض المؤرخين أن دخول الاسلام فى الصين بدأ منذ ذلك الحين [٣] .

***

وبالرغم من الاختلافات حول تاريخ وصول الاسلام الى الصين ، وأول من جاء بهذا الدين اليها ، فأكبر الظن أن وصول الاسلام الى الصين بحرا كان أسبق من وصوله برا ، وذلك على يد التجار الذين ساروا فى الطريق البحرى الذى كانت تتبعه السفن التجارية .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٦٤ ؛ ج ٥ ص ٧٣ (الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية) .

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين . ص ٣٢ — ٣٣

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٩ ، محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٨ ، ٦٢ — ٦٣ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٦٠ ، ١٨٠

وتؤكد المصادر الصينية وصول وفد رسمى من العرب الى عاصمة الصين فى خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) بطريق البحر ، وقد يكون دخول الاسلام فيها بعد وصول هذا الوفد [١] .

***

وفى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م) بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات السياسيـة والدبلوماسية بين العرب والصين . اذ بلغت الدولة الأموية فى عهد هذا الخليفة الذروة فى التوسع شرقا وغربا . وقد زحف القائد العربى قتيبة بن مسلم الباهلى الى آسيا الوسطى بأمر من والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى . فقاد قوة جـديدة من العرب الى خراسان ، وكانت له فيها حروب وفتوح ، ثم عبر نهر جيحون (امودريا Oxus) وحارب أتراك ما وراء النهر الذين لم يكونوا قد خضعوا بعد لحكم العرب ، برغم هزيمتهم قبل ذلك على يد قواد قبله . وقد أعز الله قتيبة بفتح سمرقند التى كانت مليئة بالمعابد الوثنية وكان له الفضل فى انشـاء أول مسجد هناك ، وفى تحطيم أصنامها ، وأعقب قتيبة ذلك النصر بفتح بخارى وتأسيس جامع معروف باسم « جامع قتيبة » لا يزال باقيا الى يومنا هذا . وتوالت انتصارات هذا البطل العربى فى اقليم ما وراء النهر فغزا بيكند ، وكش ، والشاش (طشقند اليوم) ، وفرغانة ، وأشروسنة [٢] . ثم فتح قتيبة كاشغر فى التركستان الصينية ، وهى أقرب المدن الى الصين (٩٦ هـ = ٧١٥ م) ، وأرسـل الى امبراطور الصين « يوانغ جونغ » وفدا مع رسـالة يطلب منه الطاعة والجـزية [٣] . وقد ذكرت المصادر العربية أن ملك الصين قال لهبيرة بن مشمرج الكلابى زعيم الوفد العربى « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلكم ويهلكه » فأجاب هبيرة : « كيف يكون قليـل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟! وكيف يكون

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٨ — ١٥٩ ؛
Bretschneider : On the knowledge possessed ... pp. 9 & 46
واقرأ عن انتشار الاسلام فى الصين مقال الأستاذ « هارتمان » فى دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الصين » Hartmann

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٦ — ٤٢٨

(٣) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧

حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ ! وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل !! فلسنا نكرهه ولا نخافه » قال : « فما الذى يرضى صاحبك ؟ ! قال : « انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » قال : « فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها » « فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا ، فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم ، ووطىء التراب » [١] .

والواقع أن مجهودات قتيبة بن مسلم الباهلى العظيمة ، ومن جاء بعده من القواد العرب زمن الأمويين جعلت اقليم ما وراء النهر يندمج بامبراطورية الاسلام الناشئة . وكان ذلك فاتحة لاتصال العالم الاسلامى بأواسط آسيا وبالجنس التركى الذى اتيح له بعد ذلك أن يكون ذا شأن عظيم فى شئون الدولة الاسلامية ، وخاصة فى العصر العباسى ، كذلك كان لقتيبة بن مسلم ومجهوداته الفضل فى أن تصبح بخارى وسمرقند واقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ، ولنشر الاسلام فى آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ، ونيسابور فى خراسان .

وقد زادت فتوحات قتيبة بن مسلم من الاتصال بين الدولة الاسلامية وبين الصين فى أشكاله المختلفة سواء أكان سياسيا أو تجاريا أو دينيا أو فنيا أو ثقافيا .

والمعروف أن العرب حين فتحوا فرغانة فى اقليم ما وراء النهر وجدوا فيها شيئا كثيرا من بدائع التحف الصينية . ولا غرو فان هذه الأقاليم تقع على مقربة من حدود الصين ، وكان أهلها متصلين بالصين منذ العصور القديمة ، كما أن صناعا من الصينيين كانوا بين الأسرى الذين وقعوا فى يد العرب حين فتحوا تلك الأصقاع [٢] .

وقد ذكرت المراجع التاريخية أن قتيبة بن مسلم الباهلى رضى بهدية امبراطور الصين ، اذ وصل اليه حينئذ خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وبيعة أمراء

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (حوادث سنة ٩٦ هـ) ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠١

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٩

دمشق لسليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة وغيره من الزعماء الذين استشارهم الخليفة الوليد فى عزله عن ولاية العهد فوافقوا الخليفة على عزله . وقد تحقق ظن قتيبة اذ أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك يعزل قتيبة ، وما لبث قتيبة أن قتل .

وقد توقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بعد مقتل قتيبة وتخلصت الصين بذلك من غزو العرب لها . لكن الصين لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامى الذى كان ينتشر بسرعة الى أواسط آسيا مع الفتوحات . ومن الراجح أن بعض أهالى تركستان الصينية قد اعتنقوا الاسلام زمن قتيبة .

ولم تغفل المراجع الصينية القديمة الكلام عن حركة ظهور الاسلام وعن العرب ؛ والاسلام الذى أخذ يتقدم الى آسيا الوسطى والى الهند فى عصر بنى أمية [١] . وكان من الذين أسلموا من أهالى آسيا الوسطى فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثامن الميلادى الأواغرة أو شعب أويغور ، أو الأويغوريون ؛ وهم فرع من التتار كانت لهم علاقات سياسية مع الصين بعد زمن قتيبة ، أى بعد توقف الفتح العربى فى الشرق ، وهم آباء المسلمين الصينيين [٢] .

***

وتشهد المصادر الصينية بوجود جموع من المسلمين فى الصين فى عهد أسرة « تانج » ، وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور . ولا عجب فقد كانت التجارة بين الشرق والغرب فى يد المسلمين الى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وكان التجار المسلمون يبحرون من الخليج الفارسى الذى كانوا يسمونه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الخليج الصينى [٣] ، ويعبرون المحيط الهندى مارين بسرنديب (سيلان) وجزائر البحار الجنوبية الى أن يصلوا موانى الصين التجارية . وقد قل مجىء الصينيين أنفسهم

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٤٦ — ١٤٧

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٠ — ٣١ ،

(٣) Ph. Walter Schulz : Die persisch-islamische Miniaturmalerei الجزء الأول ص ٤٨

الى الخليج الفارسى منذ بداية القرن التاسع الميلادى وزاد سفر العرب الى البحار الجنوبية [١] .

والواقع أن هذا الطريق البحرى الذى يمتد من الخليج الفارسى الى موانىء الصين كان أول طريق استعمله الانسان بانتظام قبل التوسع الأوربى فى القرن السادس عشر الميلادى . ولا ننسى أن الفضل فى قيام وازدهار تجارة بحرية بين الخليج الفارسى والصين فى العصر الاسلامى يرجع الى قيام امبراطوريتين عظيمتين على طرفى الطريق . فقد كان العالم الاسلامى زمن الأمويين يمتد من اسبانيا وجنوب فرنسا الى حدود الصين (٤١ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٤٩ م) .

وظل العالم الاسلامى متحدا قويا بعد ذلك حوالى قرن أو يزيد تحت ظل الخلفاء العباسيين فيما عدا اسبانيا وشمال أفريقية (١٣٢ — ٢٥٧ هـ = ٧٥٠ — ٨٧٠ م) .

أما فى الصين فقد ملكت أسرة تانج ٦١٨ — ٩٠٦ م على امبراطورية متحدة حتى آخر أيامها .

ونلاحظ أيضا أنه قد اتيح للعرب بفتح السند على يدى قواد الحجاج بن يوسف الثقفى بعد سنة ٩٢ هـ = ٧١٠ م الاستيلاء على ميناءى الديبل [٢] والمنصورة [٣] الهامين ، وبذلك اقتربوا من الشرق الأقصى .

***

وقد ذكرت المراجع الصينية أن سفارة بعثت من دمشق فى سنة ٩٨ هـ = ٧١٦ م من قبل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لتقديم الهدايا الى امبراطور

---

(١) راجع W. Heyd : Histoire du Commerce du Levant (Leipzig 1923) ص ٢٩ ج ١

(٢) الدَّيْبُل عند مصب نهر السند ، ولا يعرف مكانها على وجه التحديد (انظر مادة « ديبل » فى دائرة المعارف الاسلامية) ، أما ياقوت فيقول انهامدينة مشهورة على ساحل بحر الهند (معجم البلدان ج ٤ ص ١١٨) .

(٣) قد تكون المنصورة هى حيدر باد على نهر السند الآن . انظر H. M. Elliot : The History of India (لندن ١٨٦٧ م —) الجزء الأول ص ٣٦٩ — ٣٧٤ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « المنصورة » .

الصين . وقد حملت هذه السفارة معها عباءات منسوجة بخيوط من الذهب ، وعطور وعقيق وأشياء نفيسة غير ذلك ، وقد وصف أعضاء هذه السفارة بلادهم وقدموا بيانا كافيا عنها ، وأنعم امبراطور الصين على السفير برتبة الفارس من الدرجة الأولى ، ثم ودعه باحترام كبير واكرام عظيم [١] .

***

وكان الصينيون يطلقون على العرب كلمة « تاشى » ، وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن كلمة « تاجر » العربية ، ذلك لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين كانوا تجارا ، وقد تكون كلمة « تاشى » منقولة عن كلمة « تازى » الفارسية التى يطلقها الفرس على العرب [٢] أما كلمة « تازى » الفارسية فهى مأخوذة من كلمة تاجك فى البهلوية [٣] .

ونحن نعرف من المراجع الصينية أن سبع عشرة سفارة وردت من العرب الى عاصمة الصين زمن الأمويين ، وخمس عشرة زمن العباسيين [٤] .

والمعروف أن هذه السفارات لم تكن كلها واردة من مقر الخلافة من دمشق أو بغداد ، اذأن كلمة « تاشى » كانت تطلق على كل العرب ، أو جميع سكان الامبراطورية الاسلامية ولذا كانت السفارات من عاصمة الخلافة أو من أمراء آسيا الوسطى وغرب الهند وبلاد ما وراء النهر . فمثلا نسمع عن سفارتين وردتا الى الصين فى سنة ١٠٧ هـ = ٧٢٥ م وكان « سليمان » رئيسا لهاتين السفارتين وكان يرافقه ثلاثة عشر عربيا ، والراجح أن هاتين السفارتين لم تكونا الا من منطقة قريبة من بلاد الصين ، لأن ورودهما فى مدى شهرين لا يمكن أن يكون من دمشق الى « جانغ آن » عاصمة الصين ، ويظهر من تاريخ العرب فى آسيا الوسطى أن « سليمان » هذا هو « سليمان بن أبى السارى » الذى اشترك فى محاصرة بلد « خجند » القريبة من كاشغر تحت قيادة سعيد بن عمر الحراشى ،

---

(١) E. Bretschneider : On the knowledge possessed ... ... p. 61

(٢) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦٣

(٣) انظر هرتمان M. Hurtmann فى مقال China فى دائرة المعارف الاسلامية ومما ذكره أن الصيغة الفارسية مأخوذة من Tayyâyê « عرب طيىء » فى الأرامية .

(٤) بدر الدين حى الصين : العلاقات بين العرب والصين ص ١٨١

وكان ذلك فى سنة ٧٢٢ م ، ولعل أسد بن عبد الله بعثه الى الصين فى سنة ٧٢٥ م / ١٠٧ هـ[١] .

كذلك وردت الى الصين سفارة فى سنة ١١٥ هـ = ٧٣٣ م من قائد عربى اسمه « جنيد » ، وكان « جنيـد » من بين الذين اشتركوا فى فتح بخـارى وسمرقند للمرة الأخيرة تحت امارة نصر بن سيار فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى . ويرى الأستاذ « جب » Gibb أن جنيدا اتصل بأمبراطور الصين فى آخر عهده بسمرقند فى سنة ١١٥ هـ = ٧٣٣ م . ويظهر من اسم رئيس هذه البعثة وهو « مسلم ترخان » أن أصله من الترك[٢] .

كذلك نرى أنه بعد أن ستقر نصر بن سيار فى سمرقند بعث عدة سفارات الى الصين فى سنة ٧٤٤ م / ١٢٧ هـ ، ٧٤٥ / ١٢٨ هـ ، ٧٤٧ م / ١٣٠ هـ ، وذلك لأنه شعر أن حكومة ما وراء النهر تحتاج الى تدعيم من الطبقات المتوسطة خصوصا طبقات التجار والمزارعين ، وقد أراد نصر تنظيم العلاقات التجارية بين تلك البلاد وبين الصين[٣] .

***

وقبل زوال الخلافة الأموية سـنة ١٣٢ هـ = ٧٤٩ م فر بعض الشيعة فى خراسان من الاضطهاد ، وأقاموا فى جزيرة بأحد الأنهار الكبيرة فى الصين تجاه أحد الموانىء،وقد ذكر هذه الرواية المَرْوَزِى فى القرن السادس الهجرى(حوالى ٥١٤ هـ) ، والثانى عشر الميلادى (حوالى ١١٢٠ م) ، ويصف المروزى[٤] الجالية بأنها كانت لا تزال قائمة ، وانها كانت تشتغل بالوساطة فى التجارة بين أهل الصين والأجانب .

---

(١) انظر Gibb : The Arab Conquests of Central Asia pp. 63, 67.

(٢) Gibb : Ibid p. 79.

(٣) Gibb : Ibid p. 92.

(٤) انظر المروزى Al-Marwazi (Sharaf al-Zaman Tahir) : On China, the Turks & India. ed. V. Minorsky نشره ف . مينورسكى (لندن ١٩٤٢ م) الفصل الثامن ؛ القسم ١٦

وتسجل لنا أيضا الكتابات الاباضـــية المتأخرة نقلا عن مصادر وثيقة رحلة تاجر اباضى الى الصين حوالى منتصف القرن الثـــامن الميلادى ، وكان يدعى أبا عبيدة ، ويرجع أصله الى عمان ، وقد اشترى فى الصين بعض خشب الند [١]

والمعروف أن منطقة ما وراء النهر كان يسود فيها القلاقل ، وعدم الاستقرار منذ مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى ، وذلك بسبب الخلاف الذى ظهر بين القواد من ناحية وبين القبائل العربية من ناحية أخرى ، واشتد هذا الخلاف فى آخر عهد بنى أمية ، وقد سعى الصينيون الى تقوية نفوذهم فى بعض مدنها ، وكان طمع الصينيين فى وضع يدهم على اقليم الشاش فيما وراء النهر هو الذى دفعهم الى الاصـــطدام مع قوات العرب هناك ، اذ اشـــتبكت القوات الصـــينية بقيادة « كاوشيان كى » ضد « زياد بن صالح » الذى كان قد بعثه أبو مسلم الخراسانى لقمع ثورة شريك بن المهدى هناك ، وقد انتصر العرب على الصينيين فى «تالاس» فى سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م .

وكانت هذه المعركة فاصلة للعرب ضد الصينيين ، اذ لم يشتبك الصينيون بعدها ضد العرب صراحة ، وان كان يظهر من تاريخ الصين أن الصينيين ساعدوا أحيانا بعض الأمراء الترك فى نزاعهم ضد العرب ، كذلك أدى انتصار العرب على الصينيين فى واقعة تالاس الى سيطرة المدنية العربية الاسلامية على آسيا الوسطى بعد أن كانت تتنازع تلك المنطقة المدنية الصـــينية من ناحية والمدنية العربيـــة الاسلامية من ناحية أخرى[٢] .

وقد ذكر الثعـــالبى [٣] أن الصينيين الذين وقعوا أسارى فى أيدى العرب

---

(١) انظر T. Lewicki : Les premiers commerçants Arabes en Chine فى مجلة Roczuik Orientalistyczny vol. 11 (1935) pp. 173—186.

وانظر ايضا Kuwabara (J.) : On P'u Shou-Kêng; Memoirs of the Research Department of the Tokyo Bunko, No. 2 (1928) pp. 1—79.

(٢) انظر : بدر الدين حى الصبنى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٥

(٣) انظر : لطائف المعـــارف (طبعـــة دى يونغ فى ليون ســـنة ١٨٦٧ م) ص ١٢٦

وانظر W. Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion (لندن ١٩٢٨ م) ص ١٩٦

علموا أهل سمرقند صناعة الورق فانتشرت هذه الصناعة فى البلاد الاسلامية الأخرى بعد ذلك .

***

وتذكر المراجع المختلفة أن ثورة قامت زمن الامبراطور الصينى « يونغ جونغ» ففر هذا الامبراطور تحت ضغط الثوار . وولى العرش ابنه «سوتسونج» وذلك فى سنة ٧٥٥م/١٣٨ هـ . وتقول بعض المراجع الصينية أن هذا الامبراطور طلب من الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى أن يظهره على خصمه ، فلبى المنصور طلبه وأرسل اليه فرقة من الجنود العرب استطاع بوساطتها أن يسترد سلطانه وأن يستولى على عاصمته الغربية وهى « شانغ آن » وعاصمته الشرقية وهى «لويانغ» ولعل أبا جعفر المنصور لم يرسل الجند من عاصمته حينذاك ؛ وانما طلب من بعض ولاة ما وراء النهر أن يرسلوا نجدة الى امبراطور الصين ، كذلك ساعد الامبراطور الصينى حينذاك شعب الأواغرة . وبعد أن قمعت الثورة فى الصين سنة ٧٥٧ م / ١٤٠ هـ ، عاد من عاد ، وأقام من فضل الاقامة . وقد فرقهم الامبراطور فى المدن العظيمة وسمح لهم بالتزوج من بنات الصين ، ومنذ ذلك الحين ازدادت الصلات توثقا بين أسرة تانغ والأواغرة ، كما كثرت السفارات بين الصين والبلاد العربية [١] .

***

وتؤكد المصادر التاريخية أن العلاقة السياسية والدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والصينيين كانت أقوى وأوثق مما كانت عليه زمن الخلفاء الأمويين . وكان من أهم السفارات تلك التى كانت من قبل أبى العباس السفاح رأس الدولة العباسية ، وأبى جعفر المنصور وهارون الرشيد . وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين فى نصف قرن بين ٧٥٠ م ، ٨٠٠ م / ١٣٣ هـ ، ١٨٤ هـ . ولم تفصل أغراض هذه السفارات فيما عدا أنها جاءت الى الصين لزيارات ودية أو لتقديم الهدايا . ولعل معظم هذه السفارات كان لتحسين العلاقة

---

(١) انظر P. de Thiersant : Le Mahométisme en Chine ج ١ ص ٧٠ — ٧١ ، Th. Arnold : The Preaching of Islam ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٦ — ٤٤

التجارية بين العرب والصين ، وقد كانت السفارات التى جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التى جاءت من قبل الخلفاء [١] .

والواقع أن تولى العباسيين الخلافة كان قوة جديدة دفعت الى الأمام التجارة البحرية الواردة الى الخليج الفارسى والصادرة عنه ، وذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فضلا عن اتساع التجارة زمن العباسيين اتساعا كبيرا .

ونحن نعرف أن بغداد نمت نموا عظيما وأصبحت المدينة التجارية الأولى فى الشرق ، وكان هذا من شأنه تنشيط التجارة بين موانىء الخليج الفارسى الى الشرق الأقصى . وكانت الأبلة وسيراف [٢] أهم موانى السفن البحرية ، ولكن السفن النهرية كانت تستطيع نقل السلع الى بغداد . فكان الحال كما يذكر الخليفة أبى جعفر المنصور :

« هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء ، يأتينا فيها كل ما فى البحر [٣] » .

والمعروف أن الخلفاء العباسيين شجعوا على مزج رعاياهم العرب والفرس وغيرهم بعضهم ببعض فى وحدة اسلامية لسانها العربية ، ولهذا نرى أن الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الأقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس الى حد بعيد . ونلاحظ أن آخر مرة يرد فيها ذكر الفرس Po-sse « بُوْ—سَ » فى الحوليات الصينية هى سنة ٧٥٨م/١٤١ هـ ، وفى تلك السنة يرد الى جانبهم ذكر العرب Ta-shih تاشى [٤] .

***

وقد أشار الطبرى الى بعض طرف الصين حين ذكر فتح مدينة كش من أعمال سمرقند على يد خالد بن ابراهيم والى بلخ سنة ١٣٤ هـ (٧٥١ م) فقال : « وفى

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين : ص ١٨٥ — ١٨٩ وما ذكره من مراجع .

(٢) يقول فران فى بحثه Ferrand (g.) : L'élément Persan dans les textes nautiques فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (أبريل — يونيه ١٩٢٤) ص ٢٥٦ — ٢٥٧ انها كانت فى موضع قرية الطاهرة الآن .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٢٣٨

(٤) انظر Old History of the Tang الفصل ٢٥٨ ب : الترجمة الانجليزية فى كتاب Hassan (H.) : a History of Persian Navigation ص ٩٧ — ٩٩

هذه السنة غزا أبوداود خالد بن ابراهيم أهل كش ، فقتل الأخريد ملكها ... وأخذ أبو داود من الأخريد وأصحابه حين قتلهم من الأوانى الصينية المنقوشة المذهبة التى لم ير مثلها ، ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره ، ومن طرف الصين شيئا كثيرا [١] .

وكان فى بغداد منذ نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) سوقا خاصة لبيع التحف الصينية ، وقد كتب اليعقوبى [٢] فى وصف بغداد : «وينقسم طرق الجانب الشرقى وهو عسكر المهدى خمسة أقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذى فيه قصر المهدى والمسجد الجامع ، وطريق فى السوق التى يقال لها سوق خضير وهى معدن طرائف الصين » .

وفى المصادر الصينية نص تاريخى يشير الى وجود فنانين صينيين بمدينة الكوفة فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، فان الكاتب الصينى « توهوان » كان فى الأسر عند العرب سنة ٧٥١ م / ١٣٤ هـ ، وقد نجح فى الهرب سنة ٧٦٢م / ١٤٥ هـ ، ففر على سفينة تجارية الى كانتون ، ومنها الى موطنه سينجان فو ، وقد تحدث « توهوان » عن مدينة الكوفة فى كتاب له ، وذكر أن صناعا من بنى وطنه كانوا أسرى فيها وأنهم علموا الصناع المسلمين نسج الأقمشة الحريرية الخفيفة وصناعة التحف الذهبية والفضية فضلا عن النقش والتصوير [٣] . وقد يكون هذا الكاتب مبالغا ولكن حديثه له مغزاه على كل حال .

وقد تحدث الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) فى كتابه البخلاء [٤] عن أصدقاء زاروا رجلا عنده مائدة من حجر العقيق وآنية صينية ملمعة .

وقد عثر فى أنقاض مدينة سامراء على أنواع من الفخار والخزف الصينى الذى يرجع عهده الى أسرة تانج [٥] ، وفى القسم الاسلامى من متاحف الدولة فى برلين مجموعة طيبة من هذا الخزف الصينى الذى عثرت عليه البعثة الألمانية فى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٥٠

(٢) كتاب البلدان (ليدن ١٧٩٢ م) ص ٢٥٣

(٣) انظر P. Pelliot : Des Artisans Chinois à la Capitale Abbasside en 750 — 762 فى العدد ٢٦ سنة ١٩٢٩ م من مجلة Toung Pao ص ١١٠ — ١١٢

(٤) كتاب البخلاء (طبعة فان فلوتن) ص ٥٧

(٥) انظر F. Sarre : Die Keramik von Samarra

حفائر سامرا التى كانت عاصمة للعباسيين نحو خمسين عاما من القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م الى ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) [١] . وقد ذكر الأبشيهى (القرن ٩ هـ ، ١٥ م) أن يعقوب بن الليث الصفار أهدى الى المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م) هـدية فى بعض السنين بينها عشرون صندوقا على عشر بغال «فيهم طرائف الصين وغرائبه» [٢] .

ومن المسلمين الذين زاروا الصين رحالة عربى اسمه « سليمان » لا نكاد نعرف شيئا عن ترجمة حياته ، ولكن وصف سياحته فى الهند والصين وصل الينا ، وقد كتبه فى سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م . ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مؤلف من سيراف اسمه « أبو زيد حسن » ، وقد اعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين ، وقد طبعت هذه الرحلة سنة ١٨١١ م على يد المستشرق لانجلس Langlès ، ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ م ، كما أتى بها المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى ، والتى ترجمها الى الفرنسية وعلق عليها ونشرها فى مؤلف من مجلدين [٣] .

وفى هذه الرحلة بيانات عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر الميلادى) ، ومن هذه البيانات والأخبار أن مدينة خانفو [٤] وهى التى عرفت باسم « كانتون » ، والتى كانت مجمعا للتجار ، كان فيها رجل مسلم « يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى

---

(١) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر (القاهرة سنة ١٩٣٥ م) ج ١ ص ٢٤ وما بعدها ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠ — ٢١

(٢) انظر كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف ج ٢ ص ٥٤

(٣) Relation de Voyages et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turks Relatifs à l'Extrême-Orient de VIII au XVIII siécles, Traduits, Revus et Annotés par Gabriel Ferrand (Paris 1913 — 1914)

(٤) انظر مادة « خانفو » بدائرة المعارف الاسلامية ، حزين
Huzayyin (S.A.) : Arabia and the Far East (Cairo 1942) pp. 158 — 160.

تلك النـاحية ... واذا كان فى العيـد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطـان المسلمين [١] » .

وذكر هذا الرحالة « أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف ، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها الى سيراف ، فيعبى فى السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه ... » ثم وصف بعد ذلك المحطات المختلفة التى تقف عندما السفن فى طريقها الى الصين ، ومن الطريف أن سليمان السيرافى أول مؤلف غير صينى أشار الى الشاى ، فقد ذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشربه الصينيون فى الماء الساخن ويباع منه الشىء الكثير فى جميع مدنهم ويسمونه « ساخ » [٢] . ومما ذكره « سليمان » التـاجر السـيرافى فى رحلتـه أن عند الصينيين الغضار [٣] الجيد يصنعون منه أقداحا فى دقة القوارير الزجاجية مع أنها من الغضار [٤] .

وفى الذيل الذى كتبه « أبو زيد حسن » أحاديث طريفة عن علاقة المسلمين بالصين ، وبعضها يصعب تصديقه ، ومن ذلك حديث القرشى المسمى ابن وهب الذى ترك مدينـة البصرة عند ما خربها الزنج ، وقام برحلة الى الصـين نحو سنة ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م ، وزار بلاط ملك الصين وقال انه رأى فيه صور الرسل ومن بينها صورة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام راكبا جمل وأصحابه محدقون به ، وقد أشار « المسعودى » الى هـذه القصة فى كتابه « مروج الذهب » فى الفصل الذى عقده للحديث عن ملوك الصين ، وقد رجح المستشرق رينو Reinaud

---

(١) وفى بعض المصادر الصينية أن هذا النوع من الامتيازات الأجنبية امتد الى الجاليات الاسلامية الأخرى فى الصـين ، فكان لكل منها قاضـيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها . انظر :

Chau Ju-Kua : Chu-fan-chï translated from Chinese and annotated by F. Hirth and W. W. Rockhill (Petersburg 1911) pp. 16—17

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القـاهرة ١٩٤٥ م) ص ٢٥ ، وبدر الدين حى الصينى : العـلاقات بين العرب والصين ص ٣١١

(٣) الغضار : الخزف .

(٤) راجع Voyage du marchand arabe Suleiman en Inde et en Chine suivi de remarques par Abu Zayd Hassan : Traduit par Ferrand (les Classiques de l'Orient vol. VIII) paris 1922 p. 54

أن أبا زيد حسن لقى المسعودى وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية[١] .

❊❊❊

ومن أقدم الجغرافيين المسلمين الذين كتبوا عن الصين ابن خرداذبه ، وقد كان أبوه حاكما على طبرستان مدة طويلة ، ثم سافر ابن خرداذبة الى بغداد حيث كان صاحبا لديوان البريد ، وقد كتب مؤلفه المشهور « المسالك والممالك » فى سامرا بين سنتى ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م و ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ، أى أن كتاب المسالك والممالك أقدم من كتاب سليمان التاجر السيرافى بنحو ثلاث سنوات ، وكل من الكتابين له قيمته الخاصة ، فكتاب ابن خرداذبة يتصف بالكتابة العلمية ، أما كتاب سليمان التاجر فهو مبنى على مشاهداته وتجاربه فى الصين التى سافر اليها مرارا ، والواقع أننا نجدهما متفقين فى أكثر الأشياء ومختلفين فى بعض الأمور .

وقد أشار ابن خرداذبة الى بعض ثغور الصين وما يستورد منها ثم أجمل القول عن صادرات تلك الأقاليم فكتب :

« والذى يجىء فى هـذا البحر الشرقى من الصـين ، الحرير والفرند[٢] والكيمخاو[٣] والمسك والعود والسروج والسمور[٤] والغضار .. الخ[٥] .

❊❊❊

(١) انظر ص ٧٧ وما بعدها من رحلة سليمان ، وانظر مقال الدكتور زكى محمد حسن : « السيرة فى الفن الاسلامى » عدد مايو ١٩٤٠ م من مجلة المقتطف ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٢ Blochet (E.) : Musulman Painting (London 1929) p. 19.

(٢) الفرند : الحرير الملون تصنع منه الثياب .

(٣) الكيمخاو : من اللغة الصينية « كمخا » بكسر الكاف ومعناها الديباج أو الحرير الصينى المنسوج بخيوط الذهب . وقد استخدم الايرانيون هـذه الكلمة ايضا فكانوا يقولون كمخا أو كمخاب بفتح الكاف (انظر بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣١٠) .

(٤) السمور على وزن تنور دابة تتخذ من جلدها فراء ثمينة ، أو هى الفراء نفسها ، واسم هذه الدابة بالفرنسية martre وبالانجليزية sable وبالألمانية Zopel واسمها العلمى martes zibellina أو mustella zibellina (انظر هامش رقم ٤ من كتاب الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠)

(٥) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (طبعة دى غوية) ص ٦٩ — ٧٠

وفى عصر بنى سامان (٢٦١ — ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ — ٩٩٩ م) ببلاد ما وراء النهر كانت التجارة واسعة مع بلاد الصين ، وكان الاقبال على منتجاتها شديدا[١] . ونعرف أن الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ — ٣٣١هـ = ٩١٣ — ٩٤٢م)أمر الشاعر الايرانى رودكى بنظم كليلة ودمنة ، ثم طلب بعد ذلك الى فنانين صينيين أن يوضحوا مخطوطات الترجمة المنظومة بالصور ليطرب الناس بقراءتها[٢]. والظاهر أن أولئك الفنانين الصينيين كانوا ملحقين ببعثة سياسية صينية جاءت لزيارة أمير بخارى[٣] . والمعروف أن بلاد ما وراء النهر وبلاد التركستان كانت فى عصر الدولة السامانيـة أزهر الأقاليم الاسلامية ، فكان بلاط أمرائها مجمع العلماء والأدباء والفنانين ، وذاع صيت بخارى وسمرقند فى أنحاء العالم الاسلامى ولا ريب فى أن بعض الصناع والفنانين من أهل الصين كان يقيم فى تلك الأقاليم ويكسب عيشه بالعمل فيها ، وقد جاء ما يؤيد ذلك فى يوميات راهب صـينى سافر الى ايران بطريق آسـيا الوسطى بين عامى ١٢٢١ و ١٢٢٤ بعد الميـلاد (٦١٨ و ٦٢١ هجرية) اذ كتب عند الكلام على سمرقند « ان الصناع الصينيين كانوا يعيشون هناك فى كل مكان »[٤] .

وكتب ياقوت فى معجم البلدان (مادة صـين) أن ملك الصـين أرسـل سنة ٣٣١ هـ (٩٤٣ م) يخطب ود نصر بن أحمد السامانى ويطلب مصاهرته ، فقبل نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين ففتح هـذا أمام التجار المسلمين الطريق الى الصين[٥] .

ولا ريب فى أن بنى سامان كانت صلتهم كبيرة ببلاط ملوك الصين مما سهل عليهم استخدام الفنانين من أهل الصين[٦] . وفضلا عن ذلك فان الطريق البرى

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصـين وفنون الاسـلام ص ١٤ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢٥

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٤

(٣) انظر Blochet (E.) : Musulman Painting p. 45

(٤) انظر Bretschneider : Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources (London 1888) vol. I. p. 78

(٥) انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٦) انظر Blochet (E.) : Natices sur les manuscrits persans et arabes de la collection Marteau. Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale XII pp. 219—220

بين البلدين كان مطروقا [١] ، كما كانت تجارتهم مع تلك البلاد زاهرة [٢]. والواقع أن حكم الدولة السامانية وازدهار الأمن فى بلادهم كانا أكبر مشجع للتجار ، وحسبنا أن معظم النقود العربية التى كشفت فى شمال أوربا هى من النقود السامانية .

***

ومما ذكره أبو زيد حسن ، فى الذيل الذى وضعه لرحلة « سليمان التاجر السيرافى » أن السفن القادمة من سيراف متجهة الى البحر الأحمر كانت اذا وصلت جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من السلع الى مراكب خاصة تحمله الى مصر وتسمى مراكب القلزم ، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة فى شمالى البحر الأحمر ، وأشار أبو زيد الى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان ، وذلك بسبب قيام ثورات فيها [٣].

ويظهر أن المواصلات البحرية لم تكن متصلة تماما بين الصين والشرق الأدنى فى عصر المسعودى (القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) فان السفن من الجانبين لم تعد تبحر الا حتى مدينة تسمى « كلة »[٤] فى منتصف الطريق بين البلدين ، وقد أشار المسعودى [٥] الى ذلك فى حديثه عن رجل من التجار من أهل مدينة سمر قند « خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى الى العراق ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٩٦

(٢) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion pp. 236—237

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٢٥ ، الصين وفنون الاسلام ص ١٣

(٤) لعل « كلة » فى ولاية كيدا Kedah بالملايو الآن ، وقد أيد هذا الرأى ناشر كتاب بُزُرك ص ٢٢٥ — ٢٦٤ — انظر : بزرك بن شهريار الناخداه الرام هرمزى : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزايره : نشر النص ب.ا. فان ديرليت P. A. van der Lith وترجمة الى الفرنسية ل . مارسيل دفيك . L. Marcel Devic (ليدن ١٨٨٣ — ١٨٨٦ م) ؛ ويرى Ferrand فى بحثه L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (أبريل—يونيه ١٩٢٤م) ص ٢٥٤، وفى دائرة المعارف الاسلامية مادة « كلة » انها Kra « كرا » فى سيام (تايلاند الحالية) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو . وفى مادة Chine دائرة المعارف الاسلامية أن « كلة » فى مروج الذهب للمسعودى ليست « كلة بار » فى ملقا ، ولكن ميناء جال Galle فى الطرف الجنوبى لسيلان .

(٥) مروج الذهب ج ١ ص ١٩

فحمل من جهازه وانحدر الى البصرة ، وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان ، وركب الى بلاد « كلة » وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك واليها تنتهى مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم ، وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة ، فلذلك كانت المراكب تختلف فى المواضع التى ذكرنا الى ما هناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا فى هذا النصف ، ثم ركب هذا التاجر من مدينة « كلة » فى مراكب الصينيين الى مدينة « خانفو » .

كذلك أشار المسعودى [١] الى بعض أقوام السند يقال لهم « المَيْد » ، وتحدث عن قرصنتهم فقال : « ولهم بوارج فى البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشوانى فى بحر الروم » .

وقد ترك لنا الكاتب الصينى « شاويوكوا » Chau Ju Kua بعض البيانات الثمينة عن التجارة بين الصين والشرق الاسلامى فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وقد كان هذا الكاتب مفتشا للتجارة الخارجية فى اقليم فوكين بالصين ، وكتب فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى مؤلفا عن الأمم الأجنبية وتجارتها مع بلاده . وعنوان هذا الكتاب Chu-fan-chï ، وقد ترجمه الى الانجليزية الأستاذان F. Hirth هرث و W.W. Rockhill روكهل ، ونشراه سنة ١٩١١ م بمدينة سنت بطرسبرج مع شروح وتعليقات من مراجع أخرى ، وصدراه بمقدمة فيها موجز عن تاريخ التجارة بين الشرقين الأقصى والأدنى ، ذكرا فيه أن التجارة البحرية فى العصور القديمة والعصور الوسطى بين مصر وايران والشام من ناحية ، والشرق الأقصى والهند من ناحية أخرى ، كان معظمها فى أيدى العرب ، وكانوا يؤسسون منذ العصور القديمة محطات فى أهم الموانىء التى يمرون بها .

---

(١) التنبيه والاشراف (طبع عبد الله اسماعيل الصاوى بالقاهرة سنة ١٩٣٨ م) ص ٤٩

وقد كتب ياقوت الحمـوى (توفى سـنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) فى مادة « الصين » « ... وتحت واسط بليدة مشهورة يقال لها الصينية ، ويقال لها أيضا صينية الحوانيت .. ينسب اليها صينى .. منها الحسن بن أحمد بن ماهان أبو على الصينى حدث عن أحمد بن عبيد الواسطى يروى عنه أبو بكر الخطيب وقال كان قاضى بلدته وخطيبها .... وأما ابراهيم بن اسحق الصينى فهو كوفى كان يتجر الى الصين فنسب اليها .. وقال أبو سعد وممن نسب الى الصين أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصارى الأندلسى كان يكتب لنفسه الصينى ، لأنه كان قد سافر من المغرب الى الصين ، وكان فقيها صالحا كثير المال .. ومات سنة ٥٤١ .. ولهم صينى آخر لا يدرى الى أى شىء هو منسوب وهو حميد بن محمد بن على أبو عمرو الشيبانى يعرف بحميد الصينى .. » [١] .

والمعروف أن أمير بغداد ، حين لقب بمالك الدولة فى سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) بعث للخليفة ألطافا كثيرة ، كان منها ثلثمائة مبخر صينى . كذلك كان بين الكنوز الفنية التى جمعها خلفاء الفاطميين ووزراؤهم مقادير كبيرة من الخزف الصينى [٢] .

***

ونعرف من المراجع المختلفة أن بلاد الصين دخلت منذ منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) فى عهد مملوء بالحوادث والاضطرابات التى قضت على أسرة تانج فى سنة ٩٠٦ م / ٢٩٤ هـ . وبعد ذلك تعاقبت على حكم الصين خمس أسر حاكمة قصيرة الحكم تعرف باسم « ووتاى » من ٩٠٧ — ٩٥٩ م / ٢٩٥ هـ — ٣٤٨ هـ .

ولم تترك هذه الأسر أى أثر فى حياة الصين الداخلية بل أصبحت البلاد مرة أخرى يسودها الانحلال والفوضى الى أن غلبت على الحكم أسرة جديدة هى أسرة سونج فى ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ ، أعادت الأمن والطمأنينة الى البلاد . والواقع أن فترة الاضطرابات والانقلابات فى تاريخ الصين والتى أشار اليها كما مر بنا أبو زيد السيرافى ، والمسعودى قد قطعت صلة العرب بالصين نحو مائة سنة .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٢ وما ذكره من مراجع .

ولهذا لا نجد فى كتب الصين القديمة أى ذكر عن العرب الى الصين أو فى الصين بين سنتى ٨٥٠ و ٩٥٠ م / ٢٣٦ و ٣٣٩ هـ .

لكن مع ظهور أسرة سونج « سونغ » استؤنفت العلاقات السابقة بين بلاد الصين وبين العرب والمسلمين ، وأخذ تاريخ الصين يدون للمرة الثانية هذه العلاقات ، حتى اننا نرى ذكرا لخمس وعشرين سفارة قدمت من العرب بين سنتى ٩٦٠ م و ١١٤٠ م / ٣٤٩ و ٥٣٥ هـ ، وقد اختارت أغلب هذه السفارات طريق البحر كما كان أغلبها لتحسين العلاقات التجارية بين الصين والعرب ، وكانت السفارات التى من قبل التجار أكثر من التى من قبل الخلفاء[١] .

وكان التجار المسلمون يشتغلون ببيع العطور والبضائع الواردة وبتصدير منتجات الصين ، وأثرى بعضهم ثراء كبيرا . فتذكر الكتب الصينية أن أهم السفارات هو ما ورد فى سنة ٩٩٤ م و ٩٩٥ م (٣٨٤ و ٣٨٥ هـ) ، أما تفاصيل هاتين السفارتين فى الكتب الصينية فانها تعطينا صورة صادقة عن الثروة الحقيقية التى اكتسبها بعض التجار العرب فى أسواق الصين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى . ولم تكن هاتان السفارتان من خليفة بغداد وانما من تاجر عربى استوطن فى كانتون زمنا طويلا ، وكانت له مراكب تجارية ، وقد عرف اسمه فى الكتب الصينية باسم « بوهيم » ولعله ابراهيم بن اسحق ذلك التاجر الكبير الذى تقدمت الاشارة اليه ، والذى حدثنا عنه ياقوت فى معجم البلدان وذكر أنه كان يعرف بالصينى . وتذكر الكتب الصينية أنه لطول اقامته بالصين تعلم اللغة الصينية ، وأجاد الكتابة بها كأحد أبنائها العالمين بأسرار ودقائق اللغة[٢] .

وقد أنشىء فى عهد أسرة « سونج » مسجد « تشينغ كينغ » أى « الطاهر » فى ميناء « تشون شو » وذلك فى سنة ١٠٠٩ م / ٤٠٠ هـ ، ولا يزال هذا الجامع موجودا الى الآن[٣] . ويذكر المؤرخون الصينيون أن المسلمين فى عهد أسرة

---

(١) انظر محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٩ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٨٨ — ١٩٨

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٩١ — ١٩٦

(٣) انظر : محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٩

سونج كانوا متفوقين اقتصاديا ، وكان لهم موظفون هامون مثل مدير الجمرك المسلم المسمى « بوشوقينغ » [١] .

***

ولم ينقض نصف القرن الثانى عشر الميلادى (منتصف القرن السادس الهجرى) حتى أصبحت أسرة سونج لا تحكم الا الصين الجنوبية ، وكانت عاصمتها « هانج تشو » ، أما الصين الشمالية فقد غلب عليها قبائل من التتار الشرقيين عرفوا باسم جين ، كونوا مملكة « كين » المعروفة فى تاريخ الصين قبل أيام المغول ، وقد اشتهرت هذه المملكة فى الكتب العربية باسم « ما صين » وفى الكتب الفارسية باسم «ماچين» ، وهذه المملكة هى التى اتصلت بالدولة السامانية فى أواسط آسيا ، وكانت عاصمتها بكين ثم « كاى فونج » [٢] .

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ظهر المغول أو التتار على مسرح السياسة فى الشرق ، وقد كتب عنهم المؤرخون الصين فى حوادث القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ولكن لم يستفحل أمرهم ويخرجوا الى أرض الاسلام الا فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) .

وفى عهد چنكيز خان استطاع المغول أن ينتزعوا بعض أجزاء من أقاليم الصين الشمالية ، أما بقية الأجزاء فى هذه المنطقة فكانت لا تزال تحت حكم أسرة « كين » ، وكان لسقوط بكين على يد چنكيز خان عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، دوى عظيم فى الممالك الاسلامية فزادت هيبته فى نفوس الجميع ، لكن چنكيزخان عاد الى منغوليا فى سنة ٦١٣ هـ ، وبعد رحيله استعادت أسرة كين كثيرا من أملاكها المفقودة ، واستمرت امبراطوريتهم قائمة الى أن قضى عليها نهائيا فى عهد من أسرة سونج لولا وفاته فى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) [٣] .

وكان الاويغوريون الذين يسكنون شمال شرقى تركستان الحالية قد دخلوا أوگتاى بن چنگيزخان . وكاد يتم خان المغول قضائه على حكام الصين الجنوبية تحت سلطة چنكيز خان منذ سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . والاويغوريون كانوا أكثر

---

(١) المرجع السابق ص ١٠

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٩٨ ـ ١٩٩ محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١٠

(٣) انظر : الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ (دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٠) ص ٢٣ و ١١٩ ـ ١٢١

الأقوام التركية تمدنا ، كما كانوا واسطة الارتباط بين الايرانيين والصين والهنود. وفى سنة ٦١٥ هـ / تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية التى كانت تخضع للقراخطائيين ، وكان الأتراك القراخطائيون يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى تقع ما بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق ، وكان شاطىء سيحون يكون حدا فاصلا بين ممالك القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية ، وبذلك أصبح المغول يجاورون أملاك الخوارزميين وهم من أصل تركى ويدينون بالاسلام ، وكانوا ذوى ثقافة عربية وفارسية ، أما دولتهم فكانت تشمل كل منطقة ما وراء النهر وايران تقريبا [١] .

وكان چنكيز خان قد قضى تقريبا على الدولة الخوارزمية قبل سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) أما سقوط تلك الدولة فقد تم فى عهد اوكتاى ابن چنكيز خان فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) . وعند ما ولى منكو حفيد چنكيز خان حكم المغول فى سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ م صمم على فتح البلاد الم لم يتيسر فتحها من قبل ، فعهد الى أخيه هولاكو بالقضاء على طائفة الاسماعيلية فى ايران واخضاع الخليفة العباسى ، كما عهد الى أخيه قوبيلاى بفتح اقليم الصين الجنوبية ، وقد بدأ قوبيلاى بانجاز هذه المهمة فى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

ولما أصبح خانا للمغول سنة ٦٥٨ هـ اتخذ مدينة بكين عاصمة له ، وتم له الاستيلاء على بلاد الصين كلها فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٨ م) وأسس هناك دولة « يوان » التى حكمت مدة تسعين سنة [٢] .

أما هولاكو فانه نجح فى مهمته واستطاع أن يقضى على الاسماعيلية فى ايران ، كما توج فتوحات المغول بالاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وأسس فى ايران أسرة الايلخان التى ظلت تحكمها الى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) .

وهكذا نرى أن المغول أو التتار (التتر) كانت لهم بين القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) دولة واسعة الأطراف

---

(١) الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٥ — ٦ ، ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٥

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٣٤ — ١٣٥ ، محمد تواضع ، الصين والاسلام ص ١٠ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠١ — ٢٠٢

فى آسيا ، فكانت الصين وايران خاضعتين لحكم جملة أعضاء من بيت مغولى واحد . ومع أن أمراء الأسرة الايلخانية وأتباعهم تهذبوا بالحضارة الايرانية ثم اعتنقوا الاسلام الا أنهم لم يقطعوا أسباب العلاقة بينهم وبين المغول فى الصين . على أن صلة أسرة الايلخان فى ايران بأسرة يوان فى الصين لم يكن قوامها رابطة الجنس والقرابة فحسب ، بل زادت التجارة بين البلدين فى عصر الأسرتين ، كما عظم نفوذ الصين الثقافى فى ايران بفضل الموظفين والتراجمة والفنانين والصناع من الصينيين ، الذين قدموا من الشرق الأقصى وآسيا الوسطى ، وعملوا مع المغول فى ملكهم الجديد [١] .

وقد جاء فى كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين ، أن كثيرا من المصورين الصينيين قدموا الى ايران فى عهد هولاكو وغازان والجايتو ، كما انتشرت فى دولتهم الكتب الموضحة بالصور الصينية . والمعروف أن هولاكو وخلفاءه كانوا يشملون رجال الفن برعايتهم ، بل كانوا حين يخربون المدن فى حروبهم يعنون بانقاذ الفنانين والصناع ، وكان بعض أولئك الصناع يفلح فى العودة الى وطنه بعد العمل مع الصينيين والتأثر بأساليبهم الفنية [٢] .

والمعروف أن جموعا من المسلمين هاجروا الى الامبراطورية الصينية بعد غارات المغول ، وكان هؤلاء المسلمون مختلفى الجنس بين عرب وايرانيين وترك ، كما كان منهم التجار والصناع والفنانون والجند والفلاحون . وقد استقر عدد كبير منهم فى الصين وأصبحوا جالية اسلامية كبيرة امتازت بنشاطها واندمجت فى أهل البلاد وتقلد بعض أفرادها الوظائف السامية ولا سيما فى عصر قوبيلاى خان . وقد لاحظ وجودهم ماركو پولو الذى عاش فى الصين بين عامى ١٢٧٥ و ١٢٩٢ م (٦٧٤ — ٦٩٣ هـ) والذى كان مقربا الى قوبيلاى خان . وقد أتى ماركو پولو فى وصف رحلته بكثير من البيانات عن المسلمين فى الصين وعن العلاقة بين الصين والشرق الأدنى [٣] .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٥ — ١٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٢

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦ وما ذكره من مراجع .

وقد زار الرحالة المغربى ابن بطوطة عدة مدن ساحلية بالصين فى منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وتحدث عن حسن لقاء المسلمين فيها ، كما ذكر أن « فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون » [١] .

***

وقد سقطت أسرة ايلخان المغولية سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) فى ايران ، ولم تقم فى ايران دولة كبيرة على أثر سقوط الأسرة الايلخانية مباشرة ، بل خلف هذه الأسرة عدة دويلات حتى جاء الفاتح التترى الجديد تيمورلنك ، الذى اتخذ سمرقند عاصمة لملكه وأسس دولة ظلت تحكم ايران من سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) الى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) .

كذلك سقطت أسرة «يوان» المغولية فى الصين على أثر ثورة وطنية ، وقامت أسرة حاكمة فى الصين هى أسرة منج (منغ) التى حكمت الصين بين عامى ٧٧٠ و ١٠٥٤ هـ (١٣٦٨ — ١٦٤٣ م) وقد قامت العلاقات الودية بين أسرة منج وأسرة تيمور بعد نجاحهما فى تقويض نفوذ المغول فنمت العلاقة بين الصين وايران فى عصر تيمور وخلفائه وتبودلت البعثات بين البلدين فى عصر تيمور وابنه « شاه رخ » فأرسل تيمور ثلاث بعثات الى امبراطور الصين ، واستقبل شاه رخ ثلاث بعثات صينية فى بلاطه [٢] . وقد استقدم تيمور من الصين نساجين كان لهم نصيب وافر من ازدهار صناعة النسج فى ايران ، كما أن حفيده أولوغ بك (٨٥٠ — ٨٥٣ هـ = ١٤٤٧ — ١٤٤٩ م) استدعى بعض المهندسين والصناع من تلك البلاد ليشيدوا له قبة من القاشانى فى بلاد ما وراء النهر ، بل الظاهر أنه أتى بالقاشانى من بلاد الصين نفسها [٣] .

والواقع أن علاقات أسرة منج بالدول الاسلامية قد اتسعت اتساعا أكبر من ذى قبل ، ذلك لأن علاقات أسرة تانج وأسرة كين وأسرة سونج كانت مقصورة

---

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة (الطبعة الأوروبية) ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ وانظر الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦ — ١٧

(٣) انظر : G. Migeon : Manuel d'art Musulman (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١٥٦

على خلفـاء المدينة ودمشق وبغـداد ، وعلى أمراء العرب فيما وراء النهر وفى خراسان ، كذلك كانت علاقات « يوان » مقصورة على ملوك المغول فى ايران وأواسط آسيا ، أما علاقات منغ فقد شملت كافة الممالك والدل الاسلامية وكان من بين الدول التى اتصلت بها مصر وعدة أمارات بشرق أفريقية [١].

ويبدو أن المسلمين فى الصين لم يندمجوا فى أهل البلاد قبل عهد أسرة منج أى قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، اذ كانوا قبل سقوط أسرة « يوان » المغولية يحسبون جالية أجنبية ، بينما أصبحوا فى عصر منج (٧٧٠ — ١٠٥٤ هـ = ١٣٦٨ — ١٦٤٣ م) أقرب الى الصينيين أنفسهم ، ولا سيما أن عددهم لم يزد بقدوم لاجئين جدد ، وضعف اتصالهم ببنى دينهم خارج الصين ، فاختلطوا بأهل البلاد الصينيين واتخذوا عاداتهم وملابسهم ، ووصل بعضهم الى أسمى المناصب بين موظفى الدولة ، وشملهم ملوك الصين برعايتهم ، وسمحوا لهم بتشييد المساجد العديدة فى البلاد ، والواقع أن عهد أسرة منج هو عصر ازدهار الاسلام فى الصين ، وقد ظهر أثر هـذا الازدهار فى ناحية العلم والفن وفى الأمور السياسـية والخارجية ، وظهر الوزراء المسلمـون والقواد المسلمون . كذلك أبحر قائد الأساطيل الصينية المسلم « جينغ خو » سبع مرات الى المحيطين الهادى والهندى حتى وصل الى سواحل أفريقية الشرقية [٢] .

ولم تكن العلاقة بين الصين وايران فى عصر من العصور أوثق منها فى عصر شاه رخ (٨٠٧ — ٨٥٠ هـ = ١٤٠٤ — ١٤٤٧ م) .

وكان ابنه بايسنقر (الذى توفى قبله بأربع عشرة سنة) من أكبر رعاة فن التصوير فى ايران ، فضم المصـور غياث الدين الى البعثة التى أرسلها والده شاه رخ الى امبراطور الصـين نحو سـنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) والتى عادت سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) ، وقد أمر بايسنقر المصور المذكور أن يكتب وصفا لرحلته وما يشاهده ففعل المصور ذلك ، ووصل الينا ما كتبه غياث الدين بوساطة

---

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠٩ ، ٢٣٠ — ٢٤١

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٧ ، محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١١ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠٩

الكاتب كمال الدين عبد الرزاق المتوفى فى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، والذى أتى فى كتابه « مطلع السعدين » على خلاصة ما كتبه غياث الدين . وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية على يد المستشرق كترمير Quatremère . وقد قيل ان شاه رخ أرسل مع بعض سفراء الصين ردا على امبراطورهم يحييه فيه ويشرح له مزايا الاسلام ويدعوه الى اعتناقه [١] .

والمعروف أن الديانة البوذية لا تزال سائدة فى الصين ، أما ديانة المانوية فقد تسربت الى الصين عند فتح العرب لبلاد فارس وفرار يزدجرد اليها الا أن هذه الديانة لم تتغلغل تغلغلا كبيرا فى الصين وليس لها وجود الآن . وأما عبادة الملوك والسجود لهم فقد ظلت متبعة فى الصين الى آخر عهد أسرة مانشو (١٦٤٤ — ١٩١١ م) ثم قضى الانقلاب السياسى فى سنة ١٩١١ م على هذه العادة [٢] .

***

وقد تحدث الغزولى [٣] (المتوفى سنة ٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) عن البلور وأنواعه وخواصه وذكر أن منه ما يؤتى به من بلاد الصين .

وقد تحدث الغزولى (المتوفى سنة ٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) عن البلور وأنواعه وخواصه وذكر أن منه ما يؤتى به من بلاد الصين .

ومما عثر عليه المنقبون عن الآثار فى أطلال مدينة الفسطاط ، أولى العواصم الاسلامية فى مصر ، قطع كثيرة من الخزف الصينى ، وأكبر الظن أن ورود هذا الخزف الى وادى النيل يرجع الى عصر أحمد ابن طولون ، الذى عرف طرائف الصين فى سامرا . ولا ريب فى أنه ظل يرد الى مصر حتى عصر المماليك ، وحسبنا أن الأمير بكتمر الساقى — الذى تزوجت ابنته أحد أبناء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون — كان بين كنوزه الفنية مقدار وافر من خزف الصين [٤] .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٧ — ١٨ وما أشار اليه من مراجع .

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٩٨ — ٩٩

(٣) مطالع البدور فى منازل السرور (مطبعة الوطن سنة ١٣٠٠ هـ) ج ٢ ص ١٥٨

(٤) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٣

وقد كتب ابن اياس (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ — ١٥٢٤ م) فى مؤلفه « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » أن مدينة لوقين[١] كانت تصنع فيها المنسوجات المتعددة الألوان والأوانى الخزفية الصينية التى تصدر الى أنحاء العالم المختلفة[٢] .

ومما كتبه المقريزى ، فى كلامه عن سوق الكفتيين ، أى الذين يشتغلون بتطعيم المعادن (أو تكفيتها) بالذهب والفضة ، أن « العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار » كانت تحمل الى زوجها جهازا ، منه مقدار من الخزف الصينى ومقدار من آنية أو أدوات من الورق سماها « كداهى» وقال عنها « وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين ، أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا ، وقد عدم هذا الصنف من مصر الا شيئا يسيرا »[٣] .

وقد أشار أمير البحر التركى سيدى على چلبى[٤] فى كتابه «مرآة الممالك» الى أن أبدع أنواع الخزف كان مصدرها مدينتين من مدن الصين .

***

وقد ظل المسلمون فى الصين ينعمون برعاية الحكومة حتى قامت قبائل « منشو » التترية وهم من منشوريا الجنوبية فأسقطوا أسرة منج وأقاموا أسرة « تاتسينج » المنشورية (١٦٤٤ — ١٩١١ م / ١٠٥٤ هـ — ١٣٢٩ هـ) التى قامت فى عهدها الثورات الكثيرة وخاصة ثورات المسلمين الخمسة الكبيرة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، ثم قامت أخيرا الثورة العامة برياسة الدكتور « سون يات سين » وأنشئت الجمهورية الصينية سنة ١٩١٢ م التى

---

(١) لوقين هى « هانوى » الحالية ويحتمل أن تكون « لنج بين » على مقربة من هانوى الحالية .

(٢) راجع G. Ferrand : Relation de voyages et textes géographiques p. 481

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ (طبعة بولاق) ص ١٠٥

(٤) كان أمير البحر على الأسطول الذى أرسله السلطان سليمان العثمانى لطاردة البرتغاليين سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٣ م) وقد دمرت العواصف هذا الأسطول ونزل الأميرال الى البر فى الهند . وكان شاعرا واديبا فعكف على تدوين البيانات عن مشاهداته ثم عاد الى تركيا بطريق البحر ، فنشر هذه البيانات فى كتاب أسماه « مرآة الممالك » ترجم الى الألمانية ثم الى الفرنسية ونشر فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٢٠ ، ونقل بعد ذلك الى الانجليزية على ڤامبرى

A. Vambéry : The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the year 1553 (London 1899)

قررت أنها مكونة من الشعوب الخمسة وهم الخانيون « الصينيون الأصليون » والمنشوريون والمنغوليون والمسلمون والتبتيون [١] .

***

والمعروف أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح قضى على احتكار المسلمين التجارة مع الشرق الأقصى ، اذ أفلح البرتغاليون فى القضاء على السيادة البحرية التى كانت للمسلمين فى المحيط ، ثم قبض الهولنديون ومن بعدهم الانجليز على زمام التجارة مع البحار الشرقية ، على أن الجزء الشرقى من العالم الاسلامى ظل على اتصال بالصين فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) ، وقد أثر هذا الاتصال على المنتجات الفنية الايرانية فى عصر الدولة الصفوية حتى غدت أصفهان مسرحا للغرام بكل ما هو صينى [٢] . لكن هذه الفنون بدأت فى الاضمحلال منذ القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) فضلا عن أنها فقدت صلتها بفنون الشرق الأقصى ، وبمت وجهها شطر أوربا [٣] .

والمعروف أن الشاه عباس الصفوى أحضر كثيرا من الخزفيين الصينيين مع أسراتهم الى مملكته لينشروا صناعة الخزف فى ايران ، ولينهضوا بتلك الصناعة حتى يمكن اصدار الخزف والصينى الى أوربا ، وقد استقر هؤلاء الفنانون فى مدينة اصفهان ، كما قدم الى شتى المدن الصناعية الايرانية خزفيون من الصين يعرضون خدماتهم على أصحاب المصانع الفنيـة منها ويساهمون فى النهضـة بصناعة الخزف الايرانى ، أما تجار التحف الصينية فكانوا ينزلون مدينة أردبيل فى العصر الصفوى ، وقد روى بعض الرحالة أن تاجرين صينيين كان لهما حانوت لبيع الخزف الصينى بمدينة أردبيل فى بداية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) [٤] .

***

---

(١) انظر : محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١٢ — ١٤

(٢) انظر : E. Blochet : Musulman Painting p. 62

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٤ وما ذكره من مراجع .

والواضح أن آسيا الوسطى كانت واسطة فى نقل كثير من الأساليب الفنية الصينية الى ايران . وكان لأتباع مانى فضل يذكر فى هذا الميدان . والمعروف أن مانى بشر بمذهب دينى جديد فى ايران فى القرن الثالث الميلادى وكان مصورا ماهرا ، كما كان للتصوير عنده وعند أتباعه شأن كبير فى توضيح كتبهم الدينية . وتشهد المراجع التاريخية بأن أصحاب مذهب مانى كانت لديهم مخطوطات مصورة فاخرة ومحفوظة فى جلود فنية ثمينة . ولكن المعروف أن الأكاسرة الساسانيين ، ثم الخلفاء المسلمين كانوا يضطهدونهم ، وأنهم فروا من اضطهاد الخلافة فى القرن الثامن الميلادى والثانى الهجرى ، واستقروا فى اقليم تركستان وغيره من أقاليم آسيا الوسطى . وقد قضى هذا الاضطهاد على مخلفاتهم الثمينة ، حتى أننا لم نكن نعرف عنها شيئا ماديا الى سنة ١٩٠٤ حين كشف الأستاذان فون لوكوك Von le Coq وجرينفيدل Grunwedel بعض صور مانوية فى أطلال مدينة من أعمال « طرفان » فى بلاد التركستان الشرقية .

وكانت طرفان بين عامى ١٣٤ و ٢٢٥ بعد الهجرة (٧٦٠ — ٨٤٠ م) عاصمة لدولة الأويغور التركية الجنس والمانوية المذهب حينذاك . ويدل أسلوب هذه الصور على العلاقة الوثيقة بين الفنون التى ازدهرت فى آسيا الوسطى والفنون الصينية نفسها ، مما يحملنا على القول بأن اتباع المذهب المانوى اشتركوا فى نقل الأساليب الفنية الصينية الى شرق العالم الاسلامى[١] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المسلمين كانوا يستوردون من الصين أنواع الورق الصينى الفاخر مما استعملوه فى بعض مخطوطاتهم الثمينة[٢] .

وقد أخذ العرب هذه الصناعة من أسرى الصينيين فى سمرقند بعد موقعة تالاس فى ٧٥١ م . ونلاحظ أن كلمة كاغد التى استعملها الكتاب والمؤرخون

---

(١) انظر : P. Pelliot : La Haute Asie pp. 12, 13, 17, 18, Albert Grunwedel Altbuddhistisch Kunststœtten, Berlin 1812, Albert von le Coq : Chotscho, Kœnigliche Preussische Turfan-Expedition (Berlin 1913). ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٥ — ٢٦ وما ذكره من مراجع .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٥

العرب هى كلمة صينية الأصل أخذها عنهم الايرانيون ثم أخذها العرب من الايرانيين ، وأصل معناها الورق الذى يصنع من قشر شجر التوت [١] .

ومهما يكن من الأمر فان النصوص الأدبية والتاريخية الاسلامية تشهد بأن المسلمين كانوا يعترفون لرجال الفن فى الصين بالأسبقية فى ميدان الفنون كما كانوا يعجبون بالتحف الصينية أشد اعجاب فلا عجب اذ ظهر تأثير الأساليب الفنية الصينية فى الفنون الاسلامية .

والحق أن كتاب العرب وشعراء الفرس وكتابهم كانوا يعجبون منذ فجر الاسلام بمهارة الصينيين فى الفنون والصنائع الدقيقة وكانوا يعتبرونهم مثلا أعلى فى اتقان فن التصوير . ولا أدل على ذلك من أن أحد شعراء الفرس فى العصر الاسلامى يقول فى وصف حبيبته ان شفتها الجميلة تبدو كأنها رسمت بريشة مصور صينى [٢] .

وقد كتب ابن الفقيه الهمذانى [٣] (توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل العاشر الميلادى) أن الله عز وجل خص أهل الصين باحكام الصناعة ، وأنه منحهم فى ذلك ما لم يمنحه أحدا غيرهم فكان لهم الحرير والغضائر الصينى والسروج الصينى وغير ذلك من المنتجات الدقيقة المحكمة .

وتحدث المسعودى (توفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) عن ملك من ملوك الصين شيد السفن وأرسل عليها وفودا الى البلاد المختلفة « تحمل لطائف بلاد الصين ، فلم يردوا على أهل مملكة الا وأعجبوا بهم واستظرفوا ما أوردوه من أرضهم » [٤] وذكر المسعودى [٥] أيضا أنهم لم يعبدوا الأصنام فحسب بل كانوا يعبدون الصور ويتوجهون نحوها بالصلوات .

وقد كتب أبو منصور الثعالبى [٦] (توفى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م) نبذة عن

---

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٨٥

(٢) P. Horn : Geschichte der Persischen Literature p. 78

Ph. W. Schulz : Die Persisch-Islamische Miniaturmalerei, ص ٤٤ (ليبزج ١٩٠١) ،

(٣) مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥ م) ص ٢٥١

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٨٠ — ٨١

(٥) نفس المرجع ص ٨٢

(٦) لطائف المعارف ص ١٢٧ وما بعدها .

مهارة الصينين فى الفنون ، نقلها عنه النويرى[١] (ت سنة ٧٣٣ هـ = ١٣٣٣ م) . قال : «وأما الصين وما اختص به فان العرب تقول لكل طرفة من الأوانى «صينية» كائنة ما كانت ، لاختصاص الصين بالطرائف وأهل الصين خصوا بصناعة الطرف والملح وخرط التماثيل والابداع فى عمل النقوش والتصاوير « حتى ان مصورهم يصور الانسان فلا يغادر شيئا الا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور والهادىء ، ويركب صورة فى صورة » .

ومما تخيله الشاعر الفارسى نظامى (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ، ١٢٠٣ م) فى قصته الشعرية « اسكندر نامه » مباراة فى التصوير بين فنان رومى وآخر صينى وذلك فى حضرة الاسكندر وخاقان الصين .

وقد ترجم الأستاذ توماس أرنولد حديث هذه المباراة فى كتابه التصوير فى الاسلام Painting in Islam. ونجد أن نظامى لا يختم قصة هذه المباراة ببيان الفائز فيها ، بل يكشف ميدانا جديدا من المهارة عند أهل الصين ، فيذكر أن المصور الرومى عكف على رسم صورة على القبو الذى أعد له ، وبينه وبين زميله ستار يفصله عنه ولا يرفع قبل اتمامها التصوير . وبينما كان الرومى يفعل ذلك أقبل الفنان الصينى على تلميع الجزء الذى أعد له ، فلما رفع الستار انعكست صورة الرومى على الجزء الذى أتقن الصينى تلميعه فظهر كأن لا فرق بين الصورتين ، وعجب المشاهدون لهذا الشبه العجيب بين الرسمين ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا السر فى ذلك كله[٢].

ومن النصوص التى جاء فيها ما يشهد باعجاب المسلمين بالخزف الصينى حكاية فى باب فضل القناعة من كتاب گلستان « لسعدى » الشاعر الايرانى (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م) ، تحدث فيها عن تاجر ثرثار أخبره أنه يستعد لرحلة جديدة ، فسأله سعدى أين تكون تلك السفرة . وأجاب التاجر : « أريد

---

(١) نهاية الارب فى فنون الادب (طبعة دار الكتب المصرية) ج١ ص ٩٦٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٨ — ٢٩ وما ذكره من مراجع .

أن أحمل الكبريت من ايران الى الصين ، فقد سمعت أن له قيمة عظيمة فيها . ومن هنالك آخذ الخزف الصينى الى بلاد الروم »[١] .

وكتب الرحالة ابن بطوطة (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) ان الخزف الصينى هو أبدع أنواع الفخار[٢] ، كما تحدث عن مهارة أهل الصين فى الفنون فقال : « وأهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها . وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الأسواق . ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتى وصور أصحابى فى كاغد قد ألصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطى شيئا من شبهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا الى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك الى أن الغريب ، اذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحينما وجد شبه تلك الصورة أخذ »[٣] .

وكتب ابن الوردى[٤] (القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى) أن أهل الصين « أحذق الناس فى الصناعات والنقوش والتصوير وأن الواحد منهم ليعمل بيده من النقش والتصوير ما يعجز عنه أهل الأرض . وكان من عادات ملوكهم أن الملك منهم اذا سمع بنقاش أو مصور فى أقطار بلاده أرسل اليه بقاصد ومال ورغبة فى الاشخاص اليه ... » .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٩ وما ذكره من مراجع .

(٢) رحلة ابن بطوطة (الطبعة الأوربية) ج ٤ ص ٢٥٦

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٢٦١ — ٢٦٣

(٤) خريدة العجائب وفريدة الغرائب (طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٩ م) ص ٥٢ — ٥٣

كذلك ذكر ابن الوردى أن ملك الصين اذا كان له عدة أولاد « ثم مات ، لا يرث ملكه منهم الا أحذقهم بالنقش والتصوير » .

وقد ذكر ابن خلدون[١] (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) الصين بين الأمم التى اشتهرت بكثرة صنائعها . قال فى الكلام عن أن العرب أبعد الناس عن الصنائع : « ... ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه فى الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم » .

كذلك كتب أبو الفدا [٢] (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) أن أهل الصين « أحذق الناس فى الصناعات » وأنهم « أحذق خلق الله تعالى بنقش وتصوير بحيث يعمل الرجل الصينى بيده ما يعجز عنه أهل الأرض » .

وقد جاء فى ترجمة فارسية من كتاب كليلة ودمنة (تمت فى نهاية القرن ٩ هـ ، ١٥ م) ذكر مهارة أهل الصين فى الفنون ، وذلك فى معرض مدح مصور ، قيل عنه انه « حين يرسم بريشته وجوها ، فان أرواح مصورى الصين تتحير فى وادى العجب ، كما قيل عنه أيضا « ان عبقريته جعلت قلوب أولئك الفنانين الصينيين تغمر وتغلب على أمرها فى صحراء الدهش » [٣] .

ومن دلائل الاعجاب بمهارة الصينيين فى التصوير ما تخيله الشاعر الايرانى عبد الرحمن الجامى (القرن ٩ هـ ، ١٥ م) فى منظومته « يوسف وزليخا » فقد جعل فيها امرأة العزيز تطلب مصورا صينيا ليرسم صورا لها وليوسف [٤] .

والواقع أن الفنانين فى ديار الاسلام أقبلوا على تقليد التحف الصينية ولا سيما الخزف ، كما قلدوا زخارف المنسوجات الحريرية الصينية ، ورسموا

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ، الفصل الحادى والعشرين « فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع » .

(٢) انظر : أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٠٢

(٣) راجع : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٣١ ، Th. Arnold : Painting in Islam ص ٦٩

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٣١ وما ذكره من مراجع .

صورا بديعة على الطراز الصينى ، وأقبلوا على جعل السحنة فى رسم الأشخاص على تحفهم وفى مخطوطاتهم مغولية الى حد كبير على الرغم من أنهم لا ينتمون الى الجنس الأصفر . كذلك تأثر الفنانون فى الاسلام بالرسوم الصينية فى الدقة ومحاكاة الطبيعة فى رسوم الحيوان والنبات وفى استعمال الألوان الهادئة ، وفى احتمال الفراغ فى الزخرفة خارجين بذلك على القاعدة التى نعرفها فى الفنون الاسلامية عامة وهى الهرب من الفراغ والعمل على تغطية المساحات كلها بالرسوم والزخارف ، كما نقل الفنانون فى ديار الاسلام بعض الموضوعات الزخرفية عن الفنون الصينية مثل رسوم بعض الحيوانات الخرافية ورسوم السحب الصينية .

وطبيعى أن أثر الفنون الصينية كان واضحا فى شرق العالم الاسلامى دون غربه لأن شرق العالم الاسلامى كان بحكم الموقع الجغرافى على صلة بالصين ، وكان التأثر ظاهرا فى الزخارف ومنتجات الفنون الزخرفية دون العمارة لأن التحف الصينية المنقولة هى التى تأثر بها الفنانون فى ديار الاسلام[١].

---

(١) راجع ماكتبه الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه الصين وفنون الاسلام عن مظاهر الأثر الصينى فى الفنون الاسلامية وما أشار اليه من مراجع وما أتى به من أشكال ص ٣٣ — ٧٤

الجمهوريات الإفريقية المنتمية للمجموعة الفرنسية

للدكتور صدوح العفاد

المدرس بقسم التاريخ

يتقلص الاستعمار سريعا عن القارة الافريقية ، ولكنه اذ يولى يحاول جاهدا أن يستبقى كل ما يستطيع من مظاهر النفوذ ، ولا سيما النفوذ الاقتصادى . وتتضح لنا هذه الحقيقية عند دراسة تطور المستعمرات الفرنسية فى افريقيا حتى انتهى معظمها بالحصول على استقلالها السياسى فى سنة ١٩٦٠

فقد برز الى الوجود فى ذلك التاريخ أربع عشرة جمهورية أصبحت جميعا أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة وتشكل كتلة كبيرة فى مجموعة الدول الأسيوية والافريقية . وكانت جميع هذه الجمهوريات مستعمرات فرنسية فى افريقيا الاستوائية والغربية باستثناء مدغشقر وهى الجزيرة الكبيرة التى تواجه ساحل افريقيا الشرقى . وقد اختارت جميعا باستثناء غينيا البقاء فى العائلة الفرنسية La Communauté Française وهو الاسم الذى اختاره ديجول حينما طور نظام الاتحاد الفرنسى وجعله قريبا من نظام الكومنولث . ولذا فان الدول الأعضاء تستمتع من الناحية القانونية بسيادة كاملة ولكن يبدو أن فترة الاستعمار الفرنسى قد تركت آثار عميقة بين الطبقات المثقفة فى تلك البلاد وهى الطبقة التى تسلمت زمام الحكم بعد الاستقلال . ولذا يلاحظ أن حكومات تلك الجمهوريات لم تساير فى جميع الأحوال التضامن الافريقى فى وثبته المتحررة ويبدو ذلك واضحا من موقفها فى الأمم المتحدة ازاء قضية الجزائر ، حيث رفض معظمها الموافقة على المشروع الافريقى الأسيوى الذى يدين فرنسا وفضلت مشروعا آخر يدعو فرنسا فقط الى التفاوض لانهاء الحرب فى الجزائر . ولم تخرج عن

هذه السياسة سوى جمهورية مالى التى وان بقيت عضوا فى مجموعة الشعوب الفرنسية لمدة قصيرة الا أنها تقدم على هذا الارتباط ، ارتباطا بالدول الافريقية المتحررة كما يتضح ذلك من اشتراكها فى مؤتمر الدار البيضاء .

وسنحاول فى هـذا المقال أن تتتبع تطور النظم الفرنسية فى حكم تلك المستعمرات حتى انتهت بالاستقلال السياسى فى سنة ١٩٦٠ .

يرجع اتصال الفرنسيين بساحل أفريقيا الغربى وبجزيرة مدغشقر الى منتصف القرن السابع عشر . حينما شاركت فرنسا فى انشاء الشركات الاستعمارية بقصد احتكار التجارة مع الهند والشرق الأقصى . وعند مصب السنغال فى جزيرة سميت بسان لويس اتخذ الفرنسيون أقدم قاعدة بحرية لخدمة خط ملاحة الشرق وستصبح هذه القاعدة فيما بعد عاصمة غرب افريقيا الفرنسية . وفى منتصف القرن التاسع عشر أقام الفرنسيون مراكز جديدة على ساحل العاج وداهومى والجابون واتسعت أهداف تلك المراكز فلم تكن محطات للبحرية بقدر ما كانت قواعد للاستكشاف والتبشير ، ومن المعروف أن المكتشفين والمبشرين هم الذين مهدوا الطريق للاستعمار الأوربى فى افريقيا . ومن أشهر المكتشفين الفرنسيين « سڤرنيان دى برازا » Savorgnan de Brazza الذى قام فيما بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٨٧ برحلات عديدة فى افريقيا الاستوائية حتى أطلق اسمه على عاصمة المستعمرات الفرنسية فيها وهى برازاڤيل .

أما غرب افريقيا فقد صادف الفرنسيون فيها امبراطوريات اسلامية كبيرة خاصة فيما كان يعرف بالسودان الفرنسى ولذلك خاضوا عدة حروب شديدة قبل أن يتمكنوا من اخضاع تلك البلاد فى نهاية القرن التاسع عشر . وقد اتخذوا من السنغال قاعدة للتوغل فى غرب افريقيا كما اتخذوا من الجابون قاعدة للتوغل فى افريقيا الاستوائية .

وفى هـذه الفترة التى اشتهرت بالتنافس الشديد بين الدول الاستعمارية اصطدمت فرنسا فى حركتها التوسعية بمحاولات البلجيكيين فى الكونغو ، ثم محاولات الانجليز فى نيجيريا ووادى النيل . وبعد حادث فاشودا الشهير عقدت معاهدة بين بريطانيا وفرنسا فى سنة ١٨٩٩ خططت بمقتضاها الحدود التى تفصل بين مستعمرات كل من البلدين . وحسب هذا التقسيم حصلت فرنسا على الجزء

الأكبر من غرب القارة ووسطها ولكن الممتلكات الفرنسية وان كانت أكثر اتساعا من جاراتها البريطانية ، الا أنها تضم مناطق صحراوية كثيرة ، وهى على العموم أقل من الممتلكات البريطانية من حيث الثروة الاقتصادية .

وبعد توضيح معالم تلك المستعمرات من الناحية الجغرافية أمكن لفرنسا تقسيمها اداريا الى مجموعتين ، سميت المجموعة الكبرى منهـا بغرب افريقيا الفرنسية وهى تشتهر فى المراجع الأجنبية باسم A. O. F. اختزالا لكلمة Afrique Occidentale Francaise وافريقيا الاستوائية الفرنسية التى تعرف بـ A. E. F. اختزالا لكلمة Afrique Equatoriale Francaise وقد قسمت الأولى الى سبع وحدات ادارية والثانية الى أربع وحدات ، وسيكون هـذا التقسيم الادارى الفرنسى أساسا للوحدات السياسيةأو الجمهوريات التى نشأت سنة١٩٦٠ وأصبحت أعضاء فى العائلة الفرنسية وقد أضيفت قبل الحرب الى وحدات غرب افريقيا منطقة ثامنة هى موريتانيا . وكان هدف السياسة الفرنسية من هـذه التقسيمات هو اتاحة الفرصة لتطبيق النظام اللامركزى ، حيث يستطيع حاكم كل وحدة ادارية أن يتصرف فى التشريعات والادارة المحلية بما يتلاءم وظروف منطقته ، ولذلك ألحقت بهذه الوحدات مجالس استشارية تتألف من النبالات الوطنية أو الرؤساء التقليديين . ولكن من الناحية العملية كان الحاكم العام لكل من افريقيا الغربية فى سان لويس ، وافريقيا الاستوائية فى برازافيل حاكما مطلق السلطات حتى لقب بالـ Proconsul وهو اللقب الذى كان يطلق على حكام الأقاليم النائية فى الامبراطورية الرومانية القديمة والذين كانوا يستمتعون بسلطات مطلقة بسبب ضعف اشراف الحكومة المركزية . وقد أصبح كل حاكم فرنسى يحيط نفسه بمجلس فيدرالى ، وكان يضع التشريعات ويقدمها لرئيس الجمهورية لاصدارها ، ونتج عن ذلك أن تجاهلت الادارة الفرنسية الطابع المحلى لأقاليم المستعمرات وكان هذا من الأسباب التى أضعفت النزعات القبلية بالتدريج ، خاصة وان التقسيمات الادارية لم تكن تتمشى مع التوزيعات القبلية ، وبالتدريج نسى الفرد أنه ينتمى الى قبائل الماندنجو أو التكرور أو الموسيى وأصبح يفكر فى أنه من سـكان ساحل العاج أو داهومى أو السـودان أو تشاد وغير ذلك من الوحدات الادارية التى أوجدها الاستعمار . وقد ساعد ذلك فيما بعد على تماسك الجمهوريات الافريقية عندما استقلت ويمكن مقارنة هذه النتائج بالسياسة

التى اتبعتها بلجيكا فى الكونغو حيث فصلت فصلا تاما بين الادارات التى تختص بشئون الافريقيين المحلية ، فوزعتها حسب القبائل . فلكل قبيلة مجلسها ومحكمتها الخاصة ، وبين الادارة الحكومية العليا التى تختص بالسياسة العامة واستقلال البلاد اقتصاديا وهى ادارة بلچيكية محضة وقد نتج عن ذلك تأصل الروح القبلية والنزعات الانفصالية التى تعانى منها جمهورية الكونغو بعد استقلالها . . . . . ومما ساعد على اضعاف الروح القبلية فى المستعمرات الفرنسية اعتماد الادارة على طبقة المثقفين ثقافة فرنسية ، فمن هؤلاء كان يختار أعضاء المجالس المحلية . وقد انسلخ هؤلاء تدريجيا عن قبائلهم ، كذلك كثر تنقل القبائل واختلاط بعضها ببعض فى ظل الحكم الفرنسى بعد أن دمرت الزعامات التقليدية .

وقد أشرنا الى أن الفرنسيين حطموا الامبراطوريات الاسلامية فى غرب افريقيا ولكن هذا لم يمنع اعترافهم فترة من الزمن ببعض الملوك الذين كانوا يحكمون مناطق أو قبائل أصغر من الامبراطوريات الاسلامية مثل تلك التى أنشأها ساموری فى السودان أو رابح بن الزبير فى افريقيا الاستوائية ، وقد التجأ بعض هؤلاء الرؤساء والأمراء الصغار الى طلب الحماية الفرنسية بأنفسهم هروبا من الامبراطوريات الاسلامية مثال ذلك « المامى » وهو لقب الملك الذى كان يحكم بعض أقاليم من غينيا، والموروناباً فى الفولتا العليا واشترط المامى أن يستمر نظام انتخابه بواسطة رؤساء القبائل . الا أن الفرنسيين ضاقوا ذرعا بهذه الأنظمة وبالتدريج حولوا هؤلاء الرؤساء الى مجرد أصحاب معاشات ، اذ تنازلوا تماما عن جميع سلطاتهم واكتفوا بالمرتبات التى تصرفها الادارة الفرنسية .

ويختلف هـذا النظام تماما عن نظام الحكم غير المباشر الذى اتبعه الانجليز فى افريقيا الغربية .

واذن فقد أعطى النظام الفرنسى شكلا سياسيا موحدا للمستعمرات فهى مثل فرنسا مقسمة الى أقاليم كبيرة وهذه الأقاليم مقسمة بدورها الى كانتونات وهى الوحدة الصغيرة .

أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فلم تعن الادارة الفرنسية فى هذه الفترة الأولى من استعمارها لافريقيا الا باستغلال الموارد الطبيعية لصالح شركات الاحتكار . وكانت هناك شركات تحتكر زراعة الفول السودانى وعصره لانتاج الزيوت . وأخرى تحتكر استخراج المعادن وهكذا . ولم تتدخل الادارة فى شئون

التعليم أو الصحة أو الشئون القضائية الخاصة بالقبائل ولذلك استمرت المحاكم الشرعية تمارس سلطاتها القضائية فى البيئات الاسلامية . أما القبائل الوثنية فكانت تطبق العرف . ولم تتح فرص للتشبع بالثقافة الفرنسية الا فى بيئات محدودة تقتصر عادة على أبناء الرؤساء التقليديين أو اذا صح التعبير الارستقراطية الافريقية .

ولتغطية نفقات الادارة لجأ الفرنسيون الى نوعين من الضريبة .

١ — ضريبة الرؤوس .

٢ — الضريبة على المنتجات الزراعية حسب المحصول أو حسب المساحة .

ولذلك لم تتحمل فرنسا أى عبء مالى لادارة المستعمرات فى افريقيا الوسطى والغربية حتى الحرب العالمية الثانية ، هذا فى الوقت الذى أخضع فيه السكان لنظام التجنيد الاجبارى أو للعمل الاجبارى فى المشروعات الكبرى فكان من حق المديرين أن يفرضوا على كل قرية نسبة من العمال بدون أجر للعمل فى مد الخطوط الحديدية أو غير ذلك من المنشئات وقد أخذت هذه الأوضاع تنعكس عند قيام الحرب العالمية الثانية عندما ألغى نظام العمل الاجبارى . وبدأت الادارة الفرنسية تهتم بالشئون الاجتماعية للسكان ، فألغيت ضريبة الرؤوس والضرائب الزراعية . وأصبحت فرنسا تتحمل أعباء مالية لسد العجز فى ميزانية افريقيا الغربية والاستوائية . وأصبحت منافع الاستعمار قاصرة على أصحاب رؤوس الأموال ملاك الأسهم فى شركات الاحتكار . ومن هنا كان الصراع الداخلى فى فرنسا نفسها بين الأحزاب اليسارية وبين الحكومة ازاء مشكلة المستعمرات كما سنرى.. وهذا الانعكاس يعد نتيجة للتطورات التى حدثت خلال الحرب الثانية .

تطور المستعمرات منذ الحرب العالمية الثانية

أظهرت الحرب الثانية لفرنسا كيف أن الافريقيين ليسوا مجرد شعوب مستضعفة تستغل بلادها ، بل هى شعوب حية تستطيع أن تقوم بدور فعال من أجل الدفاع عن قضايا الحرية . ذلك أنه عندما احتل الألمان فرنسا فى سنة ١٩٤٠ ، التجأ أحد الجنرالات الفرنسيين وهو شارل ديجول الى لندن ، وألف هناك حكومة باسم حكومة فرنسا الحرة . وأخذ يعمل بالتعاون مع بريطانيا لتحرير بلاده واتجه أولا الى المستعمرات الافريقية . وبينما أظهر المستوطنون ورجال الادارة

طاعة لحكومة فيشى الموالية للألمان أظهر الافريقيون ميولا نحو حكومة فرنسا الحرة . وكانت مستعمرة تشاد هى أول مستعمرة فى افريقيا أعلنت تحولها الى التبعية لديجول مع ملاحظة أن تشاد كانت هى المستعمرة الوحيدة التى تولى منصب الحاكم فيها أحد الافريقيين وهو فيلكس ايبوى وبعد تحول تشاد توالى دخول المستعمرات الافريقية كالكمرون والجابون والكونغو الفرنسية فى تبعية ديجول . ومن سكان هـذه المستعمرات كون ديجول القسم الأكبر من الفرقة الأولى لجيش فرنسا الحرة . ولهذا كان طبيعيا أن يحاول ديجول تغيير النظام الاستعمارى العتيق فأعلن حتى قبيل تحرير الأراضى الفرنسية فى مؤتمر عقده فى برازاڤيل سنة ١٩٤٤ أنه سيكافىء سكان المستعمرات ، وذلك باعلان المساواه فى الحقوق السياسية والغاء الاحتكارات الاقتصادية . وكان الفرنسيون منذ أن دخلوا افريقيا يعتقدون بأنهم دخلوها محررين وأن الهدف الأسمى للأفريقى هو أن يتمثل الحضارة الأوربية ، فيعتنق الكاثوليكية دينا ويتخذ الفرنسية لغة ويسير فى حياته الاجتماعية فى الأسرة على نظام الفرنسيين وحينئذ يصبح جديرا بأن يكون مواطنا .

وقد فتح باب المواطنة الفرنسية للافريقيين منذ الحرب الأولى ، ولكن لم ينتفع بهذا النظام سوى عدد ضئيل نحو ٢٥٠٠ شخص حتى سنة ١٩٣٩ ، وكان يشترط التخلى عن قانون الأحوال الشخصية المحلى ولم يستثن من هذا النظام سوى مدن السنغال الساحلية مثل سان لويس ، ودكار وجوريه ، باعتبار أن كل هذه المدن مستعمرات فرنسية قديمة وأن أهلها قد اندمجوا اندماجا كبيرا فى البيئة الفرنسية فحولت هذه المدن الى مديرية فرنسية ترسل عنها نوابا الى الجمعية الوطنية فى باريس ويستمتع أهلها سواء أكانوا افريقيين أم أوربيين بالحقوق السياسية . فقد دخل أحد الافريقيين المسلمين الجمعية الوطنية فى باريس للمرة الأولى سنة ١٩١٤ نائبا عن احدى دوائر السنغال .

وقد ساد الاتجاه الى سياسة الادماج فى السنوات التى تلت الحرب الثانية فتقرر اشتراك بعض الافريقيين فى الجمعية التأسيسية التى نيط بها وضع دستور الجمهورية الرابعة وقد برز أحد نواب السنغال الذى كان ينتمى الى الحزب الاشتراكى وهو « لامين جيى » فى مناقشات الجمعية التأسيسية الأولى وطالب .

أولا — بقيام نظام فيدرالى بحيث يكون لكل مستعمرة شخصيتها بمجلسها المحلى على أن تبقى السيادة العليا للجمهورية .

ثانيا — بالغاء نظام الاحتكارات الاقتصادية والنص على ذلك فى الدستور ، أما عن طبيعة العلاقات بين أجزاء الاتحاد الفرنسى فلا بد أن يكون الدستور اذاتها مرنا ، بحيث يسمح لكل مستعمرة أن تحدد طبيعة تلك العلاقات . ولكن النص على الغاء الاحتكارات أثار ضجة بين الرأسماليين ويقال أن هذا من الأسباب التى جعلت الأحزاب البورجوازية تصوت ضد الدستور الذى وضعته الجمعية التأسيسية الأولى فى أوائل سنة ١٩٤٦ وقد ترتب عليه اعادة انتخاب جمعية تأسيسية ثانية . وهى الجمعية التى وافق الشعب الفرنسى فى استفتاء عام على دستورها . فصدر فى أكتوبر سنة ١٩٤٦

ربط دستور الجمهورية الرابعة المستعمرات بدولة الأصل « فرنسا » فى أجهزة ثلاثة فخصصت لها مقاعد فى مجلس النواب وأخرى فى مجلس الشيوخ ، ولكن لم يراع فى عدد المقاعد أهمية عدد السكان فى كل مستعمرة . فلم يزد نواب المستعمرات عن أربعين مقعدا من مجموع الـ ٦٠٠ مقعد فى مجلس النواب ، وقد لوحظ أن المستعمرة التى يكثر بها المستوطنون أو الافريقيون المندمجون فى البيئة الفرنسية هى التى خصص لها عدد أكبر من المقاعد . والى جانب مجلسى الشيوخ والنواب أقيم جهاز ثالث لم يكن موجودا من قبل وهو مجلس الاتحاد الفرنسى وذلك ليعبر عن تماسك الامبراطورية ويلاحظ أن كلمة اتحاد حلت محل لفظ امبراطورية بعد الحرب لتناسب تطورات العصر من الناحية الشكلية فقط . وقد ربط هذا المجلس جميع المناطق التى تمارس فيها فرنسا سلطة فعلية دون النظر الى وضعها القانونى سواء أكانت مستعمرة أم محمية أم أرضا موضوعة تحت الوصاية. وبهذه المناسبة نذكر أن فرنسا قد وسعت أمبراطوريتها فى غرب افريقيا اثر الحرب العالمية الأولى بأن وضعت الجزء الأكبر من التوجو والكاميرون تحت انتدابها باسم العصبة ثم استمرت هيئة الأمم المتحدة فى توكيل فرنسا بالوصاية على هاتين المستعمرتين الألمانيتين سابقا .

واذن فرغم كون الوصاية نظام مؤقت فقد تجاوزت فرنسا عن هذه الحقيقة وأدخلت التوجو والكاميرون فى الاتحاد الذى يربطهما بفرنسا بصفة مستدعة وكان مجلس الاتحاد يتألف من ٢٤٠ عضو يمثل نصفهم فرنسا الأوربية (وتسمى

دولة الأصل) ونصفهم من المستعمرات على اختلاف أنواعها . ويرأس مجلس الاتحاد رئيس الجمهورية ومهمة هذا المجلس فى الحقيقة استشارية لأن أهم عمل يقوم به هو تقديم التوصيات والاقتراحات بالقوانين الى الجمعية الوطنية وهى الهيئة الوحيدة التى تملك سلطة التشريع حتى فى المستعمرات . وانما ترك لمجلس الاتحاد تقديم المقترحات أو التوصيات الى برلمان باريس باعتباره أوثق صلة بشئون المستعمرات وبالتالى فهو يستطيع أن يقدم تشريعات ملائمة لظروفها المحلية، وهكذا لم تتغير الصفة المركزية للسياسة الاستعمارية الفرنسية بعد الحرب الثانية. وتحقيقا لسياسة الادماج طبق نظام الاقتراع العام فى المستعمرات وهذا يضمن من حيث الشكل المساواة فى الحقوق السياسية . ولكن هذه المساواة كانت خلوا من أية قيمة فعلية لعدة أسباب منها :

أولا — أن الافريقيين كانوا يمارسون حق الاقتراع العام لانتخاب المجالس المحلية فقط وقد اختلفت أسماء هذه المجالس واختصاصاتها من اقليم الى آخر . ولكنها على كل حال لم ترق الى درجة مجلس تشريعى محلى، انما كان أقصى ما تصل اليه من سلطات هو حق المناقشة للميزانية .

ثانيا — الأخذ بنظام الدوائر الثنائية فللأوروبيين ، والافريقيين الذين حصلوا على حظ من الثقافة واندمجوا فى البيئة الفرنسية دائرة انتخابية تعرف بالدائرة الأولى ، وهى منفصلة عن الدوائر الثانية التى تضم معظم أهل البلاد ، وفى معظم المستعمرات كانت كل دائرة تنتخب نصف أعضاء المجلس .

وهكذا لم يتحقق الادماج الذى سعى اليه كثير من الزعماء الافريقيين ورجوا أن يكافأ مجهودهم فى الحرب باعلان المساواه الحقيقية فى ظل اتحاد فيدرالى تحت سيادة الجمهورية وكذلك لم يحقق نظام الاتحاد الفرنسى تغييرا أساسيا فى نظام الاستعمار . فالمجالس الاقليمية مجرد مجالس استشارية ، وقد روعى فيه ألا يزيد عدد الافريقيين على الأوربيين . ولا يستثنى من ذلك المجلس الفيدرالى الذى أنشىء لكل من افريقيا الغربية والاستوائية وللأقاليم الخمس التى تكون مدغشقر. كذلك كان عدد الافريقيين فى المجلس الأعلى للاتحاد ضئيلا . واشترط الدستور الا يزيد ممثلو فرنسا لما وراء البحار بأية حال على ممثلى فرنسا الأوربية .

ومهما يكن من ضآلة هذه التطورات السياسية التى تلت الحرب فانها قد أتاحت على كل حال للافريقيين أن يشاركوا فى الحياة السياسية ويؤلفوا أحزابا تخوض المعارك الانتخابية سواء للبرلمان الفرنسى أم لتلك المجالس المحلية . وحتى سنة ١٩٤٦ كان النشاط السياسى قاصرا على السنغال ، ولما امتد الى المستعمرات الأخرى لوحظ أن الأحزاب فى افريقيا كانت امتدادا أو فروعا لأحزاب فرنسية فكان لامين جيى مثلا نائب السنغال عضوا فى الحزب الاشتراكى الفرنسى وكذلك أصبح لأحزاب الوسط واليمين فروع فى المستعمرات الا أنه عند ما لاحظ الافريقيون ضآلة اصلاحات سنة ١٩٤٦ لجأوا الى تكوين أحزاب خاصة بهم وتجمع بعض الزعماء لتأليف حزب افريقى شامل على مستوى جميع المستعمرات بعض الزعماء لتأليف حزب افريقى شامل على مستوى جميع المستعمرات الفرنسية الفرنسية سمى R.D.A. وهو اختزال لاسم الحزب

. Rassemblement Democratique Africain

ويلاحظ أن الأحزاب الافريقية عادة تحمل أسماءها بلغة المستعمر فرنسية كانت أو انجليزية وتقوم مبادىء حزب التجمع الديموقراطى الافريقى على الأسس التالية :

١ — تطبيق مبدأ الاقتراع العام على الافريقيين .

٢ — الغاء الدوائر الثنائية .

٣ — تكوين مجالس اقليمية ذات سلطة حقيقية فى التشريع ، ولكن تبقى السلطة التنفيذية فى يد حكومة الجمهورية صاحبة السيادة .. واهتم الحزب بانتقاد النظام الاقتصادى وسيطرة شركات الاحتكار ورأس المال على اقتصاد المستعمرات. ومن هنا ذاع اتهام الحزب بأنه فرع من الحزب الشيوعى الفرنسى الذى اعتنق نفس هذه المبادىء لحل المشكلة الاستعمارية وبهذه المناسبة نذكر أن الحزب الشيوعى الفرنسى الذى كانت له قوة هائلة فى السنوات التى تلت الحرب ، كان من أشد أنصار سياسة الادماج . فهو من الناحية النظرية يدعو الى تساوى العناصر داخل جمهورية تقدمية موحدة . ولذلك كان يعارض بشدة كل حركة قومية فى المستعمرات تهدف الى الانفصال عن فرنسا ، أى أنه ضد النظام الاستعمارى فقط . فاذا كانت فرنسا تطبق المساواه فان بقاء الأقاليم الافريقية

داخلها خير من انفصالها لتنعم معها فى ظل دولة اشتراكية الا أن مبادىء الحزب الشيوعى قد تغيرت بعد أن ضعف مركزه بالتدريج وفقد الأمل فى أن يسيطر على الحكم فى فرنسا ، وعندئذ فقط تحول الى مناصرة الحركات القومية فى المستعمرات تمشيا مع سياسة الاتحاد السوفيتى العامة من تأييد البورجوازيات الوطنية وفى رأيهم أن حكم هذه البورجوازيات يسهل بطريقة أيسر تسلل النفوذ الشيوعى ، مما لو بقيت المستعمرات تحت الحكم الأجنبى .

والواقع أنه نشأت صلات قوية فى بداية الأمر بين التجمع الديموقراطى الافريقى وبين الحزب الشيوعى فى فرنسا ، فقد بدأ كثير من زعماء الحزب مثل «داربوزييه» السكرتير العام حياتهم السياسية كأعضاء فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، ولكن بالتدريج نزع أحد زعمائه البارزين وهو « فيلكس هوفوويه — بوانيه » (رئيس جمهورية ساحل العاج حاليا) نحو الاعتدال مما أدى الى تفكك الحزب بين نزعات يمين ويسار ووسط . ولقد أراد هوفوويه — بوانيه أن يعطى للحزب صفة افريقية جامعة — فزعيم الحزب ينتمى الى مستعمرة ساحل العاج ولكنه رفض العمل على المستوى الاقليمى . وبدأ يؤسس فروعا للحزب فى المستعمرات الفرنسية بغرب افريقيا ووسطها . ثم اتسعت آماله فصرح بأنه يرجو أن يمتد نشاط الحزب من تشاد وحتى رأس الرجاء الصالح ومن دكار حتى زنجبار . معنى ذلك أن « هوفوويه — بوانيه » أراد أن يلحق بحركة الوحدة الافريقية ، فلا يقتصر نشاط الحزب على المستعمرات الفرنسية وحدها . ويلاحظ من هذا التحديد أن «هوفوويه» كان يعتبر افريقيا هى الواقعة جنوب الصحراء الكبرى أما الكتلة العربية فى الشمال فلها فى رأيه أوضاع خاصة وتنتمى من الناحية الثقافية والاجتماعية الى منطقة البحر المتوسط .

وأذا كان التجمع الديموقراطى الافريقى قد ظهر فى أواخر الأربعينات على أنه أقوى منظمة سياسية فى المجموعة الفرنسية ، فان شأنه قد تضاءل بالتدريج وذلك لمواجهة عدة صعوبات منها .

أولا — ظهور النزعات الاقليمية .

ثانيا — تأليف أحزاب على مستوى اقليمى ومن أشهرها حلف الدفاع عن مصالح الفولتا العليا . وهى أحدى مستعمرات افريقيا الغربية . فقد اعتنق هذا

الحزب الفكرة القائلة بأن شعب الموسى الذى ينتشر فى الفولتا العليا من أرقى شعوب أفريقيا الغربية ولذلك يجب أن يكون له كيان سياسى منفصل حتى انه دعا الى احياء دولة الموروناباً ، وكان رد الفعل هو ظهور أحزاب صغيرة باسم الأقليات القبلية فى تلك المنطقة ، مما أوشك أن يحيى النزعة القبلية التى ضعفت فى معظم مستعمرات فرنسا . كذلك ظهرت أحزاب اقليمية قوية فى السودان تدعو الى التمسك بتقاليد الدول الاسلامية القديمة فى المنطقة وهى التى دعت الى احياء ذكرى دولة مالى باعطاء السودان هذا الاسم .

كذلك لم تظهر لحزب التجمع الديموقراطى قوة فى موريتانيا لأنها رغم ضمها الى اتحاد غرب افريقيا فقد ظلت تعيش بعزلة عن الاتحاد وتعانى من مشاكل خاصة بها ، ذلك أن الاستعمار الفرنسى لم يتعمق فى هذه المنطقة الصحراوية فظلت تابعة لادارة عسكرية واعتمد العسكريون على الزعامات التقليدية ، ولا سيما الزعامات الدينية من رجال الطرق الصوفية الذين تعاونوا منذ البداية مع الغزو الفرنسى .

ولم تهتم الادارة الفرنسية بنشر الثقافة أو النظم الاجتماعية الحديثة . وانما اكتفت باستغلال المعادن وهكذا ظلت اللغة العربية أو البربرية منتشرة فى موريتانيا، مما هيأ السبيل لمطالبة المغرب بها ، ولكن طبقة المحافظين مالت الى التعاون مع فرنسا . ومن هنا ظهر الخلاف فى الحركة الوطنية فى موريتانيا منذ سنة ١٩٥٣ فظهر فريق المحافظين الذى يتزعمه مختار ولد دادا رئيس جمهورية موريتانيا حاليا وتمسك هذا الفريق بالبقاء داخل اتحاد افريقية الفرنسية ، وترى هذه الجماعة أن موريتانيا حلقة اتصال بين العالم الافريقى وبين العالم العربى فى الشمال ، أما الفريق الآخر الذى يمثله « حرمة بن بابانا » فيعبر عن وجهة نظر بعض الشباب المثقف ، الذى أدرك أن ربط موريتانيا بالمغرب يسرع بسيرها نحو الاستقلال ، الا أن أنصار الفريق الأول تغلبوا فى جميع الانتخابات المحلية التى أجريت فى موريتانيا حتى ظهورها جمهورية مستقلة والواقع أن مطالب المغرب التى يهتم بها حزب الاستقلال بصفة خاصة لا تقتصر على موريتانيا فى افريقيا الغربية بل تمتد الى الصحراء الأسبانية وتشمل جزءا من مالى والأقاليم الواقعة شمال السنغال .

كانت الزعامات الاقليمية اذن هى العامل الأول فى اضعاف التجمع الديموقراطى أما العامل الثانى فهو نزعه « هوفوويه — بوانيه » الى التساهل مع الفرنسيين ،

وقد تراجع بنفسه عن فكرة أن الحزب يمثل أفريقيا بأسرها وأدرك أن للمستعمرات الفرنسية مميزات خاصة تفصلها بمشاكلها عن المستعمرات البريطانية التى هى أكثر تقدما من الناحية الاقتصادية ، ولكن يرى أن الانجليز يبتعدون اجتماعيا عن الافريقيين ولذلك يصعب على سكان المستعمرات البريطانية الاندماج فى البيئة البريطانية وقال « لا يمكن أن يتصور الانجليز جلوس رجل أسود بين مقاعد مجلس الوزراء فى وست منستر أما الفرنسيون فلا يهتمون بحاجز اللون ، ولعله كان يثنى على الحكومة الفرنسية من زاوية مصلحته الخاصة فقد اختاره جى موليه حينما ألف مجلس وزرائه سنة ١٩٥٦ ليكون وزيرا لشئون فرنسا لما وراء البحار .

وهكذا قام هوفوويه — بوانيه مع الحكومة الاشتراكية فى فرنسا بوضع ما يعرف بالقانون الاطارى للمستعمرات الافريقية ، وقد طبق هذا القانون نظرية الحزب الاشتراكى القائلة بضرورة الغاء الدوائر الثنائية ، وتطبيق نظام الاختراع العام .

وأهم من ذلك احتوى القانون الاطارى على تأسيس برلمانات محلية ولكنها غير كاملة السلطة ، فهى تصدر القوانين المحلية وتناقش ميزانية الاقليم ، ولكنها لا تستطيع أن تحاسب السلطة التنفيذية التى تمثل حكومة الجمهورية ، فحاكم الاقليم الفرنسى هو الذى يختار نائب رئيس الوزراء فى الاقليم ويمكن وصف هذا النظام بأنه اللامركزية الادارية ولكن ليس بالنظام الفدرالى الذى دعا اليه كثير من أعضاء التجمع الديموقراطى مثل ليوبولد سنغور نائب السنغال آنذاك ورئيس جمهوريتها حاليا ، وقد انتقد على هوفوويه — بوانيه شدة ولائه للفرنسيين الى حد أنه هو الذى وضع قانون سنة ١٩٥٧ الخاص باعلان الصحراء الكبرى أرضا وطنية فرنسية وانه اشترك فى الحكومة التى قامت بالعدوان الثلاثى ولذلك انشق عليه جميع الزعماء اليساريين فى التجمع الديموقراطى وأسسوا أحزابا جديدة فأسس سنغور الكتلة الديموقراطية للسنغال وهى حزب على مستوى اقليمى يرى قيام جمهوريات متعددة تتحد اتحادا فدراليا مع فرنسا ، وستنتصر وجهة النظر هذه عند تولى ديجول الحكم . كذلك انشق على التجمع الديموقراطى ممثل الحزب فى غينيا وعلى رأسهم أحمد توري (سيكوتورى) وقد اتصل سيكوتورى بالحركة النقابية فى غينيا وانتزع البلاد من يد الحزب الاشتراكى فى انتخابات سنة ١٩٥٦ .. ولمبادىء سيكوتورى مميزات خاصة تجعل حزبه

حالة فريدة فى مستعمرات غرب افريقية . فليس الحزب اشتراكيا أو تقدميا فقط يؤمن بامكان التعاون مع الأحزاب المماثلة فى فرنسا ، بل انه تقدمى ووطنى فى نفس الوقت ، ولعل السبب فى ذلك هو أن سيكوتورى لم يتعرض لمثل ما تعرض له معظم الزعماء الافريقيين من التشبع بالبيئة الفرنسية ، فليوبولد سنغور شاعر يقرض الشعر بالفرنسية ، وله كتابات فلسفية بتلك اللغة ، هذا فضلا عن أن سيكوتورى ينتمى الى أسرة اسلامية عريقة هى أسرة ساموری من مؤسسى الدول الاسلامية فى غرب افريقيا عند نهاية القرن التاسع عشر ، ولذلك مال سيكوتورى الى احياء التقاليد الافريقية وانشاء دولة قومية لا صلة لها بفرنسا ، وانتقد الأحزاب والمنظمات السياسية الأخرى ، التى تضم أعضاء أوربيين وافريقيين ، لذلك طهر حزبه من الأوربيين ، وعندما أجرى ديجول استفتاء على النظام الجديد للجمهورية فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ كانت غينيا هى الاقليم الوحيد من بين المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا الذى قرر الانفصال بأغلبية ٩٥ ٪ .

ظهور الجمهوريات الحديثة

سار التطور السياسى فى المستعمرات الفرنسية بطيئا منذ نهاية الحرب الثانية حتى سنة ١٩٥٦ ولكن المستعمرات شهدت خلال مدة قصيرة بعد ذلك من سنة ١٩٥٦ : سنة ١٩٦٠ تغييرات دستورية سريعة انتهت بها الى الاستقلال السياسى التام وكانت المرحلة الأولى هى ما ذكرنا من قيام برلمانات محلية لها سلطة تشريعية فى سنة ١٩٥٦ ، وعلى الحاكم العام أن يختار نائب رئيس الوزراء من بين حزب الأغلبية فى تلك البرلمانات ــ أما المرحلة الثانية فتتمثل فى دستور الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٨ ، وقد انتهت هذه المرحلة بسرعة عند ما عدل الدستور وظهرت الجمهوريات الحديثة كاملة السيادة سنة ١٩٦٠ ، وقد تمت هاتان المرحلتان فى عهد رئاسة ديجول للجمهورية ، ويبدو أن ديجول كون أفكاره فى هذه المشكلة الاستعمارية بناء على الفترة التى عاشها خلال الحرب الثانية ، حين لمس بنفسه أكثر من أى شخص آخر قيمة التعاون الافريقى ، وكيف أدى هذا التعاون الى تحرير فرنسا من الاحتلال الألمانى .

ولذلك كان يعتقد بأن الوضع المثالى هو أن تشترك المستعمرات اشتراكا فعالا فى بناء عائلة موحدة هى العائلة الفرنسية ، وتقوم فرنسا بدور المرشد فى

هذه العائلة ، على أن يتم ترابط الأعضاء فيها بكل حرية ويبدو هذا الاتجاه من عدة نصوص فى دستور الجمهورية الخامسة منها ذلك النص الذى يشرك المستعمرات فى انتخاب رئيس الجمهورية .

وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ قدم ديجول للمستعمرات مشروع الدستور الجديد الذى يحدد علاقات هذه المستعمرات بفرنسا ، فاذا وافقت على الدستور تبقى داخل العائلة الفرنسية والا انفصلت عنها . وقبل اجراء الاستفتاء طاف ديجول بالأقاليم الافريقية المختلفة واعدا بتغيير القانون الاطارى لسنة ١٩٥٦ بحيث يصبح للأقاليم سيادة داخلية ولكنه هدد بقطع المعونة الاقتصادية عن الدول التى تختار الانفصال ، وسواء أكان هذا التهديد قد أزعج بعض الساسة الافريقيين أم أن تشبعهم بالثقافة الفرنسية قد أثر على ميولهم السياسية ، فقد لعب هؤلاء الساسة دورا كبيرا فى الدعاية بين الشعوب الافريقية حتى اختارت جميعا باستثناء غينيا البقاء فى العائلة الفرنسية وانضمت لها فعلا خلال شهرى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٥٨ ، رغم أن الدستور كان بعيدا فى روحه عن مبدأ استقلال المستعمرات وسيادتها فهو ينص « على أن يخير الأعضاء بين ثلاث أوضاع ، البقاء على وضعها الراهن ، أو التحول الى أقاليم مندمجة فى فرنسا،أو جمهوريات ذات سيادة داخلية » وهذا الوضع الأخير هو الذى اختارته جميع المستعمرات التى بقيت فى العائلة الفرنسية . وللعائلة الفرنسية حسب الدستور ثلاثة أجهزة ، الرئيس وهو رئيس الجمهوريةالفرنسية ، ومجلس الدستور ثلاثة أجهزة ، الرئيس وهو رئيس الجمهورية من٢٤٨ عضو منهم ١٨٨ عن فرنسا والباقى عن دول الأعضاء . ويراعى عدد السكان وثروة كل جمهورية فى تحديد عدد المقاعد المخصصة لها فى مجلس الشيوخ فساحل العاج الذى يضم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة يمثله ١١ شيخا ، وجمهورية أفريقيا الوسطى ثلاثة ، ويمثل الجمهورية الفرنسية صاحبة السيادة مندوب سامى فى الدول الأعضاء وتختص الجمهورية الفرنسية بالشئون الخارجية والدفاع والنقد والاصلاح المالى والتعليم والمواصلات ... واذن فالنظام الذى يقيمه دستور الجمهورية الخامسة هو الاتحاد الفدرالى .

ولا يلغى نظام ديجول مبدأ التفرقة بين فرنسا وبين الدول الأعضاء فى العائلة الفرنسية فبينما يشترك جميع من لهم حق الانتخاب فى فرنسا فى الاستفتاء على

رئاسة الجمهورية ، يقتصر حق انتخاب الرئيس بالنسبة لدول العائلة الفرنسية على أعضاء المجالس المحلية والبلدية .

ولما اطمأن ديجول الى ميول معظم زعماء المستعمرات الى بقاء الروابط مع فرنسا لم يعارض فى أن يطور نظام الاتحاد الفدرالى بسرعة . ففى ابريل سنة ١٩٦٠ بدأت فرنسا بوضع نظام جديد للدول الأعضاء فى العائلة الفرنسية ، يسمح لها بممارسة السيادة التامة فى الشئون الداخلية والخارجية . وقد طبق هذا المبدأ على مدغشقر أولا فبرزت الى الوجود أول جمهورية مستقلة فى المجموعة الفرنسية باسم جمهورية ملجاسى وبمقتضى النظام الجديد يصبح وضع العائلة الفرنسية أشبه بالكومنولث البريطانى مع فارق هام هو أن الجمهوريات التى استقلت فى اطار المجموعة الفرنسية ترتبط مع فرنسا بنوعين من المعاهدات ، معاهدات دفاعية تتضمن حق فرنسا فى انشاء قواعد عسكرية فى أراضى تلك الدول . وبمعاهدات اقتصادية تنص على أولوية البضائع الفرنسية فى التجارة الخارجية لتلك الدول . وهذا الحق وان كان متبادلا الا أن فرنسا هى التى تستفيد منه فى الغالب .

وبعد ظهور جمهورية ملجاسى فى ابرل سنة ١٩٦٠ توالى قيام الجمهوريات المستقلة الأخرى خلال شهرى يوليو وأغسطس بعد أن ارتبطت مع فرنسا بمعاهدات مشابهة وفيما يلى بيان بأسماء هذه الجمهوريات وسكانها حسب احصاء سنة ١٩٥٩

افريقيا الغربية

اسم البلد	المساحة (بالكيلومتر المربع)	السكان
جمهورية داهومى	١١٥ر٧٦٢	١ر٧١٣ر٠٠٠
جمهورية ساحل العاج	٣٢٢ر٤٦٣	٣ر٢١٤ر١٠٠
جمهورية السنغال	١٩٧ر١٦١	٢ر٢٦٩ر٠٠٠
جمهورية فولتا العليا	٢٧٤ر١٢٢	٣ر٢٢٦ر٠٠٠
جمهورية مالى	١ر٢٠٤ر٠٢١	٣ر٧٠٨ر٠٠٠
جمهورية موريتانيا الاسلامية	١ر٠٨٥ر١٠٠	٤٦٥ر٩٠٠ منهم ٦٢٤ر٠٠٠ مغاربة
جمهورية النيجر	١ر١٨٨ر٧٩٤	٢ر٤١٢ر٠٠٠

افريقيا الاستوائية

اسم البلد	المساحة (بالكيلومتر المربع)	السكان
جمهورية افريقيا الوسطى (أوبنجى شارى)	٦١٧ر٠٠٠	١ر١٥٧ر١٦٦
جمهورية تشاد	١ر٢٨٤ر٠٠٠	٢ر٥٧٦ر٠٠٠
جمهورية جابون	٢٦٤ر٠٠٠	٤٢٠ر٧٠٩
جمهورية الكونغو الوسطى	٢٤٢ر٠٠٠	٧٩٤ر٥٧٧
التوجو والكاميرون		
جمهورية توجولاند	٥٠ر٠٠٠	١ر٠٨٩ر٨٧٧
جمهورية الكاميرون	٤٣٢ر٠٠٠	٣ر٢٢٣ر٠٠٠

ويلاحظ من هذا الجدول ضآلة السكان فى المستعمرات الفرنسية السابقة ولكن هذا لم يمنع من تعدد الوحدات السياسية هذا التعدد الكبير ويمكن مقارنة هذه الجمهوريات بالدول التى نشأت فى غرب افريقيا وكانت فى السابق مستعمرات بريطانية تكاد دولة نيجيريا وحدها أن توازى عدد السكان فى جميع تلك الجمهوريات ان لم تزد .

وبالاضافة الى مدغشقر يصبح عدد الدول الافريقية الأعضاء فى المجموعة الفرنسية ١١ باعتبار أن مالى ما لبثت أن تركت العائلة الفرنسية يوم أن انفك الاتحاد الذى أقامته مع السنغال فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٦٠ . ونتيجة لهذا صفيت القواعد الفرنسية وتم الجلاء عنها فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، ولكن لابد من اضافة التوجو والكاميرون الى مجموعة الدول التى ترتبط بمعاهدات مشابهة مع فرنسا ، ذلك أنه قبل أن تنهى فرنسا فترة وصايتها على هذين البلدين ساعدت الأحزاب الموالية لها على تولى السلطة ، وفى التوجو مثلا أجرى استفتاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ حول مستقبل البلاد فطالب ٧٥٪ من الأصوات بالاستقلال الذاتى داخل المجموعة الفرنسية وقد قبلت لجنة الوصاية التابعة لهيئة الأمم المتحدة التقرير الذى قدمته الادارة الفرنسية عن منح التوجو والكاميرون استقلالهما فى سنة ١٩٦٠ بعد ارتباطهما بمعاهدات مع فرنسا تنص على المساعدة الاقتصادية والعسكرية ، ومع أن الكاميرون كانت اقليما تحت الوصاية فقد لعبت الادارة الفرنسية دورا تعسفيا ضد الحركة الوطنية ، واستطاعت فى النهاية

أن تزيف الانتخابات لصالح أنصارها ولذلك دخلت الكاميرون بعد اعلان استقلالها فى يناير سنة ١٩٦٠ فى المجموعة الفرنسية .

ويلاحظ أن حدود هذه الجمهوريات تنبنى على أساس التقسيمات الادارية فى عهد الاستعمار الفرنسى وهذه التقسيمات لا تلتقى مع التوزيعات القبلية أو اللغوية فى افريقيا الغربية والاستوائية . فثمة مجموعات قبلية ضخمة تنتشر فى أكثر من جمهورية مثل مجموعة الفولانى والبمبارة والتكرور ، كما أن الجمهورية الواحدة قد تحوى عدة قبائل صغيرة تختلف من حيث اللغة والتنظيم الاجتماعى ، وتوجد بغرب افريقيا وحدها نحو ١٥٠ لغة ولهجة مختلفة ، هذا علاوة على تعدد الأديان فهناك الوثنية والمسيحية بمختلف طوائفها ، والاسلام . ويلاحظ أن الاسلام قد انتشر على نطاق واسع فى القرن ١٩ فى غرب افريقيا فلا تكاد تخلو منه جمهورية من هذه الجمهوريات وهو دين الغالبية فى النيجر ومالى والسنغال وموريتانيا وتشاد . وهكذا يلاحظ أن تبعية هذه البلاد لاستعمار واحد كان رابطة هامة فى تطور حياتها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية وأثر هذا على اتجاهاتها السياسية بعد الاستقلال . وقد حاول بعضها تكوين اتحادات قوية فيما بينها علاوة على وجودها داخل المجموعة الفرنسية ، وأهم محاولة من هذا النوع هى انشاء اتحاد مالى من السنغال ودولة مالى ، ولكن هذه التجربة لم تدم أكثر من بضعة شهور اذ قررت جمهورية السنغال الانفصال عن الاتحاد . ولكن هناك اتجاه الى انشاء نوع آخر من الاتحادات أضعف من الاتحاد الفدرالى الذى حاولته مالى ، تحتفظ فيه كل جمهورية بكيانها على أن يجتمع ممثلو حكوماتها دوريا لتنسيق السياسة الاقتصادية ، وقد حاولت أربع من جمهوريات افريقيا الغربية مثل جمهوريات افريقيا الاستوائية انشاء نوع من هذا الاتحاد وهى الفولتا العليا ، داهومى ، ساحل العاج والنيجر .

وقد صيغت دساتير معظم هذه الجمهوريات على نمط دستور الجمهورية الخامسة فى فرنسا أى أنها أخذت مبدأ الجمهورية الرئاسية مع هذا الفارق وهو أن معظم هذه الجمهوريات الافريقية لا تقيم رئيسا للوزراء بجانب رئيس الجمهورية . وكانت هذه الجمهوريات الناشئة تشكل غالبية الأعضاء فى مؤتمر افريقى انعقد فى مونروفيا فى مايو سنة ١٩٦١ ويبدو أن هذا المؤتمر يهدف الى تكوين تكتل فى افريقيا ليقابل تكتل الدول الافريقية التى اشتركت فى مؤتمر

الدار البيضاء ، ويتضح من قرارات مؤتمر مونروفيا أن لهذه الدول رأيا فى الوحدة الافريقية يختلف عن رأى دول الدار البيضاء وهو يقوم على أساس أن تنازل احدى الدول الافريقية عن شيء من سيادتها لدولة أخرى يتعارض مع استقلال افريقيا واستقرارها .

وقد قبلت جميع هذه الجمهوريات أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة باستثناء موريتانيا فقد واجهت مشكلتين : أولاهما معارضة المغرب والدول الافريقية الصديقة لها . والثانية وهى الأهم اعتراض الاتحاد السوفيتى لا من أجل المغرب بقدر ما هو تعبير عن الصراع العالمى بين الكتلتين . فقد علق قبول موريتانيا على قبول دولة شيوعية أخرى فى الأمم المتحدة هى دولة منغوليا .

وأخيرا حلت المشكلة بقبول الدولتين فى دورة سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢

المراجع

1. Annuaire Statistique de la Communauté Française de l'an 1961.
2. Culmann Henri-L'union Française. Paris. 1950.
3. Cornevin Robert-Histoire de L'afrique.
4. Hanotau-Gabriel-Histoire de Colonies Française Paris. 1930.
5. Hardy-George-Histoire de la Colonisation Française Paris 1937.
6. Tomson-Virgania and Adlof Richard. French west Africa-London 1958.

المسجد في فجر الاسلام

للدكتور علي حسني الخربوطلي
مدرس التاريخ الاسلامي

مسجد المدينة أول المساجد في الاسلام :

كان مسجد المدينة هو أول مسجد أنشأه المسلمون في صدر الاسلام . فقد خرج محمد صلى الله عليه وسلم وصديقه أبو بكر مهاجرين من مكة الى يثرب ، فوصلا في نهاية رحلتهما الشاقة الى (قباء) وهو تل على بعد ميلين من مكة ، وكان مصيفا لأهل مكة ، يرسلون اليه مرضاهم اذا كان هواؤه عليلا نقيا ، كما امتاز بالخصوبة فكان يمد مكة بما تحتاجه من فاكهة . وحينما بلغ الصديقان هذا المكان الخصب ، بركت ناقة محمد (القصواء) وأبت الاستمرار في المسير ، ورأى الرسول أن يمكث في قباء حتى يتأهب لدخول المدينة . وأقام المسلمون في هذا المكان مسجدا سموه مسجد (التقوى) تخليدا لهذه الذكرى المجيدة . وتذكر معظم المصادر العربية أن الرسول هو الذي أنشأ المسجد ثم أكمله عمار بن ياسر ، وقد جاء ذكره في الآية ١٩٨ من سورة التوبة .

كانت الأرض التي أقيم عليها مسجد المدينة الجديد ملكا لأخوين يتيمين هما سهل وسهيل ، سألهما الرسول عن ثمن الأرض فأبديا استعدادهما للتبرع بها فقالا : لا نطلب ثمنا لها الا ثوابا من الله . لكن الرسول حدد ثمنها بعشرة دنانير دفعها أبو بكر من ماله [1] . وكانت هذه الأرض تنتشر عليها القبور وأشجار النخيل ، فنقلت الجثث من القبور ، وقطعت أشجار النخيل ، ثم بنى محمد مسجدا بسيطا في مظهره وطريقة بنائه، يتناسب مع الدين اليسر السمح الذي يدعو اليه [2].

(١) الطبري حـ ٢ ص ١٦٣
(٢) انظر كتاب (حياة محمد) لارفنج الذي قمنا بترجمته ، ص ١٢٥

كان هذا المسجد عبارة عن ساحة مكشوفة الى السماء تحيط بها جدران من اللبن ، وقد أمر الرسول فيما بعد أن تمتد السقوف المسطحة من الأبنية المجاورة حتى تحيط كل الساحة المكشوفة اتقاء للشمس . وكان السقف مكونا من جذوع النخل التى اتخذت كدعائم يرتكز عليها الجريد والطمى وبلغت مساحة المسجد حوالى مائة ذراع مربع ، وكان له ثلاث أبواب ، أحدها نحو الجنوب حيث أصبحت القبلة فيما بعد ، والثانى كان يسمى باب جبريل ، والثالث باب الرحمة .

اشترك الرسول بيديه فى بناء هذا المسجد . وعند ارساء الأساس حمل الرسول حجرا ضخما فالتصق الغبار بصدره ، وأراد الصحابة نهيه عن ذلك لكنه أبى ، وأمر أبا بكر أن يضع حجره الى جنب حجر الرسول ، ثم أمر عمر ابن الخطاب أن يضع حجره الى جانب حجر أبى بكر ، ثم وضع أشراف المسلمين أحجارهم ، وتبعهم عامة المسلمين ، وكان الرسول يحمل اللبنات فى ثوبه ، فيحذو المسلمون حذوه [١] .

أصبح هذا المسجد فيما بعد قبرا للرسول وحرما نبويا . ورغم أنه قد أدخل عليه فيما بعد اصلاحات كثيرة فزادت مساحته الا أنه ظل دائما يحمل اسم (المسجد النبوى) ، فقد بناه الرسول بيديه [٢] .

تميز كل شىء فى المسجد فى بداية الأمر بالبساطة التامة . فكان يضاء فى الليل بسعف النخيل ، فلم تكن قد عرفت المصابيح والزيت بعد . وكان الرسول يخطب فى المسلمين وهو واقف على الأرض مستندا بظهره الى جذع نخلة من الجذوع التى استخدمت كأعمدة للمسجد وبعد فترة ، أقام منبرا جعله يرتفع ثلاث درجات عن المسجد ، وكان الرسول يخطب من فوق المنبر جالسا أو واقفا أو مستندا الى عصا .

لا نستطيع أن نجزم اذا كان الرسول قد اتخذ له محرابا لتحديد اتجاه القبلة فى مسجده أم لا . وكان الناس اذا قاموا للصلاة وقفوا صفوفا متوازية مولين وجوههم شطرا الجدار المواجه لبيت المقدس ثم حول الاتجاه فيما بعد الى مكة .

---

(١) الطبرى حـ ٢ ص ١٦٥

(٢) ارفنج : حياة محمد ص ١٢٦

وكان بلال الحبشى يعتلى السقف المسطح ويدعو المسلمين بصوته الندى الى الصلاة . من هذا الوصف يمكن أن نرى مميزات المسجد الجامع فى أبسط صورها، وهى الصحن والسقف لوقاية المصلين والمنبر [١] .

المساجد فى الأمصار الاسلامية فى فجر الاسلام :

فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر بن الخطاب خرجت الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية الى الأقطار المجاورة الخاضعة للدولتين الفارسية والرومانية تفتحها وتنشر فيها الاسلام والحضارة العربية . وكان المسلمون يحرصون على بناء مسجد جامع عند انشائهم المدن فى الأمصار المفتوحة لأنه أبرز صورة يعبرون بها عن سيادة الدين الاسلامى [٢] .

تقدم العرب فى الأراضى الفارسية والرومانية ، وأسقط هذا التقدم فى حوزتهم عددا لا يحصى من المبانى التى شادها صناع أكثر منهم فنا ، فورث العرب الخبرة والمهارة الفنية . وقد كان من نتيجة هذا الاندماج أن تطورت حاجات المجتمع الاسلامى الدينية التى حددها مسجد المدينة واصطبغت بصبغة الأقاليم التى فتحوها ، فنشأ بمرور الزمن فن يطلق عليه اسم الفن الشرقى أو الفن العربى أو الاسلامى . أما مادة البناء فسواء أكانت من الحجر أو الآجر أو اللبن فهذه كانت تخضع للظروف الغالبة فى كل منطقة ، ففى الشام تأثرت العمارة الاسلامية بطراز الشام المسيحى البيزنطى وما سبقه من الأطرزة الوطنية والرومانية . وفى العراق وفارس تأثرت بالطراز النسطورى والساسانى الذى أقامته التقاليد هناك. وفى مصر كان السكان الأقباط من أهل البلاد يقومون بعمل الزخارف البديعة .

كانت ثقافة وفنون الأمصار المفتوحة ذات طابع يونانى وسريانى وقبطى وفارسى ، نستطيع أن نجمل وصفها بقولنا أنها ثقافة هيلنية مسيحية . وقبل أن يلم العرب بالثقافة الهيلينية كانوا قد ألفوا منذ زمن طويل الفن الهيلينى وعمائره . ويستطيع المرء أن يتبين جليا التفاعل والتجاوب بين الاسلام والنصرانية فى ميدان الفن . ذلك أن جيوش الاسلام رأت فى المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٣

(٢) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٣٢٧

أعمال الفن من عمارة ونحت ، وشاهدت بدائع الصناعات كالنسيج والصباغة ، فأيقظ ذلك كله فى نفوس العرب الرغبة فى تقليدها وجلبها لأنفسهم . ذلك أن العرب على النقيض من الشعوب الهمجية ، تجنبوا التخريب ، وحافظوا على تلك الكنوز الفنية ، وأضفوا عليها طابعهم الخاص [١] .

ظهرت عدة مدارس متميزة للفن العربى وهى : (١) السورى المصرى وكان يحتذى فيه المثل اليونانى الرومانى وما سبقه من اطرزة وطنية . (٢) الطراز العراقى الفارسى المأخوذ من الطراز الساسانى والطرازين الكلدانى والآشورى القديمين (٣) طراز الأندلس وافريقيه الشمالية ويتضح فيه الأثر الوطنى المسيحى والقوطى وكان يسمى الطراز المغربى (٤)الطراز الهندى وتبدو فيه معالم الطراز الهندوسى [٢] .

كان أول مسجد جامع أنشأه المسلمون فى الأمصار هو مسجد المدائن بالعراق [٣] ، وقد أنشأه سعد بن أبى وقاص وأصحابه [٤] . فما كاد سعد يدخل المدائن حتى « أمر الناس بايوان كسرى فجعل مسجدا للأعياد ، ونصب فيه منبرا ، فكان يصلى فيه وفيه التماثيل » [٥] . وعندانشاءالبصرةقامعتبةبنغزوان ببناء مسجدها ، وعند تمصير الكوفة قام سعد بن أبى وقاص ببناء مسجد فيها ، ثم بنى سعد مسجد الأنبار [٦] . وكان مسجد الكوفة كمسجد البصرة فضاء مربعا مكشوفا تحيط به أسوار من القصب حولت فيما بعد الى أسوار من الطمى واللبن . وكان المسجدان يشبهان مسجد الرسول فى المدينة .

وفى مصر ، بنى عمرو بن العاص فى الفسطاط أول مسجد فى القارة الافريقية. ويذكر (هل)[٧] أن عمرو استعان بمهندس نصرانى ، فقد كان عمرو مرتبطا بمعاهدة

---

(١) جوزيف هل : الحضارة العربية (ترجمة الدكتور العدوى) ص ٥٩
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٤ (ترجمة مبروك نافع) .
(٣) نخالف بذلك رأى الدكتور حتى الذى يذهب الى أن أول مسجد هو مسجد البصرة .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨
(٥) الطبرى حـ ٤ ص ١٧٧
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨
(٧) الحضارة العربية ص ٥٩

مع المسيحيين ، تقضى بترك كنائسهم وعدم التدخل فى شئون عبادتهم . وكان جامع عمرو مستطيل الشكل ، بسيطا ، ليس محرابا ولا مئذنة ، وقد زوده عمرو فيما بعد بمنبر صنعه وأهداه اليه ملك النوبة المسيحى .

وفى الشام ، وجد العرب فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، التى كان لها تأثير عميق فى نفوسهم جعلهم يتخذونها مقرا لصلاتهم ، وكان بناء معماريا فاخرا ، مشيدا على أطلال معبد وثنى، ولها باب عظيم، فتكون سدته من أعمدة كورنثية تعلوها تيجان ثمينة الزخرفة ، وتغطى قبابها صحن الكنيسة ، على حين تغطى الضفائر المذهبة المتلألئة جزءا من جدرانها الداخلية . وأخذ المسلمون الأجزاء الشرقية لأنفسهم ، وأصبحوا يمرون مع المسيحيين من باب واحد لأداء الصلاة فى القسم الخاص بهم ونقب المسلمون فى بيت المقدس عن المسجد الأقصى (معبد سليمان من قبل) الذى تحدث عنه النبى ليلة أسرى به ، وشيد عمر عند المكان الذى عرج منه الرسول مسجدا [١] .

لما تولى معاوية بن أبى سفيان أراد أن يزيد كنيسة القديس يوحنا فى المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، وحاول عبد الملك بن مروان أن يدفع لهم مبلغا من المال فأبوا أيضا ، وأعاد الوليد بن عبد الملك نفس المحاولة وهدد بهدم الكنيسة ، ونفذ وعيده فهدم الكنيسة وأدخلها فى المسجد . فلما تولى عمر بن عبد العزيز شكى النصارى اليه ما فعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب الى عامله يأمره برد ما زاده فى المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وأخيرا اتفق عمر مع النصارى على أن يترك لهم جميع كنائس الغوطة مقابل عدم مطالبتهم بكنيسة يوحنا [٢] .

كان مسجد المدينة أول مسجد صنع له محراب ، وسرعان ما أصبح المحراب ظاهرة عامة فى كل المساجد ، وكان كالمذبح المسيحى يعتبر مكانه أقدس الأماكن فى البناء ، ومن أجل ذلك كانت المحاريب يبالغ فى زخرفتها كثيرا ، ونستطيع بناء على هذا أن نقرر أنها تعتبر المقياس الذى تقاس به تطور الأطرزة فى فن الزخرفة الاسلامية .

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٥٩

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣١

بعد مصرع على بن أبى طالب ومحاولة الاعتداء على حياة معاوية بن أبى سفيان، أدخل معاوية المقصورة على المسجد ، وهو جزء فى داخل المسجد يحيط به سياج . وكما أدخل الأمويون المقصورة ، أدخلوا المئذنة ، وعلى ذلك فبلاد الشام تعتبر الموطن الأصلى للمئذنة وفيهـا كانت المئذنة تأخذ شكل برج المرقب الوطنى أو برج الكنيسة المربع الذى تلاه . فقد كانت مئذنة المسجد الأموى فى دمشق فى الأصل مرقبا (ناطورا) يتبع كنيسة القديس يوحنا [١] .

ثم زيد الايوان على المساجد ، وهو عبارة عن صحن كبير تقوم فيه الأعمدة الضخمة ، ترد المطر وحرارة الشمس ، كما تقوم فيه فى الوقت نفسه أقنية الماء لوضوء المصلين ، وأصبحت المساجد تضاء بالشموع والقناديل [٢] .

كانت المساجد التى شيدت خلال العصر الأموى أكثر فخامة من المساجد التى شـيدت فى بداية الفتـح العربى ، ويعلل (ديومبين) [٣] ذلك بأن الفاتحين من المؤمنين كانوا شديدى الاعجاب بفخامة الكنائس النصرانية ، فأرادوا أن يظهروا قدرتهم على أن فى امكانهم أن يضارعوا النصرانية ويبنوا مساجد لا تقل جمالا عن كنائسهم .

دور المساجد فى حياة المسلمين العامة :

كانت المساجد فى فجر الاسلام مركزا من مراكز الحياة العامة : مركزا للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية الى جانب وظيفته الدينية . كان المسجد مركزا للناس ، ومقرا للسياسة ، ومعهدا للعلوم المختلفة ، فيه يجتمع الناس ، وفيه ينتقدون حكامهم ، وفيه تذاع قرارات الدولة ، أو تعلن الثورة ، وفيه تدرس العلوم والآداب والفقه ، فقد كان المسجد يختلف تماما عن مساجد اليوم ، ويمكننا أن نشبهه بالبرلمانات فى الوقت الحاضر ، فقد كان يشبه الميدان الرومانى كمركز للحياة السياسية والاجتماعية [٤] .

اتخذ ولاة الخلفاء الراشدين من المساجد أماكن مختارة يصرفون منها شئون الحكم ويحفظون فيها أموال المسلمين [٥] . ولعبت المساجد دورا فى بث روح

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٧
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣
(٣) النظم الاسلامية ص ٢٦٣ .
(٤) أرنولد : الخلافة ص ١٧
(٥) الطبرى حـ ٤ ص ١٩١

الثورة فى نفوس أهالى الأمصار الاسلامية ضد عثمان بن عفان [١] . ثم أصبحت المساجد فى عهد الدولة الأموية هى كل كل شيء بالنسبة لولاة الأمصار ، فقد كان على كل أمير أن يقصد الى مسجد الولاية حين يوليه الخليفة عليها ، وهناك يعلن سياسته الجديدة على الناس من منبرها ، وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدى يصبح أميرا لهذه الولاية ووكيلا للخليفة بصورة رسمية شرعية . وكانت كتب الخليفة وأوامره تقرأ على الناس فى المساجد . وكثيرا ما كان الولاة الأمويون يبعثون مناديهم لينادوا فى الطرقات العامة يدعون أهلها الى صلاة جامعة ولا يكون اليوم يوم جمعة،ومعنى ذلك أن الوالى يريد الصلاة فى المسجد ويريد أن يحضر اجتماعه كل المسلمين حتى يبلغهم أمرا أو يشرح سياسة جديدة ، وكان بعض الولاة يأمرون الشرطة باحضار الناس الى المسجد بالقوة ، وكان منادى زياد بن أبى سفيان ينادى فى طرق الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الوفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد » [٢] . وكان زياد يخرج سريره من قصر الامارة الى مسجد الكوفة حتى يجتمع الناس حوله ، فقد كان يكره اجتماعهم فى بيوتهم [٣] . وكانت المساجد المكان الذى تحشد عندها الجيوش ، وتخرج منا قاصدة وجهتها للقيام بالفتوح والغزوات .

كانت أرض المساجد تغطى عادة بالحصباء . وجرت عادة أهل العراق فى مساجدهم أن يحصبوا ولاتهم اذا لم يعجبهم حديثهم ، وكان المغيرة بن شعبة يسكت عن حصبهم له ، ولكن زياد بن أبى سفيان أراد أن يمنع هذه العادة ، فلما حصبه أهل الكوفة فى المسجد أرغم جميع الحاضرين على القسم على عدم اشتراكه فى الحصب ، وقطع أيدى كل من أبوا القسم [٤] ، وأخيرا رأى زياد أن ينشيء المقصورة فى مسجد الكوفة ليتجنب حصبه [٥] ، وكانت المقصورة عبارة عن سياج حول المحراب [٦] . أما الحجاج بن يوسف فكان يأمر حرسه بالوقوف على أبواب مسجد البصرة حتى اذا حصبه أهلها أعملوا فيهم القتل [٧] .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى حـ ١١ ص ٢٨ (طبعة دى ساسى) .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦
(٤) الطبرى حـ ٦ ص ١٣١
(٥) الطبرى حـ ١ ص ١٣٢
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٨
(٧) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ٢ ص ٣٢

كانت المساجد مركزا للقيام بالشعائر الدينية ، وكانت المصاحف تحفظ بالمساجد ، واهتم الولاة الأمويون بالأذان والخطب فى المساجد . وكان المؤذنون يتوارثون — عادة — الآذان [١] .وكان بشر بن مروان بن الحكم أول من أحدث الأذان فى العيدين ، وأول من جعل الخطبة خطبتين وقعد فى الأولى منهما [٢] . وكانت الامامة فى الصلوات الخمس فى المساجد الحكومية لمن ينتدبه الوالى أو الخليفة ورزقه من بيت المال ، أما مساجد العامة فالامام يختار برضا المصلين ، أما الامامة فى صلاة الجمعة فهى للوالى أو نائبه [٣] . وكان المحتسب يمنع اطالة الصلاة ، لأن الضعفاء يعجزون عن ذلك ، كما أن هذه الاطالة تعطل أصحاب الأعمال ، وكان الرسول ينهى عن ذلك دائما [٤] . كما كان المحتسب يعاقب كل من ترك صلاة الجمعة [٥] .

اتخذ المسلمون المساجد مركزا من مركز الحياة الاقتصادية ، فكانت مكانا يحتفظ به الخلفاء والولاة لحفظ الخزانة العامة ، وكان الصيارفة يجلسون على أبواب المسجد حيث يقومون بعمليات مبادلة العملة النقدية أو اقراض المحتاجين ، كما كان كثير من التجار يحرصون على عقد صفقاتهم التجارية فى المساجد ، وكثيرا ما أقيمت الأسواق على مقربة من المساجد .

لعبت المساجد دورا كبيرا فى النهضة العلمية والأدبية فى صدر الاسلام ، وخاصة مساجد البصرة والكوفة ، فقد صارت هاتان المدينتان مركزين نشطين للحياة العلمية، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى مدينة تستطيع منافستهما، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، وفيهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين [٦] . ولذا يعتبر (نيكلسون) [٧] البصرة مركز الحياة العقلية فى الاسلام . ولعل من الأسباب التى أدت الى ازدهار الحياة العلمية والأدبية فى العراق فى العهد الأموى أن أهل العراق رأوا أن ينصرفوا عن السياسة حتى لا يتعرضوا لاضطهاد ولاتهم الأمويين ، فوجهوا اهتمامهم الى الاشتغال بالعلوم والآداب ، كما أن

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٦
(٢) ابن رسته : الأعلاق النفسية ص ١٩٩
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٣٠
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣
(٥) المرجع السابق ص ٢٤٣
(٦) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٤٠
(٧) Lit. Hist. of the Arabs, P. 220

الموالى أرادوا أن يصلوا الى مرتبة العرب ، فأقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى اذا أجادوها بدأوا ينهلون من مناهل الأدب والعلم [١] .

شهدت المساجد الكثير من مظاهر هـذه النهضة العلمية والأدبية ، وكان لكراهية بعض المسلمين للغناء والموسيقى والفنون أثره فى نشاط المجالس الأدبية فى المساجد [٢] . وكانت المساجد بمثابة مدارس يقصدها طلاب العلم ، فقد كان كل عالم يتخذ سارية من سوارى المسجد يجلس تحتها ، ويلتف طلابه وتلاميذه حوله . وهناك كانت الصبية تتلقى دروس القرآن ثم العلوم العربية كالتفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب . وكان المحتسب يراقب المعلمين حتى لا يقصرون فى عملهم [٣] . وكثيرا ماشهدت المساجد المجالس الأدبية التى كان يعقدها العلماء ، وتدور فيها محاورات أدبية حول التفضيل بين الأمصار والمدن [٤] . كما شهدت المساجد كثيرا من المحاورات والمناقشات التى تدور حول العصبية القبلية وتفضيل قبيلة على أخرى وخاصة بين تميم وقيس .

كان القصاص يتخذون من المساجد مكانا مختارا لقص قصصهم . فيجلس القاص بالمسجد ويلتف حوله الناس ، فيروى لهم القصص والتواريخ التى تمتزج فيها العبرة بالتسلية . وكان هناك نوعان من القصص : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، « فأما قصص العـامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية ،ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشتركين كافة [٥] » .

كان على بن أبى طالب يأمر بطرد القصاص من المساجد ، أما معاوية فقد اعتمد على القصص فى تأييد ملكه ودولته . وأشهر من قام بالقص فى العراق الحسن البصرى ، وكان يعتمد على التذكير بالآخرة ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من أحداث ، وكان يجلس فى آخر مسجد البصرة وحوله الناس يسألونه

---

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٣٢٩
(٢) الأصفهانى : الأغانى حـ ٢ ص ١١٩
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٢
(٤) الأصفهانى : الأغانى حـ ٥ ص ١٤٩
(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٥٣

فى الفقه وفى حوادث الفتن التى عاصرها فيحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم [١] . ومن أبرز القصاص صالح بن مسرح ، أحد زعماء الخوارج ، وكانت كل قصصه تدور حول الأمر بالتقوى، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، وكان يكثر من ذكر الموت [٢] .

وكانت المساجد أيضا مسرحا لانشاد الشعر ، فكان الشعراء على اختلاف أديانهم وأوطانهم ، ينشدون قصائدهم من فوق منابرها فكان الأخطل الشاعر النصرانى يدخل مساجد الشام والعراق فيقف المسلمون له اجلالا [٣] . وشهدت المساجد الكثير من المفاخرات القبلية والحزبية ، والمفاخرات والنقائض بين الشعراء ، وخاصة بين جرير والفرزدق ، وكثير والأحوص ، والكميت والطرماح [٤] . وكان الكميت نزارى شيعى يتعصب لمضر (العدنانية) ، بينما كان الطرماح شامى قحطانى يتعصب للقحطانية (اليمنية) ، فتعصب الكميت لأهل الكوفة بينما تعصب الطرماح لأهل الشام [٥] .

استفاد المسلمون من المساجد فى بعض الأغراض الاجتماعية المختلفة ، فيها يتلاقى الناس فيتحادثون ويتسامرون ويتآلفون ، ويقيمون فيها بعض احتفالاتهم فى الأعياد والمواسم الدينية والاجتماعية ، ويعقدون بها عقود الزواج . وكانت (الخاطبات) يجلسن فى المساجد لممارسة مهنتهن ، فيحدثنا ابن عبد ربه [٦] عن امرأة كانت تداوم الجلوس فى مسجد البصرة ، وكانت تمتهن التوفيق بين الرجال والنساء بالزواج ، وكان الرجال يحتشدون حولها فى المسجد وكل يذكر لها الشروط التى يرى وجوب توفرها فى زوجة المستقبل . وكان زياد بن أبى سفيان ونائبه سمرة بن جندب يجلسان فى مسجدى البصرة والكوفة لحل المشاكل الزوجية وازالة الخلاف بين الأزواج والزوجات .

---

(١) احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٩٢
(٢) الطبرى حـ ٧ ص ٢١٧
(٣) الاصفهانى : الأغانى حـ ٧ ص ١٧١
(٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ٦٨ و جـ ١٠ ص ١٤٩
(٥) الاصفهانى : حـ ١٥ ص ١٠٩
(٦) العقد الفريد حـ ٦ ص ١٠٧

لا نأخذ على المساجد فى فجر الاسلام الا أنها كانت مظهرا من مظاهر العصبية القبلية ، فقد كانت كل قبيلة تقيم مسجدا ليصلى فيه أبناء القبيلة ، أما المساجد الجامعة فكانت مقسمة الى أقسام قبلية ، فتختص كل قبيلة بجزء من المسجد ، فلا تلتقى بغيرها من القبائل . ففى الكوفة — مثلا — كان مسجدها أول بناء خطه سعد بن أبى وقاص، وحرص سعد أن يمثل هذا المسجد الروح القبلية أصدق تمثيل ، فجعل لكل قبيلة مكانا بهذا المسجد[1] . وكان هذا التقسيم القبلى للمسجد يناقض الحكمة التى قصدها الله من الصلاة ، وهى أن يتساوى جميع المسلمين بين يدى خالقهم . وقسمت المدن الاسلامية الجديدة فى الأمصار الى أقسام قبلية فكان لكل قسم قبلى مسجد خاص بهذه القبيلة ، ولا شك أن هذا التقسيم أدى الى استمرار الفوارق القبلية واذكاء نيران العصبية بين القبائل .

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٤

أهم مصـــادر البحث

أحمد أمين : فجر الاسلام ، (مطبعة الاعتماد ١٩٢٨ م) .

الأصفهانى : الأغانى ، (مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ) .

بارتولد : (ف .) تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر (مطبعة المعارف ١٩٤٢)

البلاذرى : فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م) .

حتى : الدكتور فيليب ، تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ، القاهرة .

ابن خلدون : المقدمة ، (المطبعة البهية المصرية) .

الدينورى : الأخبار الطوال ، (ليدن ١٨٨٨) .

ديومبين : النظم الاسلامية ، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢) .

ابن رسته : الأعلاق النفيسه (ليدن ١٨٩١) .

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسنية بالقاهرة) .

ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٨) .

على حسنى الخربوطلى : الدكتور ، تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩) حياة محمد (تأليف واشنجتون ارفنج) ، (دار المعارف ١٩٦٠) .

ابن قتيبة : الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ١٩٠٦) .

نيكلسون : رينولد ، (Alit. Hist. of the Arabs (London 1923

هل : (ى) الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور ابراهيم العدوى (من سلسلة الف كتاب) .

UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS

ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

No. 3 - JULY 1961

AIN SHAMS UNIV. PRESS
1962

CONTENTS

Page

Diurnal and Seasonal Fluctuations in Osmotic Pressure of Plant Sap,
by Shafey Aly 1

Studies on the Effects of some Dicarboxylic Acids on the Uptake and Utilization of Inorganic Nitrogen,
by M. A. Nosseir 11

The Relation of Optical from to the Utilization of Amino Acids,
by M. A. Nosseir 19

DIURNAL AND SEASONAL FLUCTUATIONS in Osmotic Pressure of Plant Sap

BY

SHAFEY ALY, M., Ph.D.

Assistant Professor in Botany, University College for Girls, Ain-Shams University

Diurnal and seasonal fluctuations in osmotic pressure of plants have been recorded by various authors in different parts of the world. Such fluctuations usually associate fluctuations in the intensity of the atmospheric factors concerned in evaporation. They also sometimes associate fluctuations in the moisture content of the soil. In this country, records of such fluctuations of osmotic pressure are scanty. It was thought, therefore, of increasing these records by adding some new measurements at different times of the year and at different hours of the day.

There is difference in opinion as to whether the fluctuations in osmotic pressure are caused by such fluctuations in atmospheric or edaphic factors, i.e., whether the habitat factors and the osmotic pressure are related together as cause and effect.

MATERIAL

In experiments on the diurnal march of osmotic pressure two mesophytes, namely, *Ricinus communis* and *Vicia Faba* were used. In experiments on the seasonal march xerophytes, collected from the desert near Cairo, were experimented with. The xerophytes used were *Fagonia arabica, Zilla spinosa, Citrullus colocynthis, Haloxylon salicornicum* and *Zygophyllum simplex*. Xerophytes are of special interest since Egypt is a desert country, the natural vegetation of which is mainly represented by xerophytes.

METHOD

The osmotic pressure of the plant sap was measured by the cryoscopic method. The latter has since long been widely used by various authors, such as Dixon & Atkins (1913), Walter (1931), Harris (1934) and several others. It has been usually preferred by various authors since it is more

adaptable to field conditions and because it yields average values of whole plants and plant organs. The method involves the determination of the freezing point of expressed sap, the osmotic pressure being directly proportional to the freezing point lowering. Reasons for the preference of this method over the plasmolytic and other methods are given by Crafts, Currier & Stocking (1949). According to these authors, the cryoscopic method is the most practical one for measuring the osmotic pressure of bulk tissue.

The apparatus used in the present work is similar to that described by Mathews (1921) and used by Stoddart (1935), Migahid (1948) and Migahid & Shafey (1953 & 1954). The formula used in calculating the osmotic pressure is :

$$P = 12.06\ \Delta - 0.021\ \Delta^2.$$

Where P is the osmotic pressure and Δ is the freezing point depression.

RESULTS

The mean osmotic pressures of leaf sap for *Vicia Faba* and *Ricinus communis* at different hours of the day are expressed in Fig. 1.

It is evident from Fig. 1. that the osmotic pressure of the sap of *Vicia* and *Ricinus* leaves was highest at 2 p.m. but decreased rapidly to a minimum that was attained during the night, increasing again in the following day. The daytime values were higher than the night values. Variations were most rapid at the beginning and end of the daytime period, but were slight during the night and in the middle of the day. Thus there was a rapid fall in the afternoon, between 2 and 6 p.m. and a somewhat rapid rise in the morning, between 6 and 10 a.m. But between 6 p.m. and 6 a.m. the variation was very small. From 10 a.m. to 2 p.m. there was some increase in the osmotic pressure, but which was also relatively small.

In Fig. 2 are expressed the values of atmospheric factors concerned in evaporation, namely, air temperature, relative humidity and evaporation rate at 3-hr. intervals, from 1 p.m. to 1 p.m. the next day. This was the same day as that on which osmotic pressures of the leaf sap of *Vicia* and Ricinus were recorded. Relative humidity was measured by means of a wet-and-dry bulb hygrometer while evaporation was measured in millimetres per hour by means of a piche evaporimeter.

The march of temperature and evaporation curves shows a general parallelism to the march of osmotic pressure curve. There was a rapid

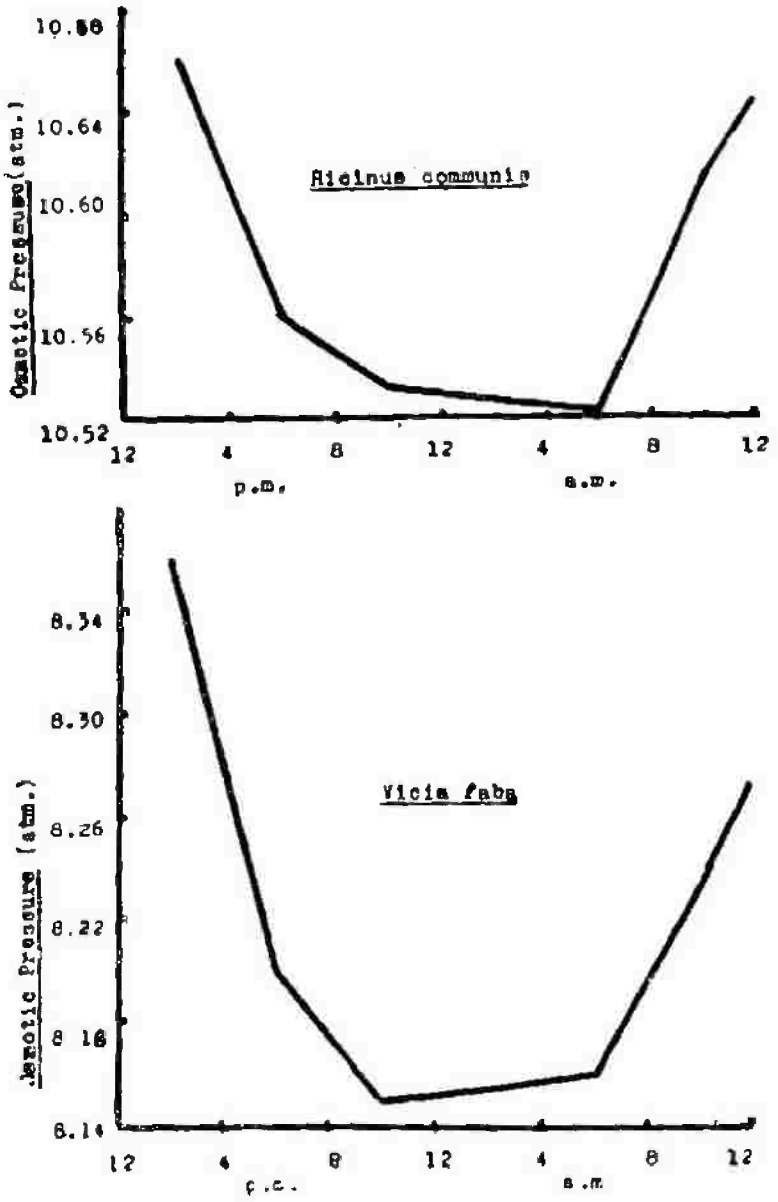

Fig. 1

Diurnal Fluctuations in Osmotic Pressures of *Vicia Faba* and *Ricinus communis*.

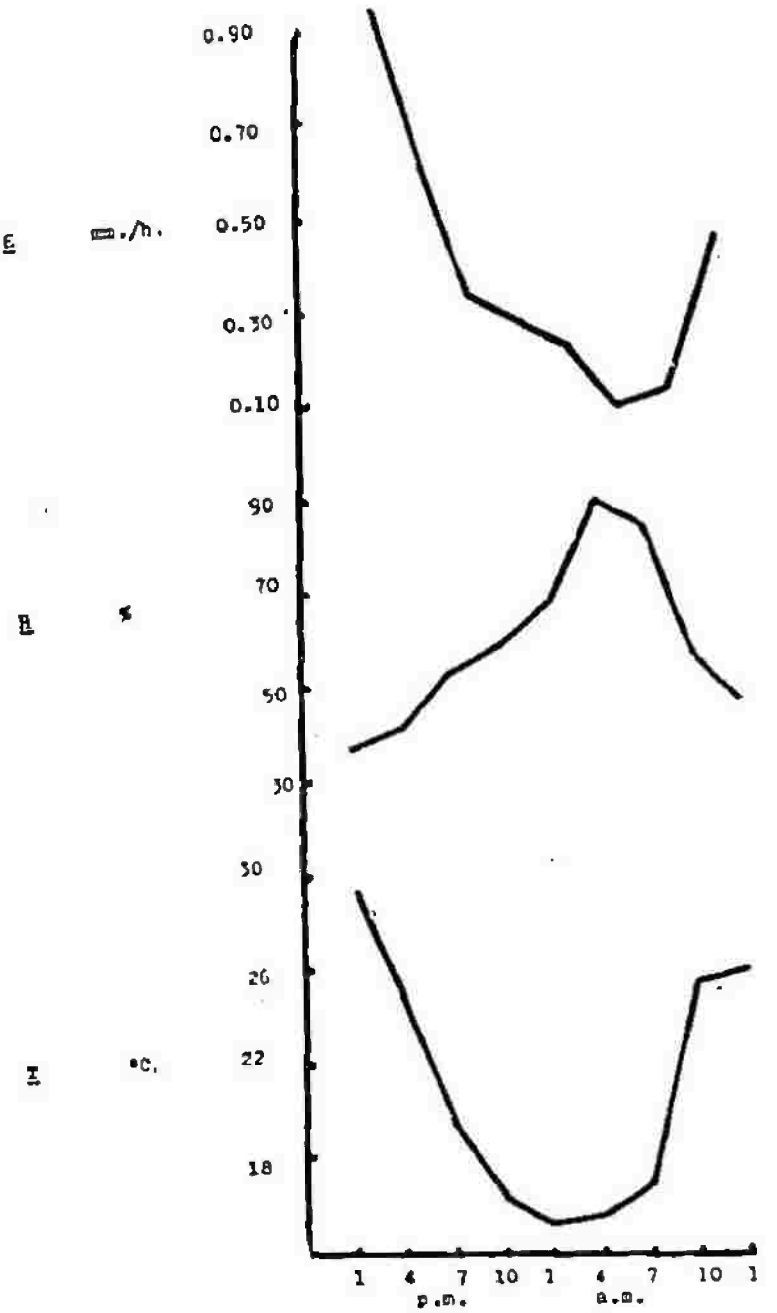

Fig. 2

Diurnal Fluctuations in Atmospheric Conditions

T : Air temperature, *H* : Relative humidity & *E* : Evaporation.

fall in the afternoon of the first day, a rapid rise in the morning of the second day and smoothness during the night. Correlation was even more close with temperature than with evaporation. As might be expected the correlation with relative humidity is a negative one. The dawn hours correspond to the maximum relative humidity and to the minimum osmotic pressure as well as the minimum temperature and evaporation.

In Fig. 3 are given the osmotic pressures of some xerophytic plants growing wild in the desert near Cairo at different times of the year. Samples were taken from mature plants.

It is noticed that for *Fagonia arabica* and *Haloxylon salicornicum* the osmotic pressure was measured in February and August, and that the summer value was in both of them much higher than in winter. *Zilla spinosa*, one of the commonest perennials, had an osmotic pressure as low as 16.01 atmospheres in January. The osmotic pressure increased to 17.63 by March, and further to 18.56 in August. It then decreased to 15.35 by December. The osmotic pressure of *Citrullus colocynthis*, one of the evergreen perennials of the Egyptian desert, which flourishes particularly during the summer, was measured in winter, summer and autumn. The summer value of the osmotic pressure was considerably higher than either the winter or the autumn values. *Zygophyllum simplex* is one of the ephemerals of the desert, starting to appear in January, after the winter rains, and terminating its life cycle by the onset of the summer to-wards the end of May. The osmotic pressure of this species was measured in January and April, and the spring value was found to be considerably higher than the winter one.

In Fig. 4 are given the mean values of air temperature, relative humidity and evaporation rate for the successive months of the year in which the osmotic pressure data were recorded - as recorded at the Meteorological Station of the Cairo International Aerodrome.

Temperature and evaporation show the highest values in summer and the lowest values in winter. In spring they are rapidly rising and in autumn rapidly falling. The relative humidity curve is nearly a mirror image of the temperature and evaporation curves. The seasonal fluctuations in the osmotic pressure of the experimental plants would seem to be a response to the fluctuations in the evaporating factors of the atmosphere.

DISCUSSION

In a previous paper (Migahid & Shafey 1955) it was clearly shown that variations of soil moisture content and soil salinity produce considerable variations in the osmotic pressure of plant sap. The higher the soil water

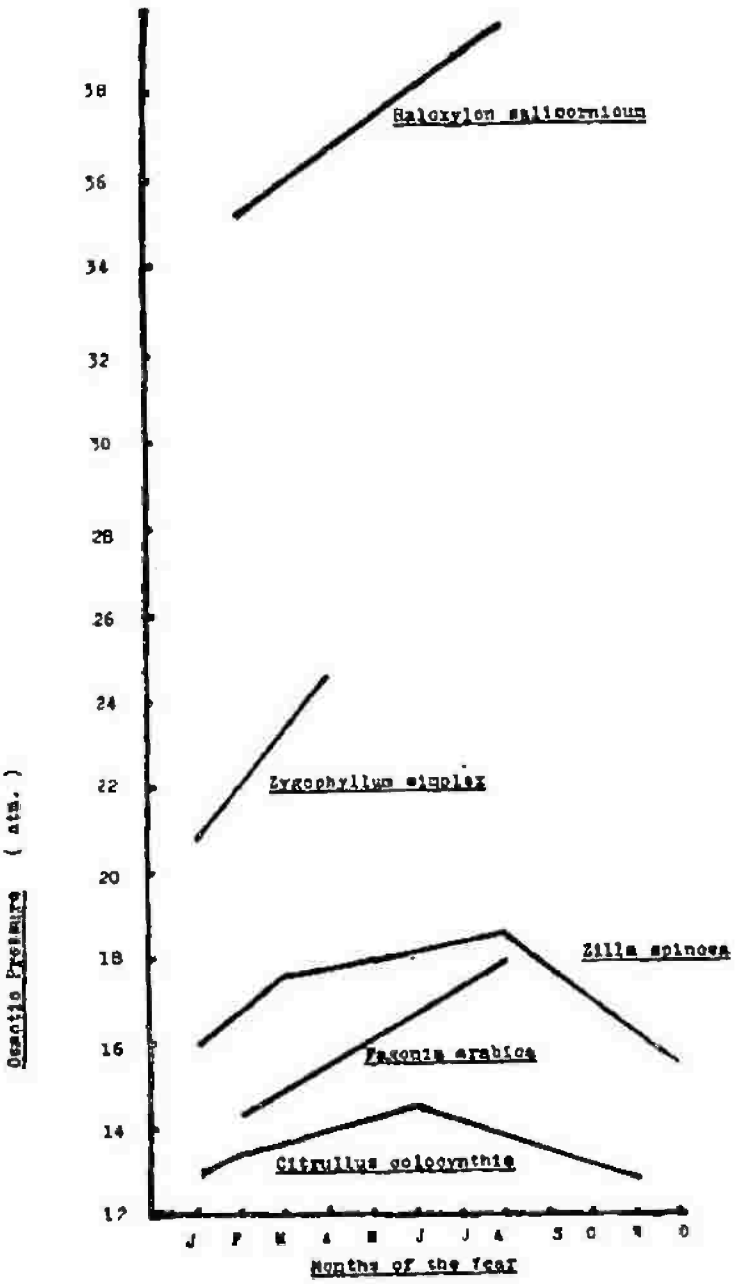

Fig. 3.

Osmotic Pressure of Some Xerophytes at Different Months of the Year.

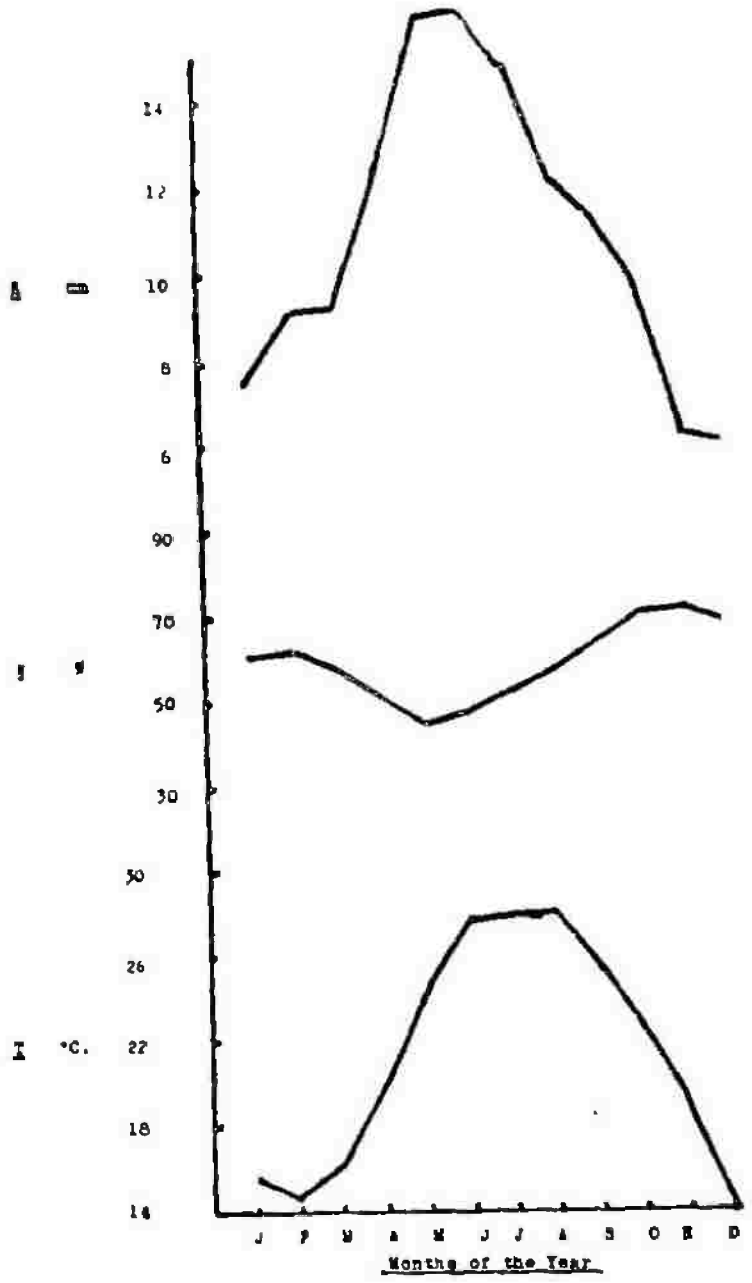

Fig. 4.

Monthly Fluctuations in Climatic Factors

E : Evaporation, *H* : Relative humidity & *T* : Air temperature.

content and the lower its salt content, the lower the osmotic pressure of the leaf sap and vice versa. It was also observed (Migahid & Shafey 1954) that the osmotic pressure of the plant sap varies greately in plants of different ecological groups, being higher in xerophytes than in mesophytes and in halophytes than in either xerophytes or mesophytes. Xerophytes are plants of dry habitats subjected to both atmospheric and edaphic drought. Halophytes are plants of saline habitats, subjected either to physiological drought alone or to both physiological and atmospheric droughts, Mesophytes are plants of optimum moisture content of soil and air.

As a matter of fact it is not only the soil environment that affects the osmotic pressure of the plant sap, but the atmospheric environment as well must have a great effect. The plant acts as a balancing factor between the soil moisture surrounding the roots and the air surrounding the tops. If the soil supplies moisture as fast as the air removes it then the osmotic pressure must be low. If the air removes more water, as it is the case under conditions of atmospheric drought (e.g. in xerophytes as compared with mesophytes, in summer as compared with winter, and in mid-day hours as compared with night hours) and the osmotically active substances remain constant, the osmotic pressure rises proportionately. The plant may be considered as a product of its environment and the osmotic pressure as an expression of the effect of that environment. The results of the present investigation confirm this conclusion.

Many authors have arrived at similar conclusions. Of these may be mentioned Eaton (1929), Enomoto (1930) who fonnd that sap concentration varies directly with the temperature and inversely with the atmospheric humidity. Korstian (1924) also noted the lowest concentration in *Pinus ponderosa* in the winter season, but this be referred to the formation of emulsions of fats and oils with a low concentration in winter. In spring there is more sugar present to be used in growth and thus there is an increase in pressure.

In contradiction to the above findings Gilbert & Adams (1929) concluded that envirnmental conditions have little effect upon the concentration of expressed plant solution, and that moisture in the soil has no direct relationship to pressure in leaves. Gail & Cone (1929) found in the leaves of *Pinus ponderosa* a minimum pressure in July and a maximum in December. They think that rapid growth in April, May and June causes lower osmotic pressure. The use of carbohydrates and other substances for growth of the new leaves and stems results in a decrease in the osmotic pressure.

The present writer is of the opinion that increase in osmotic pressure during the warmer and drier hours of the day as well as during the drier

and warmer months of the year, and its decrease in the cooler and more humid hours and months must be regarded as the general rule among plants. Deviations from this rule must be regarded as exceptions and are often referable to special metabolic characters. During the warmer part of the day transpiration exeeds absorptiou and the water balance of the plant is disturbed. Such disturbance results in decrease of the tissue water content and increased concentration of the plant sap. By night, transpiration decreases and the water balance and turgidity of the plant are restored. Consequently the sap is diluted and the osmotic pressure deminishes. In the drier and warmer months of the year, apart from the atmospheric drought, edaphic drought also prevails. Thus in addition to increased transpiration, absorption is somewhat retarded. This enhances the disturbance of the water balance and the decrease of tissue water, leading to increased concentration and higher osmotic pressure of the sap.

Finally the writer wishes to thank prof. A. M. Migahid for kind help and for reading the manuscript.

SUMMARY

1. The osmotic pressure of the leaf sap was measured and compared at different hours of the day for the two mesophytes *Vicia Faba* and *Ricinus communis* and was found to be higher by day than during the night. The daily march of atmospheric factors concerned in evaporation, such as temperature, relative humidity and evaporation rate were recorded. Considerable parallelism was observed between the march of osmotic pressure and that of either evaporation or temperature. The march of the relative humidity curve was a mirror image of that of other evaporation factors.

2. The seasonal fluctuations in osmotic pressure of a number of typical desert plants was also investigated. It was observed that the osmotic pressure is not constant throughout the year, but tends to be higher in summer than in winter and in the warmer and drier months than in the cooler and more humid ones.

3. The writer is of the opinion that the fluctuations observed are due to changes in the balance between absorption and transpiration, leading to fluctuations in the tissue water content and in the concentration of the sap. Such fluctuations are likely to be of general occurence in plants, and any deviation must be referred to special metaholic characters. Further data are, however, needed before such generalisation can be made.

BIBLIOGRAPHY

Crafts, Currier & Stocking, 1949; Water in the physiology of plants. Chronica Botanica, U. S. A.

Gail, F.W. & Cone, W.H., 1929; Osmotic pressure and pH measurements on cell sap of *Pinus ponderosa*. Bot. Gaz. 88.

Migahid, A. M., 1938; Binding of water in relation to drought resistance. Bull. Fac. Sci. Fouad I Univ. 18.

Migahid, A. M. 1945; Binding of water in xerophytes and its relation to osmotic pressure. Bull. Fac. Sci. Fouad I Univ. 25.

Migahid, A. M. & Shafey Aly, M., 1953; Osmotic pressure of plants of different ecological groups. Bull. de L'Inst. du Desert, D'Egypte Cairo, Tome III, No. 2.

Migahid, A. M. & Shafey Aly, M., 1955; Osmotic pressure of plant sap as related to salinity and water content of the soil. Bull. de L'Inst. du Desert D'Egypte, Tome V, No. 1.

Stoddart, L. A., 1935; Osmotic pressure and water content of Prairie plants. Plant Physiol., 10.

STUDIES ON THE EFFECTS OF SOME DICARBOXYLIC ACIDS ON THE UPTAKE AND UTILIZATION OF INORGANIC NITROGEN

II - Effects of some Dicarboxylic Acids on the Uptake and Utilization of Ammonium and Nitrate Nitrogen by Sweet Potato Tuber Disks

BY

M. A. NOSSEIR

University College for Girls, Ain Shams University

INTRODUCTION

It has been recently shown by El-Shishiny and Nosseir (unpublished work) that certain dicarboxylic acids figured in the krebs cycle, when supplied together with ammonium salts to carrot root disks, exert a marked influence upon the course of the metabolic reactions of the tissues. In control samples cultured in ammonium salt solutions, a considerable part of the ammonia absorbed is recovered as amide—N, mainly glutamine. However, if oxalacetate, fumarate, malate, succinate, or α—ketoglutarate is acquired from the culture solution, the formation of glutamine was greatly stimulated. Reasons have been advanced by Chibnall (1), and Vickery & Pucher (14) for the assumption that the specific precursors of asparagine and glutamine are respectively oxalacetic and α—ketoglutaric acids which arise as intermediary products in carbohydrate metabolism. Carrot root disks obviously contain enzyme systems that provide for rapid and extensive metabolic transformation of the organic acids present or introduced into the cells.

A further series of experiments is described in the present paper. These were carried out in order to extend the observations to include aspartic acid. and nitrate—N. Disks of sweet potato tubers were employed, and tests were accordingly made to see whether the effect of added acids was similar to that observed earlier. Potato tuber is selected because of its availability in the garden of the department and also because it represents a species with a moderately intense glutamine metabolism, El-Shishiny (2).

MATERIAL AND METHODS

The technique of the disk culture experiments was the same as in the earlier work described by El-Shishiny (2), and El-Shishiny & Nosseir (3). A stock of disks sufficient for each experiment was prepared from sweet potato tubers variety « Balady » grown in the botanic garden of the Faculty. About twenty grams of disks taken at random (40 disks) were used for each treatment. The samples after being washed for 48 hours in aerated distilled water, El-Shishiny (2), were transferred into 350 ml. culture solution kept at 25° C. (± 0.1° C.) in a constant-temperature water bath. A current of CO_2 — free air was passed through each culture solution at a constant rate of 4 liters per hour to serve for aeration and for the determination of CO_2 output. After a culturing period of 24 hours, the disks were drained, washed several times with distilled water, and analysed for the final distribution of the various nitrogenous fractions. The medium, together with the washings were made to a convenient volume and analysed for organic and inorganic nitrogenous fractions. The analytical methods for the determination of the various nitrogenous fractions were those long in use in this laboratory and described by El-Shishiny (2), and El-Shishiny & Nosseir (3).

Two experiments were carried out following the same technique. The results were fully consistent with those summarized in tables I A and I B. In each experiment, twelve samples after being washed for 48 hours were transferred into culture vessels ach containing 350 ml. of strilized distilled water or culture solution according to the following scheme : samples 1 & 2 distilled water; 3, ammonium chloride; 4, potassium nitrate; 5, NH_4Cl + fumarate; 6, KNO_3 + fumarate; 7, NH_4Cl + malate; 8, KNO_3 + malate; 9, NH_4Cl + succinate; 10, KNO_3 + succinate; 11, NH_4Cl + asparate; 12, KNO_3 + asparate. The concentration of ammonium chloride and potassium nitrate was 0.005 M, while that of organic acid salts was 0.0025 M.

Chemicals used : Aspartic acid of highest purity was purchased from L. Light & Co. Ltd. The other chemicals were purchased from the B.D.H. The organic acids were neutralized with KOH to pH 7 before they were supplied to the tissues.

RESULTS AND DISCUSSION

Effects of dicarboxylic acids figured in the krebs cycle and of aspartic acid upon the uptake and utilization of ammonium and nitrate-N :

The data depicted in table I B show the uptake and utilization of ammonium - and nitrate - N, in mg. nitrogen, by 100 g. of sweet potato tuber

disks cultured in 0.005 M ammonium chloride and in 0.005 M potassium nitrate alone and with asparate, fumarate, malate or succinate. The results reported in this table show that 68.03 mg. ammonium — N and 74.69 mg. nitrate — N were removed in 24 hours from the single salt solutions of 0.005 M ammonium chloride and potassium nitrate respectively. When ammonium chloride and potassium nitrate were the only sources of nitrogen, the rate of ammonium assimilation exceeded very much the rate of nitrate assimilation since 98.7 per cent of the absorbed ammonium — N and only 61.6 per cent of the absorbed nitrate — N were changed into organic nitrogen. Thus the ammonium nitrogen was very rapidly metabolised and did not accumulate in the cells. On the other hand, nitrate — N utilization is slower and nitrate accumulates and reaches high levels in the cells of sweet potato disks.

Culturing sweet potato tuber disks on ammonium chloride with fumarate, malate or succinate brought about increases in the rates of ammonium — N uptake and assimilation. There results only 7.0%, 9.7%, and 7.4% increase in ammonium — N uptake and the rate of ammonium assimilation was similarly increased by 6.5%, 9.6%, and 6.6% respectively over the control in ammonium chloride. This might be due to the large amounts of ammonia — N removed from the culture solution of ammonium chloride alone. The increase in the rate of ammonium assimilation and the disturbance of the metabolic activity when organic acids were present in the external medium indicate that these acids were acquired from the external media by the cells and there underwent metabolic transformations. Pucher & Vickery (10) showed that all of the individual members of the krebs tricarboxylic acid cycle that were tested entered the cells of tobacco leaves during the culture in their potassium salt solutions and exerted a marked influence on the course of metabolic reactions of the tissues.

On the other hand, asparate expressed a depressing effect on the uptake and on the assimilation of ammonium — N by sweet potato tuber disks. When asparate is given in the culture solution with ammonium chloride, the uptake of ammonium — N was decreased by 38.9% and the ammonium — N assimilation was also decreased by 44.9% as compared by uptake and assimilation of the control disks cultured in ammonium chloride alone.

Similarly, asparate and fumarate exerted depressing effects on the uptake of nitrate — N from potassium nitrate culture media by 39.4% and 10.4% respectively, while malate and succinate were without remarkable effects. Nitrate — N assimilation was also depressed since decreases of 33.2%, 23.0%, 6.7 , and 9.1 % were shown consequent to addition of asparate, fumarate, malate, and succinate respectively to KNO_3 in the external media. The differential effect of the different acids on ammonium and

nitrate — N uptake by sweet potato tuber disks might be due to their specific effects on the permeability as well as on the metabolism of the tissues.

Effects of ammonium and nitrate salts with some possible asparagine precursors of the krebs cycle on the distribution of the various nitrogenous fractions :

The changes in the distribution of the various nitrogenous fractions in the disks of sweet potato roots treated with ammonium chloride or potassium nitrate with asparate, fumarate, malate, or succinate were depicted in table I A. The first three columns show the composition of the samples cultured in water, NH_4Cl, or KNO_3 to serve as controls to assist in judgements of the relative magnitude of the changes that occurred as a result of the presence of the organic acids used. The subsequent columns show the changes in composition brought about by the different treatments. The units being mg. N computed for a sample that weighed 100 g. at the start.

Table I A shows that amides are formed and accumulated in tissues cultured in ammonium chloride in response to the increase of the level of ammonium — N in the cells. The presence of fumarate, malate, and succinate stimulated ammonium assimilation and increased the level of amides and amino acids in the tissues. The increase in the amides is mainly due to glutamine. Even, when the equilibrium of amino acids was one sidedly disturbed by feeding sweet potato root tissues with aspartate and ammonia, glutamine considerably increases as also shown for carrot root tissues by El-Shishiny and Nosseir (4). The primary formation of glutamine even when aspartic acid is supplied to the tissues proves that there must be, in the plant cells, either a very active deaminase system or the amino group of aspartic acid must first be transferred to α-ketoglutaric acid and the formed glutamic acid is then amidated. Rautanen (11) showed that glutamic acid and glutamine appreciably increase during the uptake of aspartic acid by pea seedlings. He suggested the central importance of α-ketoglutaric acid as a primary acceptor of ammonia. Evidence of a primary synthesis of glutamine is supported by the investigations with N^{15} on barley roots by Yemm Willis (17). Moreover, El-Shishiny (2) has shown that the amide metabolism in sweet potato roots is mainly glutamine metabolism.

It has been recently shown by El-Shishiny & Nosseir (unpublished work) that oxalacetate, fumarate, malate, or succinate, when acquired together with ammonium — N by carrot root disks from the culture solutions, stimulated greatly glutamine formation. The difference in response of various species to impressed conditions that provide the increased concentration of ammonia in plant cells have been interpreted by Vickery & Pucher (14) in terms of relative availability of the non-nitrogenous precursors required

TABLE 1 (A)

Effect of culturing disks of sweet potato tubers for 24 hours in 0.005 M solutions of ammonium chloride and potassium nitrate with and without 0.0025 M dicarboxylic acids. (M gm. N per 100 g. fresh weight of tissue)

Nitrogenous fractions	Controls in			Changes in the nitrogenous fractions as compared with controls in KNO_3 or NH_4Cl							
				KNO_3 +				NH_4Cl +			
	Water	KNO_3	NH_4Cl	Aspartate	Fumarate	Malate	Succinate	Aspartate	Fumarate	Malate	Succinate
Ammonium - N	0.98	1.13	1.88	+ 0.56	+ 0.08	+ 0.62	− 0.48	+ 3.65	+ 0.38	+ 0.15	+ 0.60
Nitrate - N	—	28.65	—	−14.03	+ 2.83	+ 4.58	+ 5.70	—	—	—	—
Glutamine - N	4.82	4.52	12.38	+ 2.30	+ 0.74	+ 2.92	+ 1.93	+ 7.54	+ 5.46	+ 7.00	+ 2.46
Asparagine - N	2.18	2.24	8.84	0.00	− 0.22	− 0.04	+ 0.80	+ 0.46	+ 1.38	+ 1.08	+ 0.16
Total - N of amides	7.00	6.76	21.22	+ 2.30	+ 0.52	+ 2.88	+ 2.78	+ 8.00	+ 6.84	+ 8.08	+ 2.62
Amino acid - N	31.72	47.49	28.38	+11.73	+10.47	+ 3.66	+ 6.07	+30.55	+16.29	+ 5.44	+ 8.10
Rest - N	29.26	51.22	66.12	−14.67	−15.43	− 4.65	− 3.02	−26.78	−10.52	+ 0.24	− 0.16
Protein - N	81.96	88.57	99.79	+ 5.05	− 2.40	− 2.68	− 1.68	− 1.80	− 5.28	− 5.33	− 4.35

TABLE 1 (B)

Effect of some dicarboxylic acids on the uptake and assimilation of ammonium and nitrate nitrogen

Absorbed-ammonium-N	—	—	68.03	—	—	—	—	41.55	72.77	74.60	73.05
Absorbed nitrate-N	—	74.69	—	45.31	66.95	76.20	76.19	—	—	—	—
Absorbed amino-N	—	—	—	18.15	—	—	—	36.84	—	—	—
Assimilated ammonium-N	—	—	67.14	—	—	—	—	37.01	71.50	68.56	71.56
Assimilated nitrate-N	—	46.04	—	30.74	35.47	52.97	41.84	—	—	—	—
Assimilated amino-N	—	—	—	− 9.33	—	—	—	9.63	—	—	—

for the synthesis of the respective amides which arise in the transformation of organic acids during respiration. The results obtained for sweet potato roots in the present investigation as those recently obtained for carrot roots afford no conclusive evidence in favour of this postulate.

The maintenance of positive amino acid, amide and protein balance consequent to feeding sweet potato tuber disks with ammonium — N together with fumarate, malate, or succinate suggest the effective absorption and utilizaion of these compounds in anabolic reactions leading to glutamine accumulation. It seems therefore, that if such a cycle as that derived by Chibnall (1) from krebs and Johnson's cycle (7) could be operative in sweet potato tuber disks, then under conditions such that ammonia is accumulating, α - ketogulutaric acid might be withdrawn from the respiratory cycle for the synthesis of glutamine, while a small fraction of exalacetic acid produced via interconversions of the acids used (Green, 5) or produced as a result of metabolic changes in the tissues, might be withdrawn for the synthesis of asparagine. It seems in this case that the mechanism is such that little oxalacetic acid becomes available at any time to react with ammonia even when the level of succinic, fumaric or malic acid is artificially increased. These acids seem to undergo conversion in the process of respiration which apparently made α - ketoglutaric acid available to react with ammonia directly or undergo transamination with aspartic acid metabolically formed to give glutamine as suggested by Leonard & Burris (8). The amination and amidation of α - ketoglutaric acid to give glutamine have been reported by Vickery et al (15 & 16), Chibnall (1), Sideris & coworkers (12), Mac Vicar & Burris (9), Yemm & Willis (17), and Kretovich & Yakovleva (6).

On the other hand, feeding sweet potato tuber disks with KNO_3 alone or in combination with asparate, fumarate, malate, or succinate results in a considerable increase in the amino acid — N fraction and negligible changes in the amides. But the rate of synthesis of amino acids in presence of the organic acid salt was much higher than that of the control tissues supplied with KNO_3 alone while that of glutamine and asparagine was almost unchanged. This result together with the fact that nitrate assimilation did not lead to any significant increase in ammonia — N level in the tissues might indicate that nitrate was not reduced in the cells into ammonia or that the rate of ammonium transformation into organic—N other than amide—N is as fast as its production from the nitrate.

The energy required for the formation of amides and amino acids might have been derived partly through the oxidation of the original substrate in the cells and partly through the oxidation of the supplied organic acids,

since respiration of sweet potato tuber disks increased with NH_4Cl or KNO_3 and showed further increase with organic acids supplied to the external medium. Speck (13) suggested that the oxidation of succinate, malate, and oxalacetate supplied to pigeon liver dispersion supply the energy required for the utilization of ammonia and for amino acid and glutamine synthesis.

SUMMARY

The effect of asparate, fumarate, malate, and succinate on the nptake and utilization of ammonium-and nitrate — N by sweet potato tuber disks was studied.

The rate of nitrate utilization was lower than absorption, leading to accumulation of nitrate — N in the cells. Ammonium — N, on the other hand, was utilized as soon as it entered the cells and there was a very small increase in its level inside the tissues.

Fumarate, malate, and succinate stimulated the nptake and utilization of ammonium — N and there was no accumulation of this fraction in the cells. This is prohably due to the rapid synthesis of amino acid - and glutamine — N.

KNO_3 lone or supplied in combination with aspartate, fumarate, malate or succinate caused a considerable increase in the amino acid — N content and negligible changes in the amide — N. The rate of synthesis of amino acids in presence of the organic acid salt was higher than that of the control tisues cultured in KNO_3 alone while that of amides was almost unchanged. No significant increase in ammonia — N level in KNO_3 — treated tissues was observed.

BIBLIOGRAPHY

1. Chibnall, A. C. Protein metaholism in the plant. Yale University Press, New Haven, 1939.
2. El-Shishiny, E. D. H. Absorption and assimilation of inorganic nitrogen from different sources by storage root tissues. J. Exp. Bot. 6 : 6 - 16, 1955.
3. El-Shishiny, E. D. H. & Nosseir, M. A. The relation of optical form to the ntilization of amino acids. I. Utilization of stereoisomeric forms of glutamic acid by carrot root disks. Plant Physiol. 32 : 360 - 364, 1957.
4. ... ... The relation of optical form to the utilization of amino acids. II. Utilization of stereoisomeric varieties of aspartic acid and aspargine by carrot root disks. Plant Physiol. 32 : 639 - 643, 1957.

5. Green, D. E. The malic dehydrogenase of animal tissues. Biochem. J. 30 : 2095 - 2110, 1936.

6. Kretovich, V. L. & Yakovlevia, V. I. Biosynthesis of glutamic acid and glutamine in pea and wheat seedlings. Plant Physiol. U. S. S. R., 6 : 174 - 178, 1959.

7. Krebs, H. A., & Johnson, W. A. The role of citric acid in intermediate metabolism in animal tissues. Enzymologia, 4 : 148 - 156, 1937.

8. Leonard, M. J. K. & Burris, R. H. A survey of transaminases in plants. J. Biol. Chem., 170 : 701 - 709, 1947.

9. Mac Vicar, R. & Burris, R. H. Studies on nitrogen metabolism in tomato with use of isotopically labelled ammonium sulphate. J. Biol. Chem., 176 : 511 - 516, 1948.

10. Pucher, G. W. & Vickery, H. B. The metabolism of organic acids of tobacco leaves I. Effect of culture of excised leaves in solutions of organic acid salts. J. Biol. Chem., 178 : 557 - 575, 1949.

11. Rautanen, N. On the synthesis of the first amino acids in green plants. Annales Acad. Sci. Fennicae, Ser. A, II, No. 33, 1948.

12. Sideris, C. P., Young, H. Y. & Chun, H. H. Q. Effect of nitrogen on the nitrogenous fractions of Ananas comosus (L.) Merr. Plant Physiol., 22 : 127 - 148, 1947.

13. Speck, J. F. The synthesis of glutamine in pigeon liver dispersions. J. Biol. Chem., 179 : 1387 - 1403, 1949.

14. Vickery, H. B. & Pucher, G. W. The metabolism of amides in green plants. III. The mechanism of amide synthesis. J. Biol. Chem., 128 : 703 - 713, 1939.

15. Vickery, H. B., Pucher, G. W., Leavenworth, C. S. & Wakeman, A. J. The metabolism of amides in green plants. II. The amides of rhubarb leaf. J. Biol. Chem., 125 : 527 - 538, 1938.

16. ... ..., Wakeman, A. J. & Leavenworth, C. S. Chemical investigations of the rhubarb plant. Bull. Conn. Agric. Exp. Sta., No. 424, 1939.

17. Yemm, E. W. & Willis, A. J. Respiration of barley plants. IX. The metabolism of roots during the assimilation of nitrogen. New. Phytol., 55 : 229 - 252, 1956.

THE RELATION OF OPTICAL FROM TO THE UTILIZATION OF AMINO ACIDS

III · Utilization of Stereoisomeric forms of Alanine by Carrot Root Disks

BY

M. A. NOSSEIR

University College for Girls, Ain Shams University

INTRODUCTION

It was generally believed that the D-amino acids do not occur naturally and that the synthetic compounds of the D-series, if introduced into living matter, were metabolically inert. But now there is on longer reason to doubt the ability of plants to absorb and utilize various isomers of amino acids. The numerous studies, that have been made, of the use of amino acids as nitrogen sources for growing plants, embryos, plant tissues, and the limited nuuber of investigations of the utilization of stereoisomeric varieties of amino asids by higher plants were referred to in the first and second paper of this series by El-Shishiny and Nosseir (5 and 6). In these papers, it was also found that the L-forms of aspartic and glutamic acids are absorbed much faster than the D-forms, either given alone or with ammonium sulphate to carrot disks. The L-forms of hoth acids were well utilized and also stimulated the utilization of ammonium nitrogen, but the D-enantiomorphs accumulated in the cells.

In recent investigations, a number of features between plant species in the utilization of enantiomorphs as in the utilization of different amino acids have been discussed. Thus Nitsch and Nitsch (16) found that not onlyD-alanine, D-aspartie or glutamic acid cannot serve as sole sources of nitrogen for Helianthus tuberosus tissues, whereas the L-forms can, but also inhibitory effects on the growth was shown by the acid when supplied simultaneously with nitrate.

Again a number of features of the process of uptake of several amino acids by carrot tissues have been described by Birt and Hird (2). Tbus it has been sbown that the D-and L-isomers of many amino acids are taken up against a concentration gradient and that such uptake is inhibited hy certain metabolic inhibitors. Moreover, the D-forms of alanine, pyenyl-alanine,

leucine, isoleucine, valine, methionine and histidine were fully recoverable from the tissues after uptake. With the exception of glutamic and aspartic acid, alanine, phenyl-alanine, there was little metabolic destruction of the amino acids used.

Miettinen (15) reported that DL-glycine, serine, valine, leucine were assimilated by pea plants in the same way as DL-alanine and effectively utilized for the synthesis of protein. However, the D-enantiomorph of alanine was proved to be toxic for the pea plant whereas the L-form was beneficial.

The study of the metabolism of stereoisomers of amino acids in living organisms has increased our knowledge about the range and nature of oxidative and synthetic reactions available to the body. Moreover, biological differences between these two groups of stereoisomerides illustrate the marked specificity which specializes reactions of living matter. The aim of the present study is to investigate the ability of carrot root disks to absorb and utilize stereoisomeric forms of alanine, namely L- and D-forms.

MATERIAL, METHODS, AND EXPERIMENTS

The disks for this investigation were prepared from carrot roots variety « Chantenay ». The general procedure of preparation and pretreatment of the disks as well as the determination of the nitrogenous fractions are as previously described by El-Shishiny (4) and El-Shishiny & Nosseir (5 and 6). Twenty grams of disks (about 40 disks), taken at random from a stock of disks prepared for each experiment, were used for each sample. The samples were washed for four days in regenerated aerated distilled water. The samples were then washed with sterilized distilled water and transferred into the sterile culture solutions, kept at 25°C. ($\pm$ 0.1), where they were aerated for 24 hours by passing a current of CO_2-free air through each culture chamber at a constant rate of 4 liters per hour. The air currents, after leaving the culture chambers, were passed through standard solutions of sodium hydroxide to determine the rate of CO_2 produced by the differently treated tissues. After 24 hours, the tissues were drained, washed with distilled water, and analysed for the final distribution of the various nitrogenous fractions. The medium, together with the washing, were made up to a convenient volume and analysed for inorganic and organic nitrogen fractions. The initial distribution of various nitrogenous fractions in the tissues were obtained by analysing two samples representing the batch of disks after the 4 days washing period.

Nitrogen fractions :

Protein — N = insoluble — N + nitrogen fraction precipitated by 2.5 per cent trichloroacetic acid.

Non — protein — N = total soluble — N minus nitrogen fraction precipitated by 2.5 per cent trichloroacetic acid.

Amino acid — N = total amino — N minus amino — N equivalent to total amide — N.

Rest — N = non — protein — N minus (inorganic — N + total amino — N + total amide — N).

Complex — N = protein — N + rest — N.

Glutamine — N = glutamine amide — N × 2.

Asparagine — N = asparagine amide — N × 2.

Experiment I. was designed to study the uptake and utilization of L- and D-alanine when supplied alone or in combination with ammonium chloride to carrot root disks. Therefore duplicate samples after being washed for 4 days in distilled water, were transferred into culture vessels each containing 350 ml. of the following culture solutions : Distilled water; ammonium chloride; L — alanine; L — alanine + ammonium chloride; D — alanine; D — alanine + ammontum chloride. The concentration of alanine and NH_4Cl in the solutions was 0.005 M. Experiment II was designed to investigate the effect of various concentrations of L — alanine, when supplied alone or in combination with NH_4Cl, on the nitrogen metabolism of carrot root disks. For this purpose, duplicate samples were cultured in the following solutions : Distilled water; ammonium chloride; 0.0025 M L — alanine; 0.005 M L — alanine; 0.01 M L — alanine; NH_4Cl + 0.0025 M L — alanine; NH_4Cl + 0.005 M L — alanine; NH_4Cl + 0.01 M L — alanine. The concentration of NH_4Cl in the solutions was always 0.005 M.

The chemicals used in this investigation were of analytical grade produced by Merck & Co. Inc.

RESULTS AND DISCUSSION

Uptake and Utilization of L — and D — alanine :

It appears from the results depicted in table (1) that carrot root disks were able to absorb both stereoisomeric forms of alanine from their respective solutions. The absolute amount of amino — N absorbed from L — alanine was, in all experiments, greater than that absorbed from D — alanine under similar conditions. The presence of ammonium chloride in the external medium was without any significant effect on the uptake of both isomers of

TABLE 1

Amino acid and ammonium nitrogen absorbed and utilized by carrot root discs during 24 hours from different culture solutions. Mg. nitrogen (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight of tissue. The amounts utilized are also given as percentages of the total amounts available in the tissues, ie. initially present plus absorbed

Culture media	Absorbed		Available		Found		Utilized			
	NH_4-N	NH_2-acid-N	NH_4-N	NH_2-acid-N	HN_4-N	NH_2-acid-N	NH_4-N		NH_2-acid-N	
							mg.	%	mg.	%
Distilled water	0.00	0.00	0.00	12.94	0.00	5.49	0.00	—	7.45	57.57
0.005 M NH_4Cl	53.69	0.00	53.69	12.94	14.70	10.88	38.99	72.61	2.06	15.92
0.005 M L-alanine	0.00	52.91	0.00	65.85	0.71	27.96	−0.71	—	37.89	57.54
0.005 M NH_4Cl + 0.005 M L-alanine	39.12	53.66	39.12	66.60	81.68	31.89	17.44	44.58	34.71	52.11
0.005 M D-alanine	0.00	44.93	0.00	57.87	0.72	49.04	−0.72	—	8.83	15.26
0.005 M NH_4Cl + 0.005 M D-alanine	28.53	43.61	28.33	56.55	20.55	47.77	7.78	27.46	8.78	15.52

alanine. Differences in the rates of absorption of the isomers from the media may be the result of differences in their rates of penetration into the cell. It might be suggested that there is an active process operating. This process may involve association with a carrier at the surface and movement of the complex, followed by dissociation, in the internal vacuole of the cells. L — and D — alanine seem to be taken up by the same mechanism as suggested by Birt & Hird (3). But the affinity of L — alanine for the carrier system appears to be greater than that of the D — isomer. Since the cell membranes consist of optically active material, differences in the penetrability of stereoisomers according to this suggestion might be possible.

Table (2) indicates that there was no material change in the amount of amino — N removed by carrot root disks when L — alanine concentration, either supplied alone or in combination with ammonium chloride, was doubled or increased 4 — fold. The suggested carrier system involved in the uptake, in this case, might have been saturated at low concentration.

The uptake of alanine was accompained by an increase i1 the respiration rate of carrot root disks. This result might indicate the dependence of uptake on respiratory energy. Similar observations were arrived at by Webster (20) and Birt & Hird (2) for the uptake of stereoisomers of alanine and other amino acids.

Carrot root disks showed a marked ability to utilize L — alanine since the deficit in amino acid — N is equivalent to 71.6% of the absorbed L — alanine, which corresponds to 57.54% of the initially present plus the absorbed amino acid — N from L — alanine media. Addition of equimolecular concentration of ammonium chloride to 0.005 M L — alanine in the external medium was of no significant effect on the rate of amino acid — N utilization. No remarkable changes in the rates of amino acid — N utilization were also obtained either by decreasing L — alanine concentration to 0.0025 M or by increasing it to 0.01 M, whether supplied alone or simultaneously with NH_4Cl, in the external media, table (2). The utilized amino acid — N seems to be at the expense of the absorbed L — alanine since the amounts of amino acid — N absorbed were more or less equivalent and this might account for the equivalent levels in amino acid — N in tissues cultured in L — alanine solutions, (tables 3 and 4). The utilization of alanine by other plant tissues was also reported by several investigators (8, 9, 10, 14, 15, 16, 17 & 18).

On the contrary, the results obtained from the present investigation suggested, however, that D — alanine, absorbed by carrot root disks, might have behaved as inert metabolite, since the increase of amino acid — N level in the tisues was almost equal to the absolute amount absorbed, compare

TABLE 2

Amino acid and ammonium nitrogen absorbed and utilized by carrot root discs during 24 hours from different culture solutions. Mg. nitrogen (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight of tisues. The amounts utilized are also given as percentages of the total amount available in the tissues, ie. initially present plus absorbed.

Culture media	Absorbed		Available		Found		Utilized			
	NH_4-N	NH_2-acid-N	NH_4-N	NH_2-acid N	NH_4-H	NH_2-acid-M	NH_4 N		NH_2-acid-N	
							mg.	%	mg.	%
Distilled water	0.00	0.00	0.37	11.56	0.37	7.08	0.00	—	4.38	38.76
0.005 M NH_4Cl	43.83	0.00	44.20	11.56	9.04	9.55	35.16	79.54	2.01	17.39
0.00_5 M L-alanine	0.00	52.36	0.37	64.42	0.38	17.53	−0.01	—	46.89	72.80
0.005 M L-alanine	0.00	55.34	0.37	67.40	0.38	18.68	−0.01	—	48.72	72.28
0.01 M L-alanine	0.00	54.50	0.37	66.06	0·76	18.28	−0.39	—	48.78	72.33
0.0025 M L-alanine + 0.005 M NH_4Cl	23.70	53.89	24.07	65.45	16.48	17.74	7.59	31.54	47.71	72.90
0.005 M L-alanine + 0.005 M NH_4Cl	23.80	55.25	24.17	66.81	16.14	19.69	8.03	33.23	47.12	70.52
0.01 M L-alanine + 0.005 M NA_4Cl	20.76	56.40	21.13	67.96	16.14	19.79	4.99	23.61	48.17	70.36

44.93 mg. absorbed from D — alanine with 43.55 mg. increase, and 43.61 mg. absorbed from D — alanine plus NH_4Cl with 42.28 mg. increase, tables (1 & 3). This can, also, be demonstrated by comparing the amounts utilized, calculated as percentages of the available amino acid — N, with the amounts of the corresponding control tissues cultured in distilled water or in ammonium chloride, table (1). From this comparison, it could be, also, concluded that the small amounts of amino acid — N that had disappeared from tissues cultured in D — alanine solutions might be at the expense of the L — from originally present in the cells.

The above results seem to be substantial to the findings of Birt & Hird (2) who showed that the D — form of alanine and other amino acids were fully recoverable from carrot root slices after uptake. In this respect, carrot root disks seem to behave like Lupinus albus seedlings (14), Helianthus tuberosus tissues (16) and pea plants (15). It can be stated that the accumulation of the absorbed D — alanine by carrot root disks, in the present investigation, might indicate that the prevailing enzyme system is specific to the L — form.

Effect of L — and D — alanine on the Uptake and Utilization of Ammonium — N :

Carrot root disks cultured in 0.005 M NH_4Cl alone, tables (1 & 2) absorbed from 40 — 53 per cent of the supplied ammonium — N. The rate of ammonium — N uptake was depressed when equimolecular concentration of L — or D — alanine was present simultansously with ammonium chloride, but the depression caused by D — alanine was much greater than that caused by the L — enantiomorph, table (1). When the concentration of L — alanine in the culture solution was decreased to 0.0025 M or increased to 0.01 M., the rate of ammonium — N uptake was also depressed but to a greater extent with 0.01 M concentration.

It was also noted that when ammonium chloride and alanine were supplied together, they were absorbed simultaneously, but amino acid — N in much higher preference to ammonium — N. Results obtained by other investigators showed that such preference in the absorption of ammonium and amino acid — N varies greatly for various amino acids and also for various plants (5, 9 & 18).

Tables (1 & 2), again, show that amounts equivalent to about 72 and 80 per cent of the ammonium — N absorbed by carrot tissues cultured in 0.005 M single salt solution of ammonium chloride were transformed into organic — N. L — alanine depressed ammonium — N assimilation and this depression was greatly pronounced by 0.01 M concentration, table (2). When L — alanine was replaced by D — alanine of the same concentration,

the inhibiting effect of the D — isomer was greater than that of the L — isomer. The inhibiting effect of L — or D — alanine was greater on the assimilation than on the absorption of ammonium — N. Consequently, the ammonium — N levels in tissues cultured in solutions containing L — or D — alanine were always higher than the level of ammonium — N in tissues cultured in ammonium chloride alone.

Effect of L — and D — alanine on the Distribution of the Various Nitrogenous Fractions :

The increase in the levels of amide — N and complex — N in carrot tissues cultured in solutions containing L — alanine alone or with NH_4Cl, over those of control tissues in distilled water and ammonium chloride respectively, tables (3 and 4), suggested the utilization of L — alanine in the formation of these fractions. Thus in absence of ammonia, it seems probable that one part of L — alanine absorbed was deaminated (1 and 2) and that a part of the ammonia produced was involved in amidation of glutamic acid (11, 12 & 19) originally present, or given by amination of α — ketoglutaric acid (7) using another part of the liberated ammonia, or given by transamination of second part of L — alanine with α — ketoglutaric acid (13). The α — ketoglutaric acid might be initially found in the tissues or metabolically formed through respiratory cycle. Similarly, the slight increase in asparagine — N in tissues cultured in L — alanine solutions alone, table (4), might be at the expense of a third part of alanine which has undergone deamination and the subsequent amidation of aspartic acid originally present, or produced by amination of its non-nitrogenous presursor (7), or by transamination of a fourth part of alanine with oxalacetic acid initially found or metabolically produced. The existence of enzyme system responsible for the coupling of ammonia and aspartic acid was shown by Webster & Varner (22) in lupine and wheat germ tissues. The pyruvic acid produced through deamination or transamination of alanine might have furnished a substrate for respiration or might be involved in other metabolic reactions.

The results of the present investigation indicated that ammonia was removed as fast as it was released from alanine deamination since the tissues did not show any significant change in the levels of ammonium nitrogen. Moreover, the tissues cultured in L — alanine solutions, table (4), showed greater increase in the complex — N, mainly protein, than in the amides. This might indicate the incorporation of L — alanine in protein formation. The incorporation of L — alanine — 1 — C^{14} into the proteins of plant tissue homogenates was proved by Webster (21). Also, Miettinen (15) showed that L — alanine was effectivey utilized for the synthesis of protein by pea plants.

TABLE 3

Effect of culturing carrot root disks in solutions of 0.005 M L— or D—alanine alone in combination with ammonium chloride. The figures are in mg. N (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight tissue

Nitrogen fractions	Controls*		Changes in N fractions during 24 hours			
			H_2O^{XX}		NH_4Cl^{X}	
	H_2O	NH_4Cl^{XX}	L-alanine	D-alanine	L-alanine	D-alanine
Ammonium-N	0 00	+14.70	+ 0.71	+ 0.72	+ 6.98	+ 5.85
Glutamine-N	8.12	+ 7.64	+10.31	+ 2.71	+ 6.90	— 1.34
Asparagine-N	2.54	+ 1.76	— 0.41	— 1.10	+ 0.60	+ 8.02
Amino acid N	5.49	+ 5.39	+22.47	+43.55	+21.01	+36.89
Rest-N	23.11	+20.29	+13.52	— 2.10	— 1.63	—17.83
Protein-N	70.51	+ 4.34	+ 8.23	+ 0.84	+ 5.03	— 3.54

* Control tissues are cultured in distilled water or 0.005 M NH_4Cl.

X Compared with control in NH_4Cl.

XX Compared with control in water.

TABLE 4

Effect of culturing carrot root discs in solutions of L — alanine alone or in combination with ammonium chloride. The figures are given in mg. — N (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight of tissue.

Nitrogen fractions	Controls*		Changes in N fractions during 24 hours					
			H_2O^{XX}			NH_4Cl^{X}		
	H_2O	NH_4Cl^{XX}	0.0025 M L-alanine	0 005 M L-alanine	0.01 M L-alanine	0.0025 M L-alanine	0.005 M L-alanine	0.01 M L-alanine
Ammonia-N	0.37	+ 8.67	+ 0.01	+ 0.01	+ 0.39	+ 7.44	+ 7.10	+ 7.10
Glutamine-N	2.26	+ 9.78	+11.30	+11.02	+17.97	+ 6.46	+ 5.32	+ 5.34
Asparagine-N	1.46	+ 4.06	+ 3.47	+ 3.58	+ 8.18	+ 0.32	+ 0 16	+ 0.92
Amino acid-N	7.03	+ 2.47	+10.45	+11.60	+11.20	+ 8.19	+10.14	+10.24
Rest-N	5.63	+ 2.83	+ 3.35	+ 4.24	— 4.08	— 3.70	— 1.57	— 2.37
Protein-N	63.04	+15.66	+23.50	+24 00	+20.82	+14.16	+14.52	+13.00

* Control tissues are cultured in distilled water and in 0.00M NH_4Cl.

X Compared with control in NH_4Cl.

XX Compared with control in water.

On the other hand, carrot root disks cultured in D — alanine, table (3), showed a smaller increase in amide — N X 2. This increase might he at the expense of complex — N which showed a more or less equal decrease. Addition of D — alanine to ammonium chloride caused a marked decrease in the glutamine - and complex — N fractions probably due to the inhibiting effect of this isomer on ammonium — N absorption and assimilation. But addition of L — alanine to ammonium chloride, although inhibited ammonium — N absorption and assimilation, yet it caused considerable increases in the organic — N fractions, reasonably, at the expense of the utilizable L — alanine.

SUMMARY

The uptake and utilization of the different stereoisomers of alanine by carrot root disks were studied.

1. L — alanine was absorbed at a faster rate than D — enantiomorph.

2. Carrot root disks showed a marked ability to utilize L — alanine, but the D — isomer absorbed accumulated as such in the cells.

3. L — and D — alanine depressed the rate of ammonium uptake and assimilation; the depression caused by the D — form was more greater than that of the L — form. With both isomers, the depression on ammonium assimilation was more pronounced than on absorption.

4. L — alanine caused a greater increase in the protein than in amides, forming liberally glutamine; asparagine was formed, however, at a lower rate. On the contrary, D — alanine inhibited glutamine and complex — N synthesis.

ACKNOWLEDGEMENT

The author wishes to thank Professor I.A. Nada for revising the manuscript.

BIBLIOGRAPHY

1. Berger, J. and Avery, G.S., Jr. Glutamic and isocitric dehydrogenases in the Avena coleoptile and the effect of auxins on these enzymes. Amer. J. Bot. 31 : 11 - 19, 1944.

2. Birt, L.M. and Hird, J.R. The uptake and metabolism of amino acids by slices of carrot. Biochem. J. 70 : 277 - 286, 1958.

3. Birt, L.M. and Hord, J.R. Kinetic aspects of the uptake of amino acids by carrot tissue. Biochem. J. 70 : 286 - 292, 1958.

4. El-Shishiny, E.D.H. Absorption and assimilation of inorganic nitrogen from different sources by storage root tissues. J. Exp. Bot. 6 - 16, 1955.

5. El-Shishiny, E.D.H. and Nosseir, M.A. The relation of optical form of the utilization of amino acids. I. Utilization of stereoisomeric forms of glutamic acid by carrot root disks. Plant Physiol., 32 : 360 - 364, 1957.

6. ... ... The relation of optical form to the utilization of amino acids. II. Utilization of stereoisomeric varieties of aspartic acid and asparagine by carrot root disks. Plant Physiol., 32 : 639 - 643, 1957.

7. ... ... Studies on the effects of some dicarboxylic acids on the uptake and utilization of inorganic nitrogen. 1 : Effects of some dicarboxylic acids on the uptake and utilization of ammonium — N by carrot roo tdisks. Submitted for publication in J. Bot., U.A.R., 1961.

8. Frank, E.M., Riker, A.J. and Dye, S.L. Comparison of growth by tobacco and sunflower tissne on synthetic media containing various sources of organic nitrogen. Plant Physiol., 26 : 258 - 267, 1951.

9. Ghosh, B. P. and Burris, R.H. Utilization of nitrogenous compounds by plants. Soil Sci., 70 : 187 - 203, 1950.

10. Harris, G.P. Amino acids as nitrogen sources for the growth of excised roots of red clover. New Phytol., 58 : 330 - 344, 1959.

11. Krebs, H.A. Metabolism of amino acids. IV. The synthesis of glutamine from glutamic acid and ammonia and the enzymic hydrolysis of glutamine in animal tissues. Biochem. J., 29 : 1951 - 1969, 1935.

12. Kretovich, V.L. and Yokovlevia, V.I. Biosynthesis of glutamic acid and glutamine in pea and wheat seedling. Plant Physiol. U.S.S.R., 6 : 174 - 178, 1959.

13. Leonard, M.J.K. and Burris, R.H. A survey of transaminases in plants. J. Biol. Chem., 170 : 701 - 709, 1947.

14. Macht, D.I. Growth of Lupinus albus seedlings in solutions of some amino acids. Amer J. Bot., 21 : 72 - 76, 1934.

15. Miettinen, J.K. Assimilation of amino acids in higher plants. Symposia of the Soc. exp. Biol. No. XIII : Utilization of nitrogen and its compounds by plants. p. 210 - 229, 1959.

16. Nitsch, J.P. and Nitsch, C. Auxin-dependent growth of excised Helianthus tuberosns tissues. II. Organic nitrogen compounds. Amer. J. Bot., 44 : 555 - 564, 1957.

17. Ricker, A.J. and Gutsche, Alice E. The growth of sunflower tissue in vitro on synthetic media with various organic and inorganic sources of nitrogen. Amer. J. Bot., 35 : 227 - 238, 1948.

18. Virtanen, A.I. and Linkola, H. Organic nitrogen compounds as nitrogen nutrition for higher plants. Nature, 158 : 515, 1946.

19. Webster, G.C. Enzymic synthesis of glutamine in higher plants. Plant Physiol., 28 : 724 - 727, 1953.

20. ... ... Incorporation of radioactive glutamic acid into the proteins of higher plants. Plant Physiol., 29 : 382 - 385, 1954.

21. ... ... Incorporation of radioactive amino acids into the proteins of plant tissue homogenates. Plant Physiol, 30 : 351 - 355, 1955.

22. Webster, G.C. and Varner, J.E. Asparate metabolism and asparagine synthesis in plant systems. J. Biol. Chem., 215 : 91 - 99, 1955.